مصر في عهد الإسلام

خواطر في تاريخها ونبذ عن آثارها

تأليف

محمود عكوش

سكرتير بلجنة حفظ الآثار العربية وأستاذ معيد بالمعهد العلمى الفرنسى لآثار الشرق بالقاهرة ، سابقا

فتح مصر والاسكندريه

القاهرة

مطبعة دار الكتب المصرية

١٩٤١

مصر في عهد الإسلام

خواطر في تاريخها ونبذ عن آثارها

تأليف

محمـــود عكوش

سكرتير بلجنة حفظ الآثار العربية وأستاذ معيد بالمعهد العلمي الفرنسي لآثار الشرق بالقاهرة ، سابقا

فتح مصر والاسكندرية

القاهرة

مطبعة دار الكتب المصرية

١٩٤١

فهـــرس الكـتاب

صفحة

فتح الإسكندرية :

صفحة

الفسـطاط :

ولاية عبد الله بن سعد على مصر كلها :

صفحة

اللوحات والصـــــور

تصدير

بقلم حضرة صاحب العزة الأستاذ الجليل والعالم الكبير

محمد رمزى بك

طلب الى صديقى الأستاذ محمود عكوش رأيى فى كتابه الذى ضمنه خواطره فى تاريخ مصر فى عهد الإسلام، ونبذا عن آثارها . ولقد اطلعت على ما كتبه ، فوجدته كما لابد أن يجده غيرى دليلا على سعة اطلاعه وتعمقه فى البحث وتلمسه الحقيقة، شأن الكاتب المخلص الذى يقدّر كرامة العلم، ويعرف حق الخلف والسلف معا .

واذا كان قد ثار على المبطلين والمضللين من المؤلفين ثورة العربى، وغضب للحق غضبة المسلم الأبى، وكان فى هذا شديدا عليهم ، فذلك فيما أرى نضح وطنيته العالية ، وتألمه من اتخاذ بعض كتاب الغرب[1] ما يؤلفونه فى تاريخ العرب والإسلام وسيلة لمس كرامة المسلمين باسم النقد والتأليف .

من يقرأ للأستاذ عكوش كتاب الجامع الطولونى، والرسالة القيمة التى عالج بها طائفة من الأقوال التى بقيت زمنا طويلا تؤول على وجه مغاير للفهوم من النصوص الأصلية، بين من كتبوا عن المسجد الأعظم بالمدينة

---

(١) والمقصود به طائفة من المؤلفين دأبوا على النقد والتجريح . وقد ذكرهم الدكتور ستانلى لين پول وسماهم « جماعة النقادين الهدامين » وقال : ان ويلهوزن يتزعمهم، وتبعهم كايتانى . تاريخ مصر فى القرون الوسطى، ص ٧ (١) ونضيف اليهما لامنس و بتلر و بوتشر .

المنورة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام؛ يتبين له سعة علم الأستاذ بالآثار العربيــة وغزارة مادته من التاريخ الإســلامى، وإلمــامه بخبايا المصادر، ومزيد عنايته بتمحيص ما ورد فيها من مختلف الروايات .

ولا شك أن الجهد الذى بذله الأســتاذ عكوش فى وضع هذا الكتاب القيم الذى نحن فى أشــد الحاجة الى مثله، لجدير بالإعجــاب والثناء، بالنظر لمــا استلزمه وضــعه من التعب والصبر فى استيعاب البحث بحميــة، ومضاء عزيمة، وبتوفيق الله له؛ ليستبين الحق على يديه، ولينتفع به طلاب التاريخ والآثار العربية التى يعدّ الأستاذ عكوش، بفضل دراســته الواسعة، وقضاء أنفس أيام حياته فى العمل لهــا فى مصلحة الآثار الإسلامية، من خدّامها المخلصين . وله منى جزيل الشكر وعظيم التقدير ؟

محمد رمزى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . وبعد فإنى لما تخليت عن عملى بلجنة حفظ الآثار العربية ، خطر لى أن أدوّن مذكرات بما وقعت عليه العين من الاختلاف بين كتب السلف ، وبين البحوث الحديثة التى خدم بها علماء أوروبا ومن حذا حذوهم من أبناء مصر، علم الآثار العربية والتاريخ ؛ وأن أثبت ما يقتضيه المقام من تعليق واستدراك .

وقد كنت أشعر بميل غريب يحفزنى الى تحقيق فكرتى، بالرغم مما يقتضيه العمل من جهد ومشقة . ولكن إخلاصى للغاية التى تمثلت أمامى ، كان يدفعنى الى النهوض قدر جهدى، والتغاضى عن وعورة المسلك؛ فاستخرت الله فى العمل آملا أن يوفقنى لبيان الوقائع على الوجه الصحيح بعد مراجعة المآخذ ومقارنة الروايات بعضها ببعض .

ولما كان الكتاب خاصا بالآثار العربية الشهيرة فى مصر، فمن حق القارئ أن يعرف تاريخ الفتح العربى الذى بسبب تمكنه من البلاد ، نشأت هذه الآثار . ومن حقه علىّ، وقد صادفتنى أخطاء كثيرة وعثرات فى المواضيع التى عالجتها وقع فيها من تصدّوا للكلام عن الفتح ، أن أدوّن ما ظهر لى منها فيما كتبوا من تاريخ هذا الفتح ، منذ مسير عمرو بن العاص الى مصر، الى أن استقر الأمر فيها للعرب، جامعا بين ما كتبه مؤرّخوهم

وغيرهم ، ذاكرا ما تبين لى رجحانه ، من حكاية وقائع عمرو مع الروم ، وما قيل عن موقف أهل مصر يومئذ ، وهم القبط . وذكرت خبر المفاوضة مع المقوقس ، وغيره ، والزحف الى الإسكندرية وفتحها ، وما قيل عن شخص المقوقس ، وتعيين تاريخ الفتح .

وقد استعنت بتحقيقات صديق الأستاذ الكبير محمد رمزى بك ، المفتش السابق بوزارة المالية والعضو بالمجلس الأعلى للآثار العربية ، فى تعريف المدن والقرى المذكورة فى حديث الفتح . وقد وجه الصديق نظرى الى ما تضمنه كتاب فتح العرب لمصر الذى وضعه الدكتور بتلر ، ونقله الى العربية الأستاذ الفاضل محمد فريد أبو حديد من كبار موظفى وزارة المعارف ، فطالعت هذا المؤلف فوجدته من حيث التأويل والنقل والرواية ، يخالف الحقيقة فى كثير من المواضع .

واذ كان هذا الكتاب قد شاع فى مصر على أثر ترجمته ، فقد وجهت اليه جهدى ، رغبة فى أن أردّ الحق الى نصابه ، آملا أن أمحو من الأذهان ما حاوله الكاتب بتلك الروح الجائرة .

وقد ظهر لى عند مطالعتى مقدمة الكتاب ، أن الدكتور بتلر لخص كل ما كتبه العرب عن خبر الفتح فى بضعة أسطر ، وعلق عليها بقوله : ان هؤلاء المؤرّخين إنما يثبتون قصة لاحقيقة لها من بدئها الى ختامها وان شئت قلت هى خرافة ، واتجه بعد ذلك الى مؤلفات أهل الغرب فقال عنها : " انه لا يجوز الاعتماد عليها وحدها ، فهى إما يونانية مخيبة للظن ، وإما أرمنية لا تفيد فى تاريخ الفتح ، وإما مخلفة عن الكتاب المصريين " . فلما وصل به القول الى ذكر حنا النقيوسى ، المعزو اليه الكتاب المعروف باسمه

قال : ان أخباره ذات قيمة عظمى ، لو لم يتطرق الى صفحاته التلف وتختلط فى كتابه أخبار آخر مـدة الفتح اختلاطا عظيما حتى انقلبت رأسا على عقب! ومع ذلك فهى فى نظره تحتـوى بعض حقائق يعتبرها وثائق قيمة؛ ولو أنها كما قال، تخالف ما جاء فى الروايات العربية المتأخرة عنها .

وذكر الدكتور بتـلر بعض مخطوطات قبطية كنأسـية، لا علاقة لهـا بالموضوع وجعلها من مصادره، ثم تكلم عن مؤرّخى العرب، فذكر البلاذرى، وقال : إن كتابه « فتوح البلدان » وإن لم يكن أغزر مادة من غيره، يعـد حجـة من أعظم المراجع قيمة ، وقال عن ابن عبد الحكم : ان كتابه يختلط فيه كثير من قصص الخيال، بأخبار التاريخ ، ولو نشرت منه نسخة منقودة لكانت ذات شأن عظيم . وذكر من جاء بعـد هؤلاء من الإصطخرى الى ابن قتيبـة ، ثم الطـبرى فقال : إنه علم من أشهر الكتّاب ، ومن أجلهـم قدرا . وإن من أكبر مايدعو إلى الأسف أن مارواه عن فتح مصر قليـل أو ناقص، وقد دخله خلط كثير ، فقد جاء فيه مايؤخذ منه أن فتح الإسكندرية حدث قبل فتـح منفيس أو مصر . وقال عن سـاويرس الأسقف القبطى للاشمونين : إنه عظيم القيمة فى تاريخ الكنيسة، ولكنه لايشفى الغليل من جهة أخبار العالم الدنيوى . وذكر من خلفه من المؤرخين مع أمهات الكتب الشرقيـة وقال : إن أخبار الفتح غير واضحة فيهـا ولا دقيقة، بل متقطعـة وغير متصلة ، وبهـا خلط فى التـواريخ والحوادث والأشخـاص كالخلط بين قيرس وبنيـامين ، وبين فتح القطر المصرى وفتح مدينـة مصر وفتح الإسكندرية، والجمع خطأ بين معاهدة بابليون ومعاهدة الإسكندرية، وعدم التميـيز بين فتح الإسكندرية الأوّل الذى كان صلحا وبين فتحها الثانى الذى كان عنوة فى ثورة منويل .

واسترعى نظرى كذلك ثنـاء الأستاذ المعرّب فى مقدمته وقوله : " إنه لو ظهر هـذا الكتاب من نحـو عشرين سنة لمـا قدّره أهـل مصر قـدره ولمـا تبينوا روح مؤلفـه العادل وما فى صدره من سعة وفى عقله من رجحان؛ وأما اليوم فانهم لا شـك يقدّرون ذلك و يدركون مافيـه من العدالة؛ وانه معجب بالعـربى ومعجب بالقبطى؛ وان له فضـل نفى بعض مفـتريات التاريخ التى طالمـا استعان بها من أراد البغى على المصريين، واتهامهم بأنهـم كانوا يرحبون بالغزاة الأجانب؛ فرحبوا أوّلا بالفرس، ورحبوا ثانيا بالعرب؛ يريدون أن يتخلصوا من نير ليضعوا نيرا آخر على رقابهـم ؛ فكذب الدكتور بتـلر ما ادّعاه المغرضون من المؤرّخين؛ وانه كان عادلا فى وصـف الأفراد والمجموع ، فأعجب بعمرو بن العـاص ، ونفى عن العرب إحراق مكتبـة الإسكندرية ، وبحث فى شخصية المقوقس وانتهى بأنه لم يكن سوى قيرس البطرك الملكانى" . وعدّ الأستاذ المعرب ذلك فضلا كبيرا !

وقـرأت المتن الى أن وصلت الى أخبـار الفتح وأنا أمنى النفس بأن أجد فيها ما يزيد على روايات العرب ، ولكنى لم أمض طويلا حتى رأيت المؤلف يعـد من الخسارة أن كتاب حنا النقيوسى الذى جعله عمدته الأعظم لا يذكر شيئا عن أوّل غزو العـرب ويغفل جزءا كبـيرا حاويا تاريخ حكم هرقل كله من وقت توليتـه الى أن قال : وان مابقى بعـد ذلك من كتاب النقيوسى مختلط مشوّه الترتيب؛ وقد نقلت بعض فصول الكتاب والجمـل من مواضـعها عدا التكرار والحذف فى عدة مواضع (١) .

ولمـا كان ماورد فى كتاب الدكتور بتـلر من الروايات والوقائع يختلف عما مر على فى مطالعاتى التاريخية، ورأيت المؤلف يتهم العرب بالخلط ثم يقول

(١) فتح العرب لمصر ص ١٩٤ (١)

انه مضطر للاعتماد عليهم وحدهم؛ واذا نقل عنهم يصف ما ينقله بأنه مضطرب وأن مؤرخى العرب مخطئون، ويتبع طريقة مجرحة للرواة مع جرأة على التحوير والتحريف والإتيان بالتفسير الغريب الذى قوامه التكذيب والمسخ، فقد حزنت أن يبلغ الهوى بالدكتور بتلر هذا المدى .

ولم ينزه الدكتور بتلر قلمه، فى الكلام على الأشخاص حتى نقول بعدله؛ بل اشتط وتطاول فى مواضع، على ماعرف عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه من الخصال الحميدة والأخلاق الجميلة فقال : انه ما كان يستشعر رحمة فى جباية الأموال، وانه اتهم عمرو بن العاص بالخيانة والتفريط، وان عمر بن الخطاب نفسه أولى بأن يتهم بالحرص، وانه كان إذا قال: " المسلمين "، لم يقصد إلا نفسه ، أو تلك الفئة القليلة التى كانت معه فى مكة؛ وقد كان ذلك وبالاً عليه[1] .

وقال : وقد حذق خلفه[2] ذلك الدرس، وهو لعمرى درس وبيل .

وقال أيضا عن أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه : ولكن هذه المكارم كانت نقائص فى عين الخليفة ، اذ كان بها مرض من سخطه[3] ؛ فكانت كتابته بعيدة جدا عن دائرة الإنصاف . ومن ذا الذى يقرّ هذه الأقوال من أبناء مصر اليوم وقبل اليوم بعشرين سنة[4]؟

(١) فتح العرب لمصر ص ٣٩٦ — ٣٩٩ و ٤٠٠

(٢) يقصد أمير المؤمنين عثمان؛ فتح العرب لمصر ص ٤٠٠

(٣) فتح العرب لمصر ص ٤٢٣

(٤) ولا يفوتنى هنا أن أنوه أن حضرة الفاضل معرب كتاب الدكتور بتلر سبق له أن علق بذيل الصفحة رقم ٣٩٩ على رأى الدكتور بتلر بقوله : " إننا ننقل هنا ما ذهب اليه المؤلف من رأيه فى عمر؛ ولنا رأى يخالفه كل المخالفة ؛ اذ أن عمر وسائر الصحابة كانوا فى كل أقوالهم وأفعالهم صادرين عن رغبة فى الخير، لم يوفق المؤلف الى تفهمها وا كتناهها " .

ومن مميزات كتاب الدكتور بتلر أن نقده مبنى على فهم معكوس أحيانا ، ومراجع ناقصة أو مبتورة مشوهة الترتيب بالتقديم والتأخير ؛ فروايات مجهولة المصدر وحشو يغير المعنى جىء به قسرا لنفى أقوال مأثورة صحيحة ؛ تخلل ذلك أوهام وتخيلات قد تنتهى بتراجع يدل على تصرف غريب .

وقد وصل الأمر بالدكتور بتلر الى أنه لا يعتمد على المصادر العربية ، وإن اعترف بصحتها ووافق عليها ، ويفضل الروايات الأخرى ؛ ولو لم يقم عليها الدليل المناقض للروايات الصحيحة . مثال ذلك : أنه لما بحث رواية الطبرى سماها موقعة عين شمس ، وتصرف فيها بما يخالف قول الطبرى وقال : "إنه من الإسراف أن نكذب خبرا مثل هذا الخبر المفصل ؛ ثم قال : ولكنا فوق ماشعر به عن ضرورة الأخذ بما جاء فى كتاب حنا الذى كان قريبا من ذلك العهد ، يظهر لنا أن الطبرى قد أخطأ فى وصف البلاد ، فان وصفه للوقعة صحيح ولكنها لم تكن عين شمس" .

ومن يطلع على التفصيل الذى دوّنه فى وصف الوقعة يتبين له أنه من شرحه وأنه ينتقد الشرح الذى وضعه ونسبه ظلما الى الطبرى .

ومن الغريب أن يؤاخذ الطبرى على هفوات بسيطة فى أسماء أطلقت على بعض المواقع ؛ وقد تكون هى الأسماء التى كانت تلك المواقع تعرف بها فى ذلك الوقت .

وقد وقع له هو نفسه من الأغلاط فى أسماء البلاد والأشخاص ما هو أحق بالانتقاد .

وكانت النية متجهة إلى ادراج تصحيحاتى فى سياق البحث التاريخى ، ولكن صديقى الأستاذ رمزى بك أشار على بأن أفرد لهذه التصحيحات بحثا

قائما بذاته ؛ فعملت برأيه وجعلت هذا الكتاب الأول من هذه البحوث . واخترت له العنوان المصدر به وهو «فتح مصر والإسكندرية» . واتخذت العنوان الجامع للسلسلة كلها « مصر فى عهد الأسلام » . أما موضوعها فيتكون من خواطر فى تاريخ مصر ونبذ عن آثارها .

وقد عنيت بتدوين الأخبار المتواترة فى كتب التاريخ بنصها الحقيق وافية قدر الإمكان ، حتى لا يقف تأويلها عند معنى واحد ولا يضطر الباحث الى البحث عن الأصل .

وهذا فى نظرى أصلح طريق لتدوين الأخبار التاريخية .

وقد اطلع على الجانب الأثرى والتاريخى، حضرة الأخ الأثرى الكبير محمد افندى نافع وكيل ادارة حفظ الآثار العربية سابقا .

وتفضل حضرة صديق المفضال محمد عبد الجواد افندى أستاذ اللغة العربية بالمعاهد العالية بوزارة المعارف، بمراجعة ما كتبته خدمة للغة والعلم .

ولما فكرت فى إخراج هذا المؤلف تمثلت أمامى الصعوبات الجمة التى تعترض ذلك بالنظر للأحوال الحاضرة . ولكنى ، لحسن الحظ ، وجدت من حضرة الأستاذ الفاضل محمد افندى نديم ، مدير مطبعة دار الكتب المصرية ، كل تشجيع ومعاونة ؛ فتذللت بفضله وعنايته كل الصعوبات ، وصدر الكتاب على هذا النسق كما عوّدنا فى كل ما تخرجه مطبعة دار الكتب ، على أتم وجه وأكمله ، فله جزيل الشكر .

ومن توفيقات الله سبحانه وتعالى أن تم هذا العمل فى ظل حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك الصالح "فاروق" ملك مصر المعظم أيده الله بنصره وحفظه بعنايته ، آمين ما

محمود عكوش

وقائع الفتح

كما يـــراها المـــؤلف

لمـا رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحُدَيْبِيَة ، كتب الى الملوك وغيرهم يدعوهم[1] الى الإسلام . وكان رسوله الى المقوقس ، حاطب بن أبى بلتعة وآخرين، بعثهم في ذى الحجة من سنة ست هجرية (أبريل سنة ٦٢٨ م)، كما رواه الطبرى فى تاريخه عن محمد بن عمر[2] .

وقـد ذكر الطبرى فى حديث آخر لابن اسحاق ، أنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فرق رجالا من أصحابه إلى ملوك العرب والعجم ، دعاة الى الله عز وجل فيما بين الحديبية ووفاته[3] .

وصـل حاطب الى مصر فى سنة سبع هجرية[4] (٦٢٨ م) ، بعـد جلاء الفرس عنها منذ أول سنة ٦٢٧ م[5] .

ولمـا انتهى أمير المؤمنين عمر رضى الله عنـه ، من فتح الشام ، أنفذ عمرو بن العاص بجيش من المسلمين الى مصر يعرض الإسـلام على أهلهـا ويفتحها . ووصل عمرو الى العريش، فى يوم النحر، الأحد ١٠ من ذى الحجة سنة ١٨ هجرية (١٢ من ديسمبر سنة ٦٣٩ م)[6] .

وكانت مصر وقتئذ، فى طاعة هرقل ملك الروم .

---

(١) القسطلانى ، المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٨٩ — ٢٩٢ . (٢) تاريخ الأمم والملوك ، مطبعـة الحسينية ، ج ٣ ص ٨٤ . (٣) تاريخ الأمم والملوك ، ج ٣ ص ٨٤ و ٨٥ (٤) محمد مختار باشا اللواء المصرى ، التوفيقات الإلهامية ص ٤ (٥) الدكتور بتلر ، فتح العرب لمصر ص ١٥٤ (٦) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر (ليدن) ص ٥٨ .

ووقع القتال بالفرما وبلبيس بين المسلمين وجند هرقل، وبقى القبط أهل مصر بعيدين عن القتال . وقد ورد أنهم كانوا يعملون بمشورة أحد أكابر رجال الدين . والمتبادر أنه بنيامين بطركهم ، وكان مختفيا فرارا من قيرس بطرك الإسكندرية الملكانى الذى جعل له هرقل ولاية الدين فى مصر وأمره أن يعمل على توحيد مذهبى اليعاقبة أهل مصر والملكانيين رجال الدولة ، والجمع بينهما فى مذهب واحد ، ابتدعته حكمة المجلس الإمبراطورى [1] ؛ فلما أخفق حمل الناس على ما أراد بالاضطهاد، وتولى قيرس تنفيذ إرادته [2] .

وكان من أثر ذلك أن تلقى القبط عمرا بالمسالمة [3]، وهو أمر طبيعى، حيال ذلك الاضطهاد الذى بلغ أشده، وعجز القبط عن الخلاص منه ، كما يتبين ذلك فى قول أبى الفرج بن العبرى : "ولما شكا الناس الى هرقل لم يجب، ولهذا أنجانا الله المنتقم من الروم على يد العرب ، فعظمت نعمته لدينا أن أخرجنا من ظلم الروم وخلصنا من كراهتهم الشديدة وعداوتهم المرة [4]" ؛ ولم يكن ذلك لتواطؤ بين المسلمين والقبط ، لأن المسلمين قدموا لتنفيذ الدعوة الى الإسلام، فكانوا أرفع من أن يتواطئوا، وكان القبط من جانبهم لا يفكرون فى غير النجاة من الباغين عليهم وعلى عقيدتهم .

ولما انتهى عمرو من بلبيس مضى فى طريقه الى بابليون فمر بأطلال عين شمس حتى أتى أم دنين . وهناك اشتد القتال، وأبطأ عليه الفتح، فكتب الى أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه يستمده [5]، ثم ضاعف هجومه حتى فتحها .

(١) فتح العرب لمصر ص ١٢٢ (٢) فتح العرب لمصر ص ١٣٩
(٣) ابن عبد الحكم (ليدن) ص ٥٨ و ٥٩ (٤) فتح العرب لمصر ص ١٤١ عن مختصر تاريخ الدول لأبى الفرج بن العبرى طبعة سنة ١٦٦٣ ص ٢٧٤ (٥) ابن عبد الحكم ص ٦١

وتقدم بجنده الى حصن بابليون، وكانت به جموع الروم ، ونزل بجيشه فى الشمال الشرقى منه بموضع كان يعرف بجنان الريحان، حوالى منتصف شهر جمادى الأولى فى سنة ١٩ هجرية (منتصف مايو سنة ٦٤٠ ميلادية) ؛ وهو نهاية المدّة التى استغرقها مسير عمرو من العريش الى جنان الريحان ، كما ورد فى الروايات العربية .

وقد كان المقوقس الذى وصله كتاب النبي عليه الصلاة والسلام يقيم بالإسكندرية ، فلما علم بزحف المسلمين انتقل منها الى مصر وأقام بالحصن يجهز على عمرو الجيوش . وكان معه رجل من الروم تحت يده، يقال له الأعيرج واليا على الحصن ، وبعض قواد الروم ، ومن بينهم قائد يسمى أرطبون كان بالشام واضطر لمغادرتها لما ظفر المسلمون بها، وآخرون .

وبين منتصف جمادى الأولى من سنة ١٩ هجرية ، وحوالى ٩ من جمادى الثانية من السنة نفسها (٦ يونية سنة ٦٤٠ م) ، وصل المدد ومعه الزبير بن العوام وغيره من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفى كتاب ساويرس الأشمونينى أن يوم ١٢ بؤونة (أو پاينى) وهو يوافق ٦ يونية ، هو اليوم الذى هبط فيه جيش المسلمين الى مصر فى قوّة عظيمة [١] .

وأعقب اجتماع الزبير بعمرو، حصول مفاوضات بين المسلمين والمقوقس، فاجتمع فى المفاوضة الأولى منها مع عمرو راهبان انتدبهما المقوقس للاتفاق وحصلا من عمرو على مهلة؛ وقبل انتهائها، باغت أرطبون المسلمين بالقتال [٢] .

---

(١) فتح العرب لمصر، ص ٤٦٨

(٢) الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج ٤ ص ٢٢٨

وفى المفاوضة الثانيـة ، قيل أن عمراً دخل الحصن للفاوضـة بدعوة من المقوقس ثم شعر بغدر أهل الحصن به ، فاحتال على الخروج[١]، واستمرت المناوشات والقتال بين الفريقين .

وانهزم الروم فى قتال على مقربة من الحصن ،وكانوا قد بوغتوا من ورائهم بكمين من جند المسلمين عليه خارجة بن حذافة كان وصل الى مغار بنى وائل[٢] .

واشتهر موضع انهزام الروم بمسجد عرف بمسجد الفتح بالقرافة الكبرى[٣] .

واستمر حصار الحصن والقتال ؛ فلما رأى المقوقس ومن معـه صبر العرب وشدّة عزمهم خافوا وخرجوا من باب الحصن الجنوبى ،ولحقوا بجزيرة الروضـة ، وأمروا بقطع الجسر ، وذلك فى جرى النيل[٤] . وتخلف الأعيرج بالحصن ثم لحق بالجزيرة .

وأرسل المقوقس الى عمرو يطلب انتداب من يفاوضه . فأرسل اليه عمرو شروطه وهى ثلاثة : الدخول فى الإسـلام أو دفع الجزية أو استمرار القتال . ولكن المقوقس طلب أن يبعث اليهم عمرو رسلا فبعث اليه بعشرة نفر أحدهم عبادة بن الصامت من أصحاب رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، وحصلت بينه وبين المقوقس مفاوضة طويلة ، ظهر فيها ميل المقوقس إلى وقف القتال والتسليم ؛ ولكن أصحابه أبوا وقالوا : "الموت أهون علينا[٥]" .

وكانت هذه المفاوضة فى آخر شعبان فى سنة ١٩ (أغسطس سنة ٦٤٠) وعاد القتال الى أن ظفر المسلمون بالحصن ومن فيـه ؛ وقتل خلق كثير ، وانتهى الأمر بأن اجتمع الفريقان على عهد بينهما واصطلحا[٦] .

---

(١) الخطط للقريزى ج ١ ص ٢٩٠ (٢) فتوح مصر لابن عبد الحكم (ليدن) ص ٥٩
(٣) الخطط للقريزى ج ٢ ص ٤٤٧ (٤) الخطط للقريزى ج ١ ص ٢٩٠
(٥) الخطط للقريزى ج ١ ص ٢٩٢ (٦) ابن عبد الحكم (ليدن) فتوح مصر ، ص ٦٩ و ٧٠

ويؤخذ من رواية للطبرى ان الزبير نزل على أهل الحصن عنوة، ولما تعاهد الفريقان أجرى المسلمون ما أخذوا عنوة مجرى ما صالح عليه المقوقس عمرا، وهو دفع الجزية والخراج .

واشترط المقوقس أن له الخيار فى الروم خاصة حتى يكتب الى هرقل فان أجاز الصلح قبلوه، والا كانوا على ما كانوا عليه . وهكذا بقى الروم خارج الصلح .

وكان الفتح فى يوم الجمعة ٢ من المحرم سنة ٢٠ هجرية (٢٢ من ديسمبر سنة ٦٤٠ م)[١] ؛ ثم أرسل عمرو البعوث الى الصعيد وبلاد مصر السفلى، فغلب على أرضها وصالح أهل قراها على مثل ما تمت عليه المعاهدة، فاستجمع فتح البلاد كلها تدريجا، وصارت أرضها أرض خراج .

وأقامت الفيوم سنة لم يعلم المسلمون بمكانها ثم افتتحت[٢] .

وجاء كتاب هرقل الى المقوقس برفض الصلح والأمر بقتال عمرو . وبقى القبط على الصلح الذى تعاقدوا عليه .

وعزم عمرو على الزحف على الإسكندرية، فطلب من القبط أن يضمنوا له الجسرين ويقيموا الأنزال والضيافة والأسواق والجسور ما بين مصر والإسكندرية ؛ ومن ثم صاروا له أعوانا .

وسار عمرو الى الإسكندرية فى ربيع الأول من سنة ٢٠ هجرية (١٨ من فبراير — ١٩ من مارس سنة ٦٤١) .

---

(١) مختار باشا المصرى، التوفيقات الإلهامية، ص ١٠

(٢) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٢٤٩

وتجمع الروم فى طريقه وحصلت بين المسلمين وبينهم وقائع عدّة [١] .
ومات هرقل فى ٢٣ من صفر سنة ٢٠ هجرية؛ (١١ من فبراير سنة ٦٤١ م) [٢] .

وكتب عمرو أمانا لبنيامين بطرك الأقباط فعاد من فراره فى سنة عشرين هجرية . وحصلت مفاوضة بين عمرو وحاكم الإسكندرية ببلهيب؛ ثم فتحت الإسكندرية فى يوم الجمعة أوّل جمادى الآخرة من سنة عشرين هجرية [٣] (١٨ من مايو سنة ٦٤١ م) وهو فتحها الأوّل عند البعض .

وخرج عمرو فى طلب فريق من الروم كان هاربا فى البر والبحر؛ وفى أثناء غيابه رجع من خرج؛ وأوقعوا بالمسلمين فى الإسكندرية . وبقى المقوقس على عهده، فلم ينكث ولم يتحرك .

ورجع عمرو وأعاد فتح الإسكندرية، فى يوم الجمعة لمستهل المحرّم سنة إحدى وعشرين (ديسمبر سنة ٦٤١ م) [٤] ؛ وهو فتحها الثانى .

وفى ١٧ من سبتمبر سنة ٦٤٢ أبحر الروم من الإسكندرية بعد مهلة اشترطت فى الصلح .

هذا السياق من الوقائع هو ما اتفقت عليه الروايات العربية؛ وقد أثيرت فى صدده اعتراضات ومناقضات ، تبين من الرجوع الى المصادر الإسلامية انها لم تكن عادلة .

---

(١) الخطط للقريزى ج ١ ص ١٦٣

(٢) الخطط للقريزى ج ١ ص ١٦٤ ؛ فتح العرب لمصر ص ٤٧٤ و ٤٨٢

(٣) التوقيعات الإلهامية ص ١٠

(٤) الخطط للقريزى ج ١ ص ١٦٥

فتح مصر

سير عمرو بن العاص لفتح مصر :

اختلف أهل السير فى كيفية خروج عمرو بن العاص الى مصر . فقال ابن اسحاق : إن عمر رضى الله عنه حين فرغ من الشام كلها كتب الى عمرو بن العاص أن يسير الى مصر فى جنده (١) ؛ وكان عمرو تاجرا فى الجاهلية وكان يختلف بتجارته الى مصر وهى الأدم والعطر (٢) .

وقال أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم : لما قدم عمر الجابية خلا به عمرو ، وقال : يا أمير المؤمنين ، ائذن لى أن أسير الى مصر وحرضه عليها وقال : إنك إن فتحتها كانت قوة للسلمين وعونا لهم ؛ وهى أكثر الأرض أموالا وأعجزها عن القتال والحرب ، فتخوف عمر على المسلمين ؛ ولكن عمرا هون عليه فتحها حتى ركن اليه وقال : سر وأنا أستخير الله . ثم كاتبه وأمره بالرجوع إذا وصله الكتاب ، ولم يكن دخل

---

(١) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، المطبعة الحسينية ج ٤ ص ٢٢٦ . وفى ابن إسحاق والواقدى : " لما فتح الله على المسلمين ساحل الشام سنة سبعة عشر (وفى الواقدى تسعة عشر) كتب عمر رضى الله عنه الى أبي عبيدة عامر بن الجراح ، بأن يأمر عمرو بن العاص أن يتوجه بعسكره الى مصر ؛ فتوح مصر للأول ، ص ٥٤ ؛ وفتوح الشام للثانى ، ج ٢ ص ٥٧ " .

(٢) الكندى ، ولاة مصر ص ٧ . وكان العرب يعدون الأدم من المتاع النفيس . فقد ورد فى حديث أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم عن الهجرة الى أرض الحبشة ان قريشا إئتمروا على أن يبعثوا الى النجاشى هدايا ، مما يستطرف من متاع مكة . وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم ، فجمعوا له أدما كثيرا . (ابن القيم الجوزى ، هداية الحيارى ؛ على هامش الفارق بين المخلوق والخالق ، طبع الموسوعات ، ص ٣٠٥) .

أرض مصر . ودافع عمرو الرسول، حتى نزل فيما بين رفح والعريش، وقيل له : إنها من أرض مصر، فدعا بالكتاب وقرأه على المسلمين وأخبرهم بأمر عمر وقال : دخلنا أرض مصر فسيروا وامضوا على بركة الله . قال ابن عبد الحكم : وقيل غير ذلك ؛ وهو أن عمر أمره بالرجوع وخشن عليه في القول[1] .

وروى البلاذرى أن عمرا حاصر قيسارية ثم استخلف عليها ابنه ومضى الى مصر من تلقاء نفسه . فغضب عمر لذلك وكتب اليه يعنفه ويأمره بالرجوع الى موضعه إن وافاه كتابه دون مصر، فورد الكتاب اليه وهو بالعريش[2] .

وقال الكندى : إن أمير المؤمنين عمر كره الإقدام على من فى مصر من جموع الروم وجعل عمرو يهون أمرها ؛ وقد أمر أصحابه أن يتسللوا بالليل ثم أتبعهم[3] .

ويطابق هذا القول ما جاء فى روايتى ابن عبد الحكم، إلا ما ذكر فيه عن التسلل ليلا . ومن الغريب أن هذه الروايات رغم ما بينها من التباين والشذوذ، بقيت تتداول كما هى لا تنقد ولا ترجح منها رواية على رواية .

والمتبادر أن قول ابن إسحاق صحيح لأنه يناسب ما عرف عن عمر من الحزم والتقوى وصدق العزيمة . أما الروايات الأخرى فان فيها من ظواهر

(١) فتوح مصر، طبع القاهرة، ص ٥١ ؛ فتوح مصر (ليدن) ص ٥٦، وما رواه ابن عبد الحكم هو عن ابن لهيعة، عن عبيد الله بن أبى جعفر، وعياش بن عباس القتبانى، وغيرهما، قال : "ويزيد بعضهم عن بعض" . وقيل عن ابن لهيعة ضعيف .

(٢) فتوح البلدان (المطبعة المصرية) ص ٢١٤ ؛ فتوح مصر (ليدن) ص ٥٧

(٣) كتاب ولاة مصر ص ٧ ؛ ويقصد العرب دائما بقولهم الروم «البيزنطيين» .

التردّد والإحجام ما يخالف ذلك . ولا يعقل أن عمر الذى أخضع بلاد الفرس والروم وفتّ من جيوشه أعظم ملوك الأرض ، يأذن للجند بالمسير الى الغزو والجهاد ثم يتراجع ويقف السير وهو يعلم ما يترتب على ذلك من الوهن فى عزيمة الجند وطمع العدوّ .

ولم يسبق لأحد من أمراء الأجناد على عهد عمر من افتات عليه برأيه حتى نصدّق ما نسب الى عمرو . وسنرى أن عمرا ما كان يبت فى أمر ذى شأن إلا بإذن عمر ، كما استأذن قبل زحفه الى الإسكندرية ثم فى غزو إفريقية مثلا (١) .

ولا مراء فى أن هذه النصوص التى تنوقلت سماعا لم تسلم من الحشو والتصرف؛ ويدل عليهما اختلاف العبارة فى الرواية الواحدة أحيانا .

وقد ذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى تاريخه ، اختلاف أهل السير فى خبر المسير الى فتح مصر والإسكندرية ؛ ولكنه لم يثبت غير قول ابن إسحاق (٢) .

وقد مال الدكتور بتلر فى صدد التوفيق بين هذه النصوص الى نص منقح قال عنه : إنه يراه خير رواية تقال ؛ فذهب الى أن عمر رضى الله عنه وافق عمرا وهو متردّد . ولما أفضى الى عثمان رضى الله عنه ، بين له عثمان أن غزو مصر عظيم الخطر وفيه جرأة وتهوّر؛ فخشى عمر وندم ، فكتب الى عمرو يأمره بالرجوع إذا كان ممكنا قبل دخول مصر وأن يستمر إذا كان دخلها ، حتى لا تكون عودته خذلانا وسبة للسلمين . ووصف ماذكره المؤرّخون

(١) البلاذرى ص ٢٢١ و ٢٢٧ ؛ فتوح مصر لابن عبد الحكم (ليدن) ص ١٧٢

(٢) تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٢٢٦

العرب بأنه خلط، وأنه إذا صح كان منهجا من مناهج الحمق ؛ وليس عمر ممن يوصفون بمثل هذا الوصف [١] .

وهو دفاع لا يمكننا التسليم به ولسنا بحاجة اليه ؛ طالما كان من المستحيل أن يقع الأمر على تلك الصورة .

وصول عمرو الى العريش :

وأقبل عمرو بن العاص حتى اذا كان بجبل الحلال ، نفرت معه راشدة وقبائل من لخم . قال ياقوت : والحلال جبل فى طريق مصر من الشام دون العريش الى الشام ؛ وكان من منازل بنى راشدة [٢] . وتوجه عمرو حتى إذا كان بالعريش أدركه «يوم النحر» فيكون وصوله اليها ؛ فى يوم الأحد ١٠ من ذى الحجة سنة ١٨ هجرية (١٢ من ديسمبر سنة ٦٣٩) .

وهذا التاريخ ذكره أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم . قال الدكتور بتلر: "وهو يتفق مع التواريخ الأخرى فيمكن أن نعتبره ثابتا" [٣] .

وكانت مدينة العريش قبل الفتح تسمى رينوقورورا ثم سماها العرب العريش [٤] .

---

(١) فتح العرب لمصر ص ١٧٤ (١)

(٢) معجم البلدان، ج ٣ ص ٣٠٩ : والحلال بالحاء المهملة بلفظ ضد الحرام .

(٣) فتوح مصر (ليدن) ص ٥٨ ، وقد سقطت جملة "أدركه النحر" من خبر الفتح، فى النجوم الزاهرة الجزء الأول ص ٧ ، مع وروده فى فتوح مصر، لابن عبد الحكم، كما بيناه فى المتن، وفى الخطط للقريزى ج ١ ص ٢٨٩ ، وحبذا لو أمكن تدارك ذلك، إذا طبعت النجوم الزاهرة مرة أخرى؛ لأنه من أهم البيانات التاريخية فى خبر فتح مصر؛ فتح العرب لمصر ص ١٧٥

(٤) بتلر، فتح العرب لمصر ص ٦١ ؛ استدراك : (Rhinocorura) ورد فى ترجمة فتح العرب رينوقولورا (Rhinocolura) وليس بخطأ لأنه صورة أخرى من هذا اللفظ .

حال مصر قبيل مسير عمرو اليها :

كانت مصر وقتئذ فى طاعة هرقل بعد جلاء الفرس عنها، وعامة أهلها من القبط اليعاقبة . وكانت الروم أهل الدولة من جند هرقل ، يخالفون القبط فى العقيدة، ومذهبهم الملكية . وكانت لهم السلطة على القبط . وبلغ العداء بين الفريقين الى حد منع الزواج فيما بينهما ، وقتل بعضهم بعضا [(١)] .

وكانت الروم تسىء معاملة القبط حتى اضطرّ بطركهم اليعقوبى ، واسمه بنيامين للفرار ؛ فانتقم الروم منه فى أخيه مينا وأحرق بالنار [(٢)] .

وكان هرقل مارونيا «ملكيا» فلما عاد سلطانه الى مصر، أقام قيرس الملكى بطرك الإسكندرية [(٣)] . قال الدكتور بتلر : قدم قيرس الإسكندرية فى خريف سنة ٦٣١ ؛ وقد ورد فى تاريخ حياة البطاركة ، أنه جعل له ولاية الدين والحكم فى الإسكندرية [(٤)] . أما الروايات العربية فقد نصت على أن هرقل وجه المقوقس أميرا على مصر وجعل اليه حربها وجباية خراجها . وقد سماه الكندى : «المقوقس بن قرقب اليونانى» . وكان يقيم بالإسكندرية . فلما علم بزحف المسلمين انتقل الى مدينة مصر «بابليون» ؛ وكان بها

---

(١) كتاب الخطط للقريزى (بولاق) ج ٢ ص ٤٩٢

(٢) جاء فى كتاب ساويرس وصف تعذيبه ، قال : أوقدت المشاعل ، وسلطت نارها على جسمه ؛ فأخذ يحترق حتى سال دهنه من جانبيه الى الأرض . بتلر، فتح العرب لمصر ص ١٦٣ عن ساويرس من النسخة المخطوطة بالمتحف البريطانى ص ١٠٤ ، الكتاب العاشر . وتتفق نسخة القاهرة معها فى هذا الخبر .

(٣) المقريزى الخطط ج ٢ ص ٤٩١ ، وقد ورد فيه اسم البطرك "فيرش" بالفاء وهو تحريف . وفى المنجد : البطرك والبطاريرك والبطريك ، رئيس رؤساء الأساقفة ، على أقطار معينة ، أو فى طائفة من الطوائف المسيحية . وقد أبقينا الأوّل لأنه هوالوارد فى الروايات الأصلية .

(٤) فتح العرب لمصر ص ٤٥٣

بظاهر الموضع الذى اختطت فيه فيما بعد مدينة الفسطاط ، الحصن الذى يعرف بقصر الشمع ؛ وما زالت آثاره قائمة الى اليوم . وكان عليه رجل من الروم يقال له : الأعيرج ، والياعليه[1] وكان تحت يد المقوقس ؛ فأقام هناك المقوقس[2] ، وصار يجهز الجيوش على عمرو .

وصول عمرو الى الفرما — موقف القبط بها — بنيامين :

وغادر المسلمون العريش مخترقين الصحراء فى طريق القوافل حتى اقتربوا من الفرما . وهى بلدة قديمة بالرمل بالقرب من قَطْيَة والطينة . وذكر ابن حوقل أن بها قبر جالينوس الحكيم . وقال الحسن بن محمد المهلبى : إنها حصن على ضفة البحر . وكانت عامرة الى أن أغار عليها الفرنج فى رجب سنة ٥٤٥ هـ[3] . وقد ورد فى خريطة مصر الأثرية التى وضعها ماسپرو فى سنة ١٨٧٦ ، اسمها اليونانى «پيلوز» (Péluse) .

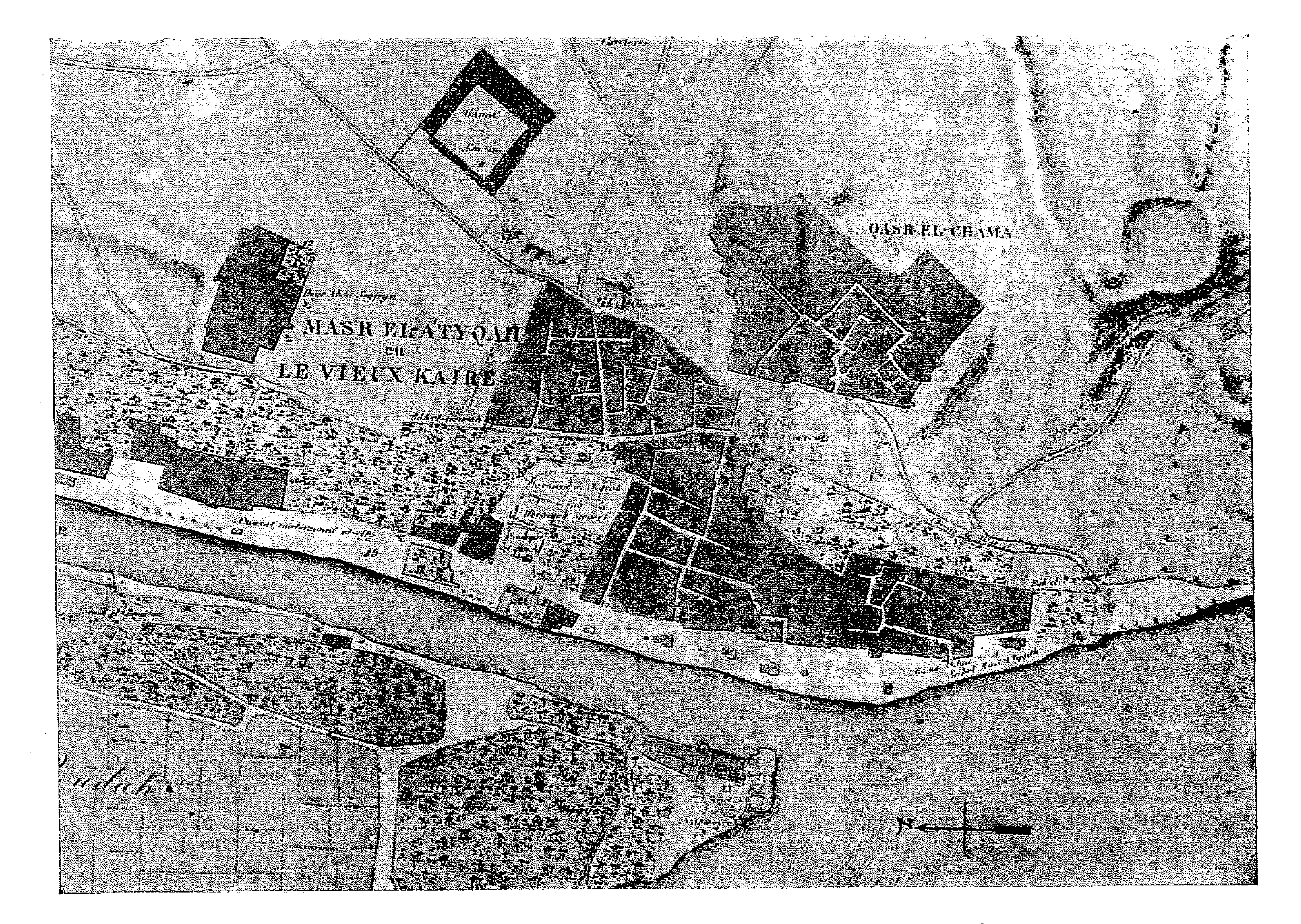
وكانت الفرما أوّل موضع قوتل فيه عمرو ؛ قاتلته الروم قتالا شديدا نحو شهر[4] . ثم اقتحم حصنها وفتح الله على المسلمين حوالى ١٢ من المحرم

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم (ليدن) ص ٣٧ و ٥٨ ؛ الكندى ، كتاب ولاة مصر ص ٨ ؛ المقريزى الخطط ، ج ١ ص ٢٨٦ و ٢٨٩

(٢) فتوح مصر (ليدن) ص ٥٨ و ٦٤ ، وقيل بذيل هذه الصفحة ، انه وارد فى نسخة أخرى «الأعرج» . أما ياقوت والقضاعى والمقريزى فقد ذكروا «الأعيرج» . وكلهم ينقلون عن ابن عبد الحكم . وقال الكندى فى كتاب ولاة مصر ص ٨ : «الأعرج» . وفى ذيل ص ٦٤ تحت رقم ٩ من كتاب ابن عبد الحكم (ليدن) ما نصه : على هامش النسخة الخطية المحفوظة بلندن من هذا الكتاب : يقال ان المقوقس اسمه جريج بن مينا بن قرقت وهو عامل هرقل على مصر وكان مقامه الإسكندرية . والظاهر أنه تعليق للناسخ أو لأحد القراء .

(٣) الانتصار لابن دقاق ج ٥ ص ٥٣

(٤) فى معجم البلدان نحو شهرين .



صورة مستخرجة من خريطة القاهرة التى رسمتها البعثة العلمية الفرنسية الى مصر، سنة ١٧٩٨ تبين موقعى جامع عمرو والحصن الرومانى المعروف بقصر الشمع

سنة تسعة عشر (١٣ يناير سنة ٦٤٠م) . وكان عبد الله بن سعد ، على ميمنة عمرو منذ توجه من قيسارية الى أن فرغ من حربه[١] .

وقد ذكر القضاعى عن الكندى : أن أول من اقتحم باب الحصن بالفرما السميقع بن وعلة السباءى وأتبعه المسلمون وكان الفتح . ولم يرو هذا الخبر فى تاريخ مصر للكندى، ولعل السيوطى نقله عن كتاب آخر له[٢] .

وكان بالإسكندرية أسقف للقبط يقال له «أبو ميامين»[٣] ؛ فلما بلغه قدوم عمرو الى مصر كتب الى القبط يعلمهم : " انه لا تكون للروم دولة وأن ملكهم قد انقطع ويأمرهم بتلقى عمرو ؛ فيقال : ان القبط الذين كانوا بالفرما صاروا يومئذ لعمرو أعوانا[٤]" .

ومعنى ذلك أنهم بادروا بتلقى العرب، وعدم الانحياز الى الروم الذين اغتصبوا بلادهم، وانتهكوا حرمتهم فى الأهل والدين . ولم يكن عملهم عن تواطؤ سابق مع العرب أو تفريط فى حقوق الوطن ، لأن العرب لم يجيئوا مصر إلا للغرض الذى دعاهم الى الخروج الى غيرها من البلاد، وهو نشر الدعوة الى الإسلام علانية، والجهاد بعد الإنذار .

ومن قول بنيامين : " إن ملك الروم قد انقطع" يفهم أنه كان على علم بسقوط دولة الروم بالشام وفلسطين، وتوقعه خذلانهم بمصر وقرب مغادرتهم لها وخلاص القبط من بغيهم وشرهم .

---

(١) فتوح مصر (ليدن) ص ٥٨ (٢) السيوطى، حسن المحاضرة (مطبعة الموسوعات) ج ١ ص ٧٠ (٣) هكذا فى الخطط للمقريزى ، وفى النسخ الخطية لابن عبد الحكم ؛ وفى طبعة ليدن ص٥٨ ، «أبو بنيامين» . (٤) فتوح مصر (ليدن) ص ٥٨ و ٥٩ ؛ الخطط، ج ١ ص ٢٨٩

وإنى لا أشك فى أن أبو ميامين هو بنيامين بطرك اليعاقبة الذى فـر؛ وإنمـا وقع تحريف فى اسمـه لأننا إذا حذفنـا من « أبو ميامين » الألف كما فى بوسرجة وأبدلنا الميم نونا قرأنا بونيامين أو بنيامين .

ولم يكن بين الأقبـاط من هو أحب اليهـم من بنيامين ، حتى يعملوا بأمره . وهو ما اعترف به بتلر فى قوله : " وقد وافق اختيار بنيامين لولاية الدين هوى فى قلوب الناس ، فإننا إن شككنا فى حكمته وحسن رأيه فى آخر أمره ، لا يمكن أن ننكر أنه كان حبيبا الى الناس عزيزا عليهم . وأنه قد بقى على محبة الناس له وإجلالهم إياه لم ينقص من ذلك شىء على تغير الأحوال وتقلب الصروف " . « وفى قوله : وكان الناس يتلقونه أفواجا أينما سار لينالوا من بركته » [1] .

ولا يخفى ما يرمى اليه بتـلر من ذكر الشك فى حكمـة بنيامين ، وما هو إلا نصحه لقومه بتلقى عمرو .

ولا عبرة بوصف بنيامين بأنه أسقف للقبط ، لأنه قـد يكون اتخذ هذا اللقب وهو مختف من الظلم والاضطهاد .

وقـد ورد فى أخبار الفتـح أن عمرو بن العـاص أعاده الى كرسى بطركيته وكتب له أمانا فى سـنة ٢٠ هجرية فسره ذلك . وذكر المقريزى أنه غاب عن كرسى بطركيته ١٣ سنة . وقد مات فى الإسكندرية فى سنة ٣٩ هجرية (٦٥٩ — ٦٠ م) ، فى رواية المقـريزى [2] . وفى ٣ من شهر يـناير سنة ٦٦٢ م فى قول بتلر [3] .

(١) فتح العرب لمصر ص ١٥٣ و ١٥٤ . (٢) الخطط ج ٢ ص ٤٩٢ .
(٣) فتح العرب لمصر ص ٤٩٥ .

وقد أنكر هذا الأخير ترحيب القبط بالمسلمين ومساعدتهم ، ونفى الخبر وقال : انه اتهام من مفتريات التاريخ ظلم به القبط ظلما فاحشا ، ونسب اليهم أنهم كانوا دائما يرحبون بالغزاة الأجانب ، فرحبوا أولا بالفرس ورحبوا ثانيا بالعرب ، يريدون بذلك أن يتخلصوا من نير ليضعوا نيرا آخر على رقابهم (١) .

وهو قول غريب عن اتهام لم يخطر لأحد . ولا يفهم كيف يكون فى موقف القبط مذلة وخيانة للشرف والعزة القومية ، وقد عسف بهم حكم الروم وظلمهم عشر سنين ، حتى أن بطركهم ، باقرار بتلر نفسه — غادر مركزه ، بعد أن جمع القسوس والرعية — وألقى فيهم خطابا "يحضهم فيه على أن يثبتوا على عقيدتهم حتى يوافيهم الموت . وكتب الى أساقفته جميعا يأمرهم بالهجرة الى الجبال والصحارى ليتواروا فيها حتى يرفع الله عنهم غضبه (٢) .

ولا يمكن تعليل ذلك إلا بأن بتلر كان مضطرا لأن يقوله لنفى حسن ظن القبط بالعرب وتفضيل جوارهم على جوار الروم وهو عكس ما وقع .

ومن رأيه أن القبط رغم ما كانوا يعانون من الروم ، قد ارتكبوا خطأ كبيرا برفضهم ما عرض عليهم من أمر توحيد المذاهب وأن خطأهم هذا كان سببا فى مصائب عظيمة تحل بهم (٣) .

وتظهر فكرته واضحة فى قوله : " ان مدّة غياب بنيامين كانت ثلاثة عشر عاما ، منها ثلاث فى مدة حكم المسلمين ؛ وانه لمن الجدير بالالتفات أن هذا البطريق الطريد لم يحمله على الخروج من اختفائه فتح المسلمين لمصر واستقرار أمرهم فى البلاد ولا خروج جيوش الروم

(١) فتح العرب لمصر ، مقدمة المؤلف ، ص ٢٠ ومقدمة المعرب ، ص ١٤ .
(٢) فتح العرب لمصر ص ١٥٦ (٣) فتح العرب لمصر ص ١٦٠

عنها، وليس أدل من هـذا على افتراء التاريخ على القبط واتهامهم كذبا بأنهم ساعدوا العرب ورأوا فيهم الخلاص مع أنهم أعداء بلادهم ...[١]" .

ومن يتأمل قليـلا يتبين له انه هو الذى بهـذا القول ظـلم التاريخ ، لأن مدة اختفاء البطرك بنيامين ثلاث عشرة سنة انتهت فى سنة ٢٠ هجرية ، وهى سـنة الفتح كما تقدم .

ويلاحظ أنه وقع خطأ فى عبارة المقريزى ، ولا أشك فى أنه زلة قلم ، قلب المعنى الذى يقصده فجاءت هكذا : "وقدم على عمرو (يعنى بنيامين) ، وجلس على كرسى بطركيته بعد ما غاب عنه ثلاث عشرة سنة ، منها فى ملك فارس لمصر عشر سنين ، وباقيها بعـد قدوم هرقل الى مصر[٢]" . وصواب هذه العبارة أن تكون بالنص الآتى : "بعد ما غاب عنه ثلاث عشرة سنة ، منهـا فى ملك فارس لمصر ثلاث سنين وباقيهـا بعد قـدوم جنـود هرقل الى مصر" .

وفى التاريخ : إن حـكم الروم عاد الى مصر فى الفـترة التى بين خروج الجيش الفارسى الأكبر من مصر فى أول سـنة ٦٢٧ و بين الوقت الذى ولى فيه قيرس ، وان قسما من الجيش بقى فى مسالح متفرقة الى ما بعد سنة ٦٢٨ ؛ ثم أرسل هرقل جيشا ليحتل مصر ويعيد أمر الدولة الرومانية من فلسطين الى بلاد بنطابوليس « برقة » ، وقد سافر فى البحر فى شتاء (سنة ٦٢٨ — ٢٩ م)[٣] .

ولا شك فى أن هـذا هو السبب الذى جعل المقريزى يعتبر السنوات الثلاث السابقة لمجىء قيرس داخلة فى احتلال فارس لمصر .

---

(١) فتح العرب لمصر ص ٣٨٣ و ٣٨٤   (٢) الخطط ج ٢ ص ٤٩٢

(٣) فتح العرب لمصر ص ١٥٢ — ١٥٤

ويبعد جدا أن يكون بنيامين بقي مختفيا مدة ثلاث سنوات بعد الفتح الإسلامى بدليل النص على "أن قيرس لما استعمله هرقل اضطهد القبط مدة عشر سنوات[1]" .

وقد عرفنا أن هذه المدة تنتهى فى سنة الفتح . ويتفق ذلك مع قول حنا النقيوسى إنه عاد بعد "ثلاثة عشر عاما من هروبه تخلصا من الروم[2]". وكذلك يتفق مع قول المكين : إن عودة بنيامين "كانت فى سنة ٢٠ للهجرة" ومع قول ساويرس : إنه رجع قبل فتح العرب للإسكندرية[3] .

وهى كلها أقوال تؤيد عودة بنيامين فى سنة ٢٠ كما ذكره المقريزى ؛ وتنافى بعض خواطر ضعيفة يستند اليها بتلر . وقد تجنب أن يبين أيها الأرجح ، بحجة أن هناك فروقا وخلافات بين المؤرخين فى المدة التى قضاها بنيامين بعيدا عن بطركيته ، ولا جدوى من محاولة التوفيق بينها[4] .

وزعم بتلر أن مما يدل على أن الخبر المروى عن المساعدة غير صحيح ، عدم وروده فيما كتب قبل القرن الرابع عشر . وأنه قد يكون تكرار القصة القديمة التى تعزو الى القبط مساعدتهم للفرس ؛ مع أن الخبر رواه ابن عبد الحكم ، وقد أسنده اليه المقريزى ، والسيوطى ، وأبو المحاسن ، وترجع روايته الى القرن التاسع الميلادى .

ومن أدلة النفى عنده قوله : "لو ساعد القبط العرب ، لما أحرق هؤلاء السفن وهدموا الحصن[5]" . وهو استدلال ضعيف ، لأن هدم

---

(١) فتح العرب لمصر ص ١٥٥ (٢) كتاب حنا الفصل CXXI صفحة ٥٨٤
(٣) فتح العرب لمصر ص ٣٨٣ (٤) فتح العرب لمصر ص ٣٨٣ (١) بذيل الصفحة .
(٥) فتح العرب لمصر ص ١٨٧

الحصن وحرق السفن لو صح، والذى ذكره ساويرس الأشمونينى (أوائل القرن العاشر)[1] لم يكن فى قتال مع القبط وانما كان فى قتال مع الروم .

واعتمد على قول ليوحنا النقيوسى جاء فيه : أن القبط لم يساعدوا المسلمين إلا بعد أن استولوا على الفيوم وإقليمها[2] ؛ ولكن هذا القول لا يدل على شيء . نعم ان مساعدة القبط للعرب عمليا من إصلاح الطرق وإقامة الجسور والأسواق ومعاونتهم على قتال الروم، كانت بعد فتح مصر وقبيل زحف عمرو الى الإسكندرية فى الروايات العربية[3] . ولكن هذا لا يمنع أن القبط كانوا بالفرما فى جانب المسلمين، لأن « أبا ميامين » يعنى بنيامين البطرك لم يطلب منهم إلا تلقى عمرو ؛ أى أن يحسنوا استقباله ويرحبوا به ؛ فلا يكونوا مع عدوه وعدوهم . ولم يرو فى خبر الفرما أن عمرا حارب القبط، أو أن الحصن والسفن كانت لهم وانما كانت للروم .

ومما ذكره بتلر عن وقعة الفرما : ان العرب لما ملكوها صارت فى أيديهم معقلا يؤمن لهم الطرق المؤدية الى بلادهم، وأن عمرا فطن الى أن الأمداد لن تستطيع أن تخلص اليه إلا عن طريق هذه المدينة، ولما لم يكن له من الجند من يتركه لحراستها، فقد اضطر لأن يهدم أسوارها وحصونها حتى لا ينتفع بها العدو اذا عاد اليها[4] .

(١) النسخة المخطوطة بالمتحف البريطانى من كتاب ساويرس صفحة ١٠٥ ، كما ذكره بتلر فى ذيل الصفحة ١٨٧ تحت رقم (١) من فتح العرب لمصر .

(٢) فتح العرب لمصر ص ١٨٧

(٣) فتوح مصر لابن عبد الحكم (ليدن) ص ٧٢ و ٧٣

(٤) فتح العرب لمصر ص ١٨٧ و ١٨٨ باختصار .

وقال أيضا : وكانت الفرما قوية الحصون ، وبها كثير من آثار المصريين القدماء كما كان بها كنائس وأديرة .

وفى كتاب الانتصار : "كان بها أبواب كثيرة من حجارة شرقى حصنها"[١] .

السير الى بلبيس :

وقال الدكتور بتلر : " وسار عمرو من الفرما حتى بلغ مدينة مجدول القديمة فى الجنوب الغربى منها ، ثم سار الى موضع على قناة السويس مكانه الآن القنطرة . ولعله قصد الى المكان الذى به مدينة الصالحية ومنها اجتاز تلال وادى الطميلات (وادى السدير سابقا) على مقربة من التل الكبير ، وهو لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى بلبيس"[٢] .

ولم يرد هذا التفصيل فى أحاديث الفتح العربية . وإنما ذكر فيها مجملا : أن عمرا بعد أن انتهى من الفرما توجه لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى نزل القواصر[٣] ثم بلبيس ، فقاتلوه بها نحوا من الشهر حتى فتح الله عليه[٤] .

قصة أرمانوسة :

ولما ذكر الواقدى وقعة بلبيس فى كتابه « فتوح مصر » وصل الحديث عنها بقصة طريفة عن أرمانوسة ابنة المقوقس . وقد لخص هذه القصة المقريزى فى خططه ، فقال : " إن المقوقس زوج ابنته أرمانوسة

---

(١) فتح العرب لمصر ص ١٨٦ ؛ ابن دقماق ، خامس ، ص ٥٣

(٢) فتح العرب لمصر ص ١٨٩ و ١٩٠ باختصار .

(٣) هذه القرية تعرف اليوم باسم الجعافرة بمركز فاقوس بمديرية الشرقية . وقال ياقوت عن « القواصر » : كأنه جمع قوصرة التمر موضع بين الفرما والفسطاط ؛ معجم البلدان ج ٧ ص ١٧٩

(٤) فتوح مصر لابن عبد الحكم (ليدن) ص ٧٩

من قسطنطين بن هرقل، وجهزها بأموالها وجواريها وغلمانها وحشمها لتسير اليه، حتى يبنى عليها فى مدينة قيسارية، وهم محاصرون لها، فخرجت الى بلبيس وأقامت بها؛ وبعثت بحاجبها الكبير فى ألفى فارس الى الفرما ليحفظ الطريق ولا يدع أحدا من الروم ولا غيرهم يسير الى مصر. وبعث المقوقس رسله الى أطراف بلاده مما يلى الشام ألا يتركوا أحدا يدخل أرض مصر، مخافة أن يتحدثوا بغلبة المسلمين على الشام فيدخل الرعب فى قلوب عساكره. فلما قدم عمر بن الخطاب الجابية وسار عمرو بن العاص الى مصر، نزل على بلبيس وبها أرمانوسة ابنة المقوقس فقاتل من بها، وقتل منهم زهاء ألف فارس وأسر ثلاثة آلاف وانهزم من بقى الى المقوقس. وأخذت أرمانوسة وجميع مالها وسائر ما كان للقبط فى بلبيس؛ فأحب عمرو ملاطفة المقوقس فسير اليه ابنته أرمانوسة مكرمة فى جميع مالها، مع قيس بن أبى العاص السهمى، فسر بقدومها؛ ثم سار عمرو الى القصر[1]".

وقد ذكر الدكتور بتلر خلاصة هذه القصة وألحقها بقوله[2]: "ولا حاجة الى إضاعة الوقت فى تفنيد هذه القصة فإن مجرد العلم بأن المقوقس كان بطريق الإسكندرية كاف لدحضها". وقال: "وقد بنى عليها القس المحترم (ش. ه. بوتشر) روايته التاريخية «أرمانوسة المصرية». وإنه لمما يؤسف له أن هذه القصة التى يمليها خيال ألف ليلة وليلة مما يجب علينا إبعاده عن التاريخ".

ولما اطلعت على الرواية وجدتها مصدّرة بكلمة افتتاحية من المؤلف يعرب فيها أنه مدين للدكتور بتلر بالمساعدة التى استمدها من كتابه النفيس عن الكنائس القبطية بمصر؛ وبالخواطر البديعة التى تلقاها منه وهو يكتب

(١) ج ١ ص ١٨٣ و ١٨٤ (٢) فتح العرب لمصر ص ١٩١ (٣) بذيل الصفحة.

هـذه الرواية" . وفى الواقع كنت أشعر أثناء قراءتى لهـا بأن نفحات من تلك الفكرة الثائرة فى كتاب فتح العرب تتخلل بين سطورها . وقـد قوبلت تلك المجاملة بمثلها ، فكتب الدكتور بتلر فى مقدمته ، بعد الشكر الذى وجهه الى من ساعدوه ، ما يأتى : " وفوق كل ذلك أبادر بأحر الاعتراف بفضل صديق المبجل المفضل ، العميد بوتشر بالقاهرة ، إذ أتاح لى فرصة زيارة القاهرة مرة ثانية من أجل هذا الكتاب . وقد كان لا يفتر عن أن يغمرنى بعطفه وتشجيعه وهو يتابع خطواتى فى هذا العمل ، و يضىء لى السبيل فيه" . واذا أراد القـارئ أن يحظى بنموذج من تلك النفحات ، فمـا عليـه إلا أن يراجع مثـلا الصحف رقم X و ١٠٠ و١٤٣ من رواية أرمانوسـة ، طبـع وليم بلاك وود وأولاده بإدنبره ولندن (١) . ولا محـل هنا لنقل شىء منهـا ، لأنه مما لا يصح نقله .

أم دنين :

ومضى عمرو فى طريقه بمدينة عين شمس «هليو بوليس» سائرا على جانب الصحراء ، لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى أم دنين (Tendunyas) ، الى الشمال من حصن بابليون وهى قرية وقيـل مدينة ذكرت فى أخبـار الفتوح ، وكانت قديما بين القاهرة والنيل وقد عرفت باسم المقس (٢) .

(١) C. H. Butcher, Armenosa of Egypt, W. Blackwood Edinburgh and London.

(٢) الخطط للقريزى ، ج ١ ص ٢٨٩ وأم دنين مكانها اليـوم المنطقة الموجود بها جامع المقس ، وهو المعروف بمسجد أولاد عنان وما يجاوره الى قنطرة الدكة والدرب الإبراهيمى . وكانت فى ذلك الوقت على النيل .

قيل : وكان الروم تنبهوا الى خطر العرب عليهم وتبينوا الفرق بينهم وبين البدو فى غاراتهم فأخذوا فى التعبئة . وكانت فى أم دنين[١] مسلحة قوية . وقوتل عمرو قتالا شديدا[٢] وأبطأ عليه الفتح ؛ فكتب الى أمير المؤمنين عمر يستمده ؛ ثم ضاعف هجومه على أم دنين حتى فتح الله عليه .

وصول عمرو الى بابليون :

قال البلاذرى : ومضى عمرو قُدُمًا (أى لم يعرج ولم ينثن) الى الفسطاط (يريد بابليون) فنزل جنان الريحان ، وقد خندق أهل الفسطاط[٣] . (فى رواية نزل عمرو على الحصن وقاتلهم قتالا شديدا يصبحهم ويمسيهم). وقيل أيضا : ان عمرا لما قدم من الشام كان فى عدّة قليلة ، فكان يفرّق أصحابه ليرى العدوّ أنهم أكثر مما هم ، فلما انتهى الى الخندق نادوه أن قد رأينا ما صنعت ، وانما معك من أصحابك كذا وكذا ؛ فلم يخطئوا برجل واحد . فأقام عمرو على ذلك أياما يغدو فى السحر فيصف أصحابه على أفواه الخندق عليهم السلاح[٤] . واذن يكون وصول عمرو الى الحصن سابقا على مجىء المدد . ويوافق ذلك حوالى منتصف شهر جمادى الأولى سنة ١٩ هجرية اذا راعينا عدّة الشهور التى قضاها عمرو فى مسيره من العريش الى الفرما فبلبيس فأم دنين ، وقتاله فى هذه المدن ، الى أن نزل بجنان الريحان .

---

(١) فتح العرب لمصر ص ١٩٢ ؛ فتوح مصر لابن عبد الحكم (ليدن) ص ٥٩.

(٢) نحو شهرين ، فى قول ياقوت : معجم البلدان ج ٦ ص ٣٧٨

(٣) فتوح البلدان ص ٢١٤ ؛ ويغلب على الظن أن جنان الريحان كانت مكان المسجد الجامع وقد كان جنانا ؛ وما زال للآن فى الطرف الشمالى الشرقى من الحصن كنيسة تعرف بقصرية الريحان مشرفة على الفضاء المقام عليه المسجد . قال البلاذرى : "وكان اسم المدينة (يعنى بابليون) اليونة" . وهو تحريف ظاهر .

(٤) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٢٨٩.

وقد جعلنا الأساس فى عدد الشهور قول ياقوت، ولا يمكننا ترجيحه، لأن خبر الفتح فى كتاب ياقوت وغيره يرجع الى مصدر واحد . ولا نشك فى أن الاختلاف واقع من الناسخ .

ولكن الدكتور بتلر زعم أن عمرًا ، وقد ملك بالاستيلاء على أم دنين منزلا على النيل، استطاع أن يجتاز النهر بالسفن، وأن يترك بأم دنين مسلحة من الجند ؛ ثم سار بمن معه الى الجنوب بجوار المزارع حتى بلغوا منفيس . وكان ذلك فى أول شهر مايو سنة ٦٤٠ (٣ من جمادى الأولى سنة ١٩ هجرية)[١] وغرضه غزو الفيوم؛ وقد قضى فى سبيل ذلك بضعة أسابيع . وكان يريد بهذه الغزوة أن يتجنب خطرا يشعر به ؛ لأنه ما كان يستطيع فتح بابليون بمن معه ؛ فرأى أن يسير الى وجه آخر وهو غزو إقليم الفيوم . وقد نالته بأم دنين هو ومن معه مشقة كبرى[٢] .

ولكى يبرهن على أن عمرا كان بأم دنين فى مركز حرج ، استغل حكاية ذكرها الطبرى مسندة الى عمرو بن شعيب؛ قيل فيها : انه لما التقى عمرو والمقوقس بعين شمس واقتتلت خيلاهما ، جعل المسلمون يجولون بعد البعد فذمرهم عمرو[٣]؛ فقال رجل من أهل اليمن : "انا لم نخلق من حجارة ولا حديد"؛ فقال : اسكت، فانما أنت كلب، قال : فأنت أمير الكلاب . قال : فلما جعل ذلك يتواصل نادى عمرو : أين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فحضر من شهدها من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : تقدموا فبكم ينصر الله المسلمين ؛ فتقدموا وفيهم يومئذ أبو بردة

(١) فتح العرب لمصر ص ١٩٩ (٢) فتح العرب لمصر ص ١٩٣

(٣) ذمرهم أى حضهم على القتال ولامهم ليجدوا فيه .

وأبو برزة . وناهدهم الناس يتبعون الصحابة ، ففتح الله على المسلمين وظفروا أحسن الظفر وافتتحت مصر[1] .

وقد أخل هنا بالنقل الصحيح لأنه حوّر الخبر تحويرا مسيخا وجعله أضحوكة لإخفاء الحقيقة بالتمويه، فبتر ما يزيد عن نصف الخبر ، واقتصر على قول : ان عمرا رأى جماعة يخيمون فى القتال فجعل يذمرهم ويحثهم ؛ فقال له رجل منهم : "انا لم نخلق من حجارة ولا حديد"، فقال : اسكت، فانما أنت كلب . قال : فأنت أمير الكلاب . وأضاف اليه عبارة لم ترد فى الأصل وهى : فكان جوابه هذا باعثا على ضحك من حوله . وأعرض عنه عمرو فلم يجازه على ذلك[2] .

ومن مقابلة النص الأصلى بهذه الصيغة الجديدة يتبين أن المصدر المنقول عنه الخبر لم يذكر ليبقى تحويره بعيدا عن النقد . فأسقط جوهره وهو : ان الظفر كان للمسلمين وافتتحت مصر، "وقام فيها ملك الإسلام على رجل، وجعل يفيض على الأمم والملوك ؛ فكان أهل مصر يتدفقون على الأجل، وأهل مكران على راسل وداهر، وأهل سجستان على الشاه وذويه ، وأهل خراسان والباب على خاقان ومن دونهما من الأمم، فكفكفهم عمرو ابقاءً على أهل الاسلام ، ولو خلى سربهم لبلغوا كل منهل" .

ولقد كان بتلر حريصا فى ترك قول صاحب الحديث : "لما التقى عمرو والمقوقس بعين شمس واقتتلت خيلاهما" ، لأن مكان الواقعة تعين فيه وإثباته يبعد عن روع القارئ أن هذا الحديث له علاقة بفتح أم دنين وسير عمرو الى الفيوم؛ وهو الأمر الذى كان يحاول إثباته .

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٢٣٠ (٢) فتح العرب لمصر ص ١٩٣

وقال : ان غزوة الفيوم حدثت فى ذلك الوقت على الصورة التى شرحها فى كتابه[١]، وهى لا توجد فى أى كتاب عربى . وهذا يخالف قول البلاذرى : ان عمرا مضى قُدُماً الى الفسطاط على ما تقدّم ذكره .

ويخالف أيضا رواية سعيد بن عفير التى أوردها ابن عبد الحكم تحت عنوان : « ذكر فتح الفيوم[٢] » .

وقال بتلر أيضا : " يقول السيوطى نقلا عن ابن عبد الحكم على ما يظهر : ان عمرا بعد فتح مصر أرسل جرائد الخيل الى القرى التى حولها؛ وبقيت الفيوم سنة لا يعلم المسلمون شيئا عنها " ثم قال : " وهذا ينقض ما جاء فى كتاب حنا النقيوسى الذى كتب فى القرن السابع الميلادى ، وانه لا يتردد أن يأخذ عن الكاتب المصرى "؛ يريد به حنا[٣] .

لهذا السبب وحده صار كتاب حنا النقيوسى مفضلا عنده على روايات العرب المسندة الى فريق ممن حضر الفتح من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجند المسلمين وغيرهم؛ المنقولة بالتواتر عن بعض الأئمة المجتهدين وكبار المحدثين والمؤرّخين . ولم يراع قوله هو نفسه بعد الكلام على ما فى كتاب حنا من نقص فى بعض فصوله : " وهذا مثل من مائة مثل مما يدل على نقص الكتاب وتغيير مواضعه " ، وقوله بمناسبة واقعة الفيوم بالذات : " وقد وقع نقل وتشويه فى عبارة الفصل الثانى والستين من كتاب حنا يجعله غير ممكن الفهم (صفحة ٥٥٦) ، وقوله : وقد جاءت فيه عبارة تشير الى السير لفتح الفيوم وهى : فتركوا المدن الحصينة واتجهوا الى موضع

---

(١) فتح العرب لمصر ص ١٩٢ — ١٩٩ (٢) فتوح مصر (ليدن) ص ٢٦٩

(٣) فتح العرب لمصر ص ١٩٤

اسمه «تنونديس» ، وساروا فى النهر ؛ و بعدها عبارة تشير الى فتح مصر ، ثم عبارة أخرى تشير الى الرجوع من الفيوم ، وقال : "وانا فى أشدّ الحاجة الى ترتيب جمل النص على يد ناقد بصير"[1] .

وهى أقوال تشهد رغم تجريحه لها بصحة الروايات . ويكفينا لكى نرد الحقيقة الى أصلها أن نستبعد الآن خبر هذا الزحف فى تلك الآونة التى كانت فيها جموع الروم ، أو على تعبيره : "الجيش الرومى الأكبر" ، قد اتخذت حصن بابليون مجمعا لها ، تقيم فيه آمنة وراء أسواره العظيمة وتهدد اتصال عمرو بالمدد الذى كان ينتظر وصوله .

لا يعقل أن عمرا يخلف وراءه بأم دنين مسلحة تكون معرضة للخطر أمام قوة الروم المجتمعة بالحصن ؛ وأن يعمد إلى تجزئة قوته وتعريض جيشه لقطع الطريق عليه .

ويدهشنى أن يلبث أهل الحصن وراء أسواره منتظرين عودة عمرو من هذه النزهة ثم مجيء المدد أسابيع ولا يفكرون على الأقل فى مهاجمة المسلحة الصغيرة التى خلفها عمرو بأم دنين أو فى اتخاذ احتياط أو عمل ما يتلافون به ما قد يأتى به المستقبل . وفى هذا دليل على عجز الروم عن الدفاع عن مصر . ومن طبعنا ألا نكتفى بتغليب الظن على المدوّنات الثابتة .

وصول المدد :

قيل لما أبطأ الفتح على عمرو ، كتب الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يستمدّه و يعلمه بذلك ، فأمدّه عمر بأربعة آلاف رجل[2] . وقيل : بل أمدّه باثنى عشر ألفا . وكان عمرو قدم الى مصر ومعه ثلاثة آلاف وخمسمائة .

---

(١) فتح العرب لمصر ص ٢٠٠ (٢) فتوح مصر لابن عبد الحكم (ليدن) ص ٦١

ووصل المدد على وجه التقريب بين منتصف جمادى الأولى سنة ١٩ هـ (منتصف شهر مايو سنة ٦٤٠) ، وهو نهاية المدّة التى استغرقها مسير عمرو من العريش الى جنان الريحان ، ويكاد يكون متفقا مع التاريخ الذى قيل فى خبر الزحف المزعوم أن عمرا بلغ فيه منفيس فى سيره الى الفيوم أى أوّل مايو، وبين حوالى الثلث الأخير من شهر جمادى الآخرة من السنة المذكورة (حوالى الثلث الأخير من شهر يونية سنة ٦٤٠ م). وعلى وجه التعيين يوم ٦ يونيــة (٩ من جمادى الآخرة) اذا اعتمدنا يوم ١٢ بؤونة . وسنرى أن ساويرس يقول فى كتابه : انه اليوم الذى هبط فيه جيش المسلمين الى مصر فى قوّة عظيمة .

وكان على المدد أربعة : الزبير بن العوّام، والمقداد بن عمرو «الأسود» ، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد — فى قول — وقيل خارجة بن حذافة العدوى الرابع، لا يعدون مسلمة[1] .

قال البــلاذرى : وكان الزبير قد هم بالغزو وأراد إتيان أنطاكية فقال له عمر : يا أبا عبد الله، هل لك فى ولاية مصر؟ فقال : لا حاجة لى فيها . ولكنى أخرج مجاهدا وللمسلمين معاونا ، فان وجدت عمرا قد فتحها لم أعرض لعمله ، وقصــدت الى بعض السواحل فرابطت به ؛ وان وجدته فى جهاد كنت معه ، فسار على ذلك . وقيل له : ان بمصر الطعن والطاعون . فقال : إنمـا جئنا للطعن والطاعون . وقال البلاذرى أيضا : ولم يلبث عمرو أن ورد عليه الزبير بن العوّام[2] .

(١) فتوح مصر (ليدن) ص ٦١ ؛ الخطط للمقريزى ج ١ ، ص ٢٨٩

(٢) فتوح البلدان ص ٢١٤ و ٢١٥

اجتماع عمرو والزبير ببابليون — المكالمة مع أبي مريم وأبي مريام — مفاجأة المسلمين بالبيات.

وقد ذكر الطبرى اجتماع عمرو والزبير قال : "ولما وصل عمرو الى باب اليون (يريد لما صار على باب مصر كما جاء فى قول ابن كثير)، واتبعه الزبير فاجتمعا فلقيهم هنالك أبو مريم جاثليق مصر، ومعه الأسقف «أبو مريام» فى أهل البيعات[1]، بعثه المقوقس لمنع بلادهم ؛ فلما نزل بهم عمرو قاتلوه فأرسل اليهم : لا تعجلونا لنعذر اليكم وترون رأيكم بعد؛ فكفوا أصحابهم . وأرسل اليهم عمرو : انى بارز فليبرز الىّ أبو مريم وأبو مريام . فأجابوه الى ذلك وأمن بعضهم بعضا؛ فقال لهم عمرو : أنتما راهبا هذه البلدة فاسمعا : ان الله عز وجل بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق وأمره به، وأمرنا به محمد صلى الله عليه وسلم، وأدّى الينا كل الذى أمر به ، ثم مضى صلوات الله عليه ورحمته وقد قضى الذى عليه ، وتركنا على الواضحة . وكان مما أمرنا به الإعذار الى الناس ، فنحن ندعوكم الى الإسلام ، فمن أجابنا اليه فمثلنا، ومن لم يجبنا عرضنا عليه الجزية وبذلنا له المنعة ؛ وقد أعلمنا أنا مفتتحوكم وأوصانا بكم حفظا لرحمنا فيكم، وان لكم ان أجبتمونا بذلك ذمة الى ذمة، ومما عهد الينا أميرنا، أن استوصوا بالقبطيين خيرا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصانا بالقبطيين خيرا، لأن لهم رحما وذمة . فقالوا قرابة بعيدة، لا يصل مثلها إلا الأنبياء، معروفة شريفة، كانت ابنة ملكنا ... مرحبا به وأهلا، آمنا حتى نرجع اليك ... فرجعا الى المقوقس".

(١) فى الأصل النيات وهو خطأ تواتر فى الطبرى وغيره فكتب مرة النيات ومرة البنيات (راجع تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٢٢٨ ؛ النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٣) . و يلاحظ أن هناك اختلافا فى النص الوارد بهذا الكتاب عن النص الأصلى الوارد فى الطبرى الذى نقلنا عنه . و يرجع ذلك الى ما أدخل عليه من التنقيح دون تغيير فى المعنى .

وقد أمهلهما عمرو خمسة أيام . قال الطبرى : فهم (أى عزم المقوقس على الصلح) . فأبى أرطبون[1] (وعند بتلر أريطيون[2]) أن يجيبهما وأمر بمناهدتهم فقالا (الراهبان) لأهل مصر : أما نحن فسنجتهد أن ندفع عنكم ولا نرجع اليهم ، وقد بقيت أربعة أيام فلا تصابون فيها بشىء إلا رجونا أن يكون له أمان[3] . فلم يفجأ عمراً والزبير إلا البيات من مَرْقَب (لا فرقب الوارد فى الأصل[4]) ،

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٢٢٨ ؛ وفى رواية أخرى للطبرى ج ٤ ص ١٦١ أن أرطبون بقى بعد ذلك ، فكان يتولى صوائف الروم ثم قتله صاحب صائفة المسلمين ، واسمه جريس القيسى . وقد سقط اسم أرطبون فى رواية الطبرى ولكن ذكره ابن الأثير فى الكامل وقال إن أرطبون قتل وكثير ممن معه (ج ٢ ص ٢٧٨ «المطبعة الأزهرية») .

(٢) فتح العرب لمصر ، ص ١٩١ . وفى ذيل الصفحة تحت رقم (١) قال الدكتور بتلر أن أبا المحاسن ذكر الاسم الصحيح لأرطبون ؛ وبمراجعة ذلك تبين أنه كغيره من المؤرخين سماه «أرطبون» .

(٣) ومعنى ذلك : أنهما سيتخلفان عن الخروج مع أرطبون بأمل أن يحصلا على الأمان من عمرو لأهل مصر ، اذا أصابهم ضرر من عمل أرطبون .

(٤) قال ياقوت : "المرقب الذى يرقب فيه" ؛ وفى المنجد : "الموضع المرتفع يعلوه الرقيب" . وقد سميت به بعض القلاع الحصينة . ومن ذلك حصن عمره المسلمون بساحل جبلة كما ذكره ياقوت أيضا ، وقال : "وكان بمصر فى قُرْنَة المقطم موضع يسمى "المرقب" . وقد بنى ابن طولون عنده مسجدا كان يعرف به ؛ وقد ذكره المقريزى باسم مسجد التنور ، وقال انه بأعلى جبل المقطم من وراء قلعة الجبل فى شرقها . (معجم البلدان ، ج ٨ ، ص ٢٧ و ١٨٢ ؛ الخطط ج ٢ ، ص ٤٥٥ ؛ المنجد ص ٢٧٦ .

ومن ثم يتبين بالقياس ، أن الطبرى قال : " من مرقب " لا من فرقب ، وكان يريد بعض الحصون أو الأبراج أو المواقع المرتفعة التى كان يرقب منها الروم ، جيش المسلمين ولم يقصد شخصا معينا أسمه فرقب وأن هذا اللفظ ورد فيه محرفا .

ومن اللطائف أن يعمد الدكتور بتلر ، فى بحثه عن شخصية المقوقس واسم أبيه ، لمناقشة كاراباتشك Karabacek ، عن فرقب وابن فرقب ويقول : ان لفظ " قرقب " لم يذكر فى الكتب العربية إلا فى عصر متأخر جدا ، فأحر به أن يكون أكثر من تحريف أو سلسلة من التحريف عند النسخ ؛ ثم يستدرك عليه حضرة الأستاذ معرب كتابه مؤكدا ورود اسم "فرقب" فى الطبرى (فتح العرب ص ٤٦٠) .

=

وعمرو على عدّة فلقوه ، فقتل (أرطبون) ومن معــه ثم ركبوا أكساءهم[1] — أى سقطوا على قفاهم كما فى « القاموس المحيط » .

واعتبر بتلر ما ذكره الطبرى ، أنه لم يكن بســوى قصة أملاها الوهم[2] .

وزعم أن جاثليق لا معنى له إلا البطرك الذى هو رئيس الأساقفة ، وأنه لم يكن بين الأساقفة من يسمى أبو مريم ولا أبو مريام ، قال : وقد يكون بنيامين ، لسهولة تحريف اسم « أبو بنيامين » الى « أبو ميامين » . ثم الى « أبومريم » . وأسهب فى ذلك ثم قال : ومن المحال أن يكون بنيامين اشترك مع عمرو أى اشتراك فيما نسب اليه من المفاوضة والمحاربة ، مع اعتباره فى حكم القائد الحربى . يرمى بذلك الى ما رواه الطبرى من أنه بعث لمنع البــلاد .

= وقال الدكتور بتــلر : وقد قال أبو صالح ، صفحة ١٥٦ : ان اسم "قرقر" مشتق من (جريجوريوس) ، فاذا ذهبنا الى أن لفــظ "قرقر" قــد حرف فصار (قرقب) ، وهو احتمال قريب كل القرب — بدا لنا تفسير سهل قريب ، وهو أن (ابن قرقب) ليس إلا تحريف (ابن قرقر) وأن معناه (ابن جريجوريوس) ، ولنلاحظ كذلك أن (جريجوريوس) ، تكتب فى لغة الأرمن (جريجر) وأنه من الأسماء الشائعة فى تلك البلاد ، والصورة المعتادة بين القبط والأرمن ، اليوم ، من اسم (جريجوريوس) ، هى (كركور) . وعلى ذلك فانه من أقرب الأمور ، أن قيرس كان (ابن جريجوريوس) وأن جورج كان (ابن مينا) . (فتح العرب ، ص ٤٦٠ و ٤٦١) .

قال : وقد نبهنا مسيو كازانوفا الى أن (ابن قرقب) ان هو إلا تحريف بسيط لاسم (أبوقرص) وفى الواقع نرى اسم (قيرس) مختفيا تحت لفظ (ابن قرقب) .

ثم قال الدكتور بتلر معربا عن تقديره لقول مسيو كازانوفا : "وهذا الاقتراح وجيه كما أنه ينم عن ذكاء" . فتأمل ! (راجع فتح العرب ، ص ٤٦١) .

أقول : ومسيو كازانوفا المنسوب اليــه هذا القول ، هو المستشرق المشهور ؛ ومن مخلفاته كتاب « محمد والساعة » Mahomet et la fin du monde . وهو مثال آخر يتطلب النظر من البحوث العلمية العصرية . ويلاحظ أن جملة « فلم يفجأ عمرو الا البيات من مرقب » ، لم ترد فى النجوم الزاهرة ، وأبدلت بعبارة أخرى ، يظهر أنها تلخيص للنص الأصلى (ج ١ ص ٢٤) .

(١) الطبرى ج ٤ ص ٢٢٨ (٢) فتح العرب لمصر ص ١٩٠

وهو تأويل محرف عن قول الطبرى، لأن الطبرى لم يذكر «أبا مريم» إلا كراهب موفد للفاوضة ومعه أهل البيعات وهى متعبدات النصارى؛ وقد جاء فى حديث عمرو معه؛ «منع البلاد» ولم يكن المقصود به القتال بل المفاوضة، لأن قيادة الحرب كان موجودا لها أرطبون، وكانت له الكلمة النافذة كما يفهم من تغلبه على اقتراح المصالحة ورفضه .

وليس هناك ارتباط بين بنيامين وبين «أبى مريم» فقد ذكر الطبرى أبا مريم، بأنه جاثليق مصر أى متقدم الأساقفة بمصر «بابليون» ولم يقل أنه رئيس رؤسائهم حتى يظن أنه بنيامين، بطرك اليعاقبة .

ولا نعلم من أين جاء لبتلر أن الطبرى سماه «ابن مريم» وقد جئنا بنص كلامه وليس فيه هذا الاسم . ولا معنى اذن للتفسير الذى جاء به بتلر، ولا لرجوعه بعد ذلك الى القول بأنه قد يكون تحريفا لاسم مارينوس القائد .

ويؤيد الطبرى فى حديثه عن «أبى مريم»، وأنه لم يأت فى كلامه بالأوهام، ورود ذكر أبى مريم فى حديث زياد بن جزء الزبيدى . وقد كان فى جند عمرو بن العاص حين افتتح مصر والإسكندرية . وقد قال عنه انه أسلم وعرف باسم أبى مريم عبد الله بن عبد الرحمن، وصار عريف بنى زبيد[1] .

ولم يقل أحد أن بنيامين البطرك زايل المكان الذى اعتكف فيه بعد فراره واشترك فى وقائع الفتح أثناء زحف عمرو على مصر؛ ليقال انه هو وأبو مريم شخص واحد .

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٢٢٧

والقول بأن خبر المفاوضة مع أبى مريم كان قبل وصول عمرو وجنده الى بلبيس باطل؛ لأن الطبرى ذكر أن اجتماع عمرو بالزبير كان ببابليون وأن المفاوضة كانت معهما . ولا صحة كذلك لما قيل عن عمرو انه طلب الى القبط أن يساعدوا المسلمين لما كان بينهم و بين العرب من قرابة فى النسب تجمعهم هاجر، ولكن القبط قالوا : انهذه قرابة ما أبعدها ؛ وانه قول ما كان قائد الروم لينظر فى مثله[1] !

ولا يخفى ما بين العبارة التى أوردها الطبرى و بين هذا القول من فرق ، وهو دليل على أن بتلر لم يكن مدققا فى نقله ؛ ففى الحادثة التى تمت بين عمرو و بين الراهبين، بدأ عمرو بالإعذار[2] الذى أمر به الله ورسوله ؛ ثم الإنذار بأن مصر ستفتح، ثم بتبليغ وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقبط . وقد أجاب أبو مريم وصاحبه جوابا مرضيا يتفق مع آداب الرهبان وحنكتهم ، و يترك باب الاتفاق مفتوحا . والتمسا من عمرو أن يمهلهم بضعة أيام لينظرا فى الأمر مع قومهما و يرجعا . وقد أجاز عمرو ذلك ، ثم رفض الاقتراح غيرهما . وقد بينا معنى أقوال الطبرى وقلنا : ان الراهبين قالا : " قرابة بعيدة لا يصل مثلها إلا الأنبياء، معروفة[3] "، وهذا يفند أنهما قالا : ان هذه قرابة ما أبعدها ! و يظهر بطلان الادعاء . ولعل ذلك عن التباس فى فهم قول عمرو . أو أن من استعين بهم فى الترجمة من المراجع العربية ، لم يعنوا بالنقل على الوجه الصحيح .

---

(١) فتح العرب لمصر ص ١٩١ (٢) تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٢٢٨

(٣) تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٢٢٨

عين شمس (هليو پوليس) :

قال أرتور رونيــه : كانت هليو پوليس قديمـا قصبة إقليم هليو پوليت nome Héliopolite . وكان اسمها المقدس باللغة المصرية آن وعثر عليــه فى اللغتين القبطية والعربيــة أون On . وكانت تسمى باللغــة الدارجة Per - Ra « مدينة الشمس » . وما لفظ هليو پوليس إلا ترجمة هذا الاسم العامى . وكان فى جوار هليو پوليس عين ماء معروفة سماها العرب عين شمس فغلب اسمها عليها، وفيه ذكرى الشمس، التى كانت معبود أهلها (١) .

ووصف بتلر ما كانت عليه عند مجىء العــرب فقال : لم يكن باقيا من مجدها القديم لمـا أتى العرب إلا أســوار مهدّمة وتماثيل لأبى الهول نصفها مدفون فى الأرض، والمسلة الشهيرة الباقية الى اليوم .

وكان مرجعــه فى ذلك كتب شامپوليون الأصغر . وقد لاحــظ أن الخريطة الحديثــة الحربية تجعل أون فى موضع تل اليهودية على مرتفع من الأرض، وهليو پوليس فى موضع تل الحصن على اثنى عشر ميلا الى الشمال بعــد ذلك (٢) .

وقد تفضل حضرة العــالم الأثرى، الدكتور حسن كمال نجــل المرحوم العلامة الأثرى الكبير أحمد كمال باشا، بأن خص هذا المؤلف بالبيان الآتى، عن أصل مدينة عين شمس (أون)، ونصه :

---

(١) L'Égypte à petites Journées سنة ١٨٧٦، ص ٢٦٧ و ٢٦٨

(٢) فتح العرب لمصر ص ٢٠٠ و ٢٠١ . وقد ورد فى هذه الصفحة الأخيرة فى التعريب تحت رقم (٢) تل الحسن وصحته تل الحصن، وموقعه فى الجنوب من تل اليهودية لا فى شماله .

” هى قاعدة القسم الثالث عشر من أقسام (مديريات) مصر القديمة . اسمها المقدس (پيرّع Per-Ra) أى معبد أو مدينـة أو بيت الشمس . وبالقبطية (ڤـرى) بمعنى بيت الشمس وهو الأصل فى تسميتها باليونانية (هليوپوليس) . وسميت فى التوراة وبالقبطية (أون) . كانت منبع الديانة المصرية ومركزا لدراسـة علم اللاهوت والفلسفة . واختط بجانبهـا مدينتان شهيرتان همـا (أحو) و (حابنبن) أى بابل مصر . وكان لهما شأن عظيم فى حروب (أوزيريس) .

” ان مدن الوجه البحرى هى التى نشرت الحضارة المصرية ووسعت نطاقها لأن الصـلوات والقصائد التى مدحت بهـا المعبودات وصارت بعد ذلك أصولا للكتب المقدسـة كان انشاؤها فى مدينة (أون)، كما يقال لها أيضا (آن) . ولمـا انقسمت مصر الى أعمال ادارية انتهى بهـا الأمر الى قسمين مستقلين . فكانت (آن) فى الجهة البـحرية مركزا للحكومة ومنهـا انبثق نور المدنية على سكان الأراضى الخصبة واهتدى به أيضا أهل الأباطح وأنشأ فيها الكهنة مدارس جمعت اصول الديانات المحلية فاعتنت بها الكهنة ورتبتها، وأوجدت التنسيع فنجح وانتشر بهمة أمراء الوجه البحرى؛ وعلى ذلك تم نظام الملك حول مدينة الشمس . فتقدمت المعارف وظهر نسب الفراعنة حتى ألحق بالمعبود (رع) (أى الشمس) . وسنت ديانة هذا المعبود الشمسى المألوفة لهم .

” وكانت مدينة الشمس فى الجهة البحرية من المعبد حيث تشاهد الآن أطلالها عالية ولم يبق من آثارها ما يستحق الذكر غير أنه أقيم فى مكانها قرية تعرف (بتل الحصن) وربما سرى اليها هـذا الاسم لمجاورتها لسور المدينة .

وكان هذا السور مبنيا باللبن وفى وسـطه المعبد الآنف الذكر . وكان للسور أبواب على أبعـاد متساوية لكل باب برجان من الحجـر الأبيض الجـيرى مشـحونان بالكتابة كما رواه (مكسيم ديكان) صفحة ٦٢ من كتابه المسمى النيل " . الى هنا انتهى بيان الدكتور حسن كمال .

ونقل ابن سعيد، عن كتاب « لذة اللس فى حلى كورة عين شمس » أنها كانت فى قديم الزمان عظيمة الطول والعـرض، متصلة البناء بمصر القديمة حيث مدينـة الفسطاط (١) . ومعنى ذلك أنهم كانوا يطلقون اسم عين شمس على موقعها الحقيق وما يليه من الأماكن الى بابليون وحصنها .

قال الطبرى : وقصد عمرو والزبير لعين شمس، وبها جمعهم (أى معسكر الروم) (٢) . وفى الخطط للقريزى : نازل عين شمس . وكان جمع القوم حتى فتحها (٣) .

ويؤخذ من هذين القولين أن كلا من الطبرى والمقريزى ، يريد بقول « عين شمس » هنا حصن بابليون « قصر الشـمع » ؛ لأنه هو الذى كان به وقتئذ جمع القوم؛ أى الروم .

وقد التبس الأمر على الدكتور بتلر فظن أن المراد بعين شمس التى نزل عليها عمرو والزبير كما جاء فى رواية الطبرى ، مدينة عين شمس الأصلية التى عرفت فيا بعد بالمطرية (٤)، فقال : ان عمْرًا عند مجيئه اتخذ هذه المدينة مقرا لعسكره وجعل يتجهز منها لما هو مقبل عليه من القتال .

---

(١) الانتصار ج ٥ ص ٤٤ (٢) تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٢٢٨ و ٢٢٩

(٣) ج ١ ص ٢٣٠ ، وهو من قول ابن سعيد فى كتاب المغرب .

(٤) الانتصار ج ٥ ص ٤٣

بدء حصار حصن بابليون (عين شمس) :

قال ابن كثير : وحاصر المسلمون عين شمس من مصر فى اليوم الرابع[1] . وفى الرواية التالية لحديث خالد وعبادة السابق، يقول الطبرى عن أبى جارثة وأبى عثمان ما نصه : ولما نزل عمرو على القوم بعين شمس ، ونزل معه الزبير عليها ، قال أهل مصر لملكهم : ما تريد الى قوم فلوا كسرى وقيصر وغلبوهم على بلادهم ؟ . صالح القوم واعتقد منهم ولا تعرض لهم ولا تعرّضنا لهم ؛ وذلك فى اليوم الرابع . فأبى وناهدوهم فقاتلوهم[2] . والمفهوم من هذا القول أنه ترديد ما رواه خالد وعبادة عن حكاية الراهبين والمقوقس وأرطبون وما تبع ذلك من قتال فالحصار .

القتال بين عمرو والروم فى أثناء الحصار (وقعة هليو پوليس فى قول بتلر) :

فى الباب الذى أفرده الدكتور بتلر، بعنوان «وقعة هليو پوليس» يقول :

" كانت خطة عمرو أن يجعل الروم يخرجون اليه فيقاتلونه فى السهل وهم بعيدون عن حصن بابليون . وكانت ربيئة العرب قد أسرعت وحملت الى عمرو ما عزم عليه الروم ، فاستطاع أن يوجه جنوده الى مواضعها ويعبئهم للقتال ، فسار هو من هليو پوليس مع أكثر الجمع من العرب للقاء الروم . ولكنه أرسل تحت الليل كتيبتين : إحداهما الى (أم دنين) والأخرى وعليها خارجة بن حذافة الى مكان واقع الى الشرق . ولعله كان فى ثنيّة

---

(١) أى اليوم الرابع من الهدنة؛ النجوم الزاهرة، ج ١ ص ٢٤

(٢) تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٢٢٩

الجبل بقرب الموضع الذى فيه اليوم قلعة القاهرة . فكان سير الروم على ذلك بين هذين الكمينين من العرب . وكان عمرو قد أمرهما أن يهبطا على جانب جيش الروم ومؤخرته اذا ما سنحت لهم الفرصة . وخرج الروم من بين البساتين والأديرة التى كانت الى الشمال الشرقى من الحصن ، وانتشروا فى السهل وكان ذلك فى الصباح الباكر . ولم يكن عندهم علم بمكيدة عمرو ، بل رأوا أنه كان يسير اليهم فى جمعه آتيا من هليو پوليس ، ثم التقى الجيشان - ولعله فى مكان وسط بين معسكرى الروم والعرب عند العباسية . فلما اشتد القتال أقبلت كتيبة من مكمنها فى الجبل تجتاح مؤخرة الروم . وأخذ الروم بين جيشين فوقع الفشل فى صفوفهم واتجهوا نحو أم دنين ؛ فلقيهم الكمين الآخر ، وظنوه جيشا ثالثا ، فحلت بهم الهزيمة وفروا"[1] .

وقد بنى الدكتور بتلر هذا التفصيل على الظن والتخمين . وقد قدّر عدد جيوش الروم التى كانت على قدم القتال ، بأنها لم تكن بأقل من عشرين ألفا . أما ما جاء فى الروايات العربية عما وقع بين المسلمين والروم فهو ما ذكره ابن عبد الحكم وقد جاء صريحا منافيا لهذا القول ونصه :

جاء رجل الى عمرو ، فقال : اندب معى خيلا حتى آتى من ورائهم[2] عند القتال ؛ فأخرج معه عمرو خمسمائة فارس عليهم خارجة بن حذافة[3] ، فى قول ؛ فساروا من وراء الجبل حتى وصلوا مغار بنى وائل قبل الصبح ، وكانت الروم قد خندقوا خندقا وجعلوا له أبوابا وبثوا فى أفنيتها حسك الحديد ؛

(١) فتح العرب لمصر ص ٢٠٤ (٢) فتوح مصر (ليدن) ص ٥٩

(٣) فى فتوح مصر « وخرج اللخمى » بدلا من خارجة والذى أثبتناه فى المتن من الخطط للقريزى والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ؛ الأول ج ١ ص ٢٨٩ والثانى ج ١ ص ٨

فالتقاهم القوم حين أصبحوا وخرج خارجة من ورائهم فانهزموا حتى دخلوا الحصن .

مغار بنى وائل :

جاء فى الخطط للمقريزى عن خطة بنى وائل أنها « كانت من سفح الشرف ، المعروف بالرصد ، الى خطة خولان[1] ؛ فهى لا تخرج عن المنطقة الواقعة فى الجنوب من قصر الشمع ، بين الشرف ويسمى الآن « جبل الطواحين » ونهر النيل الى دير الطين . والمتبادر أن مغار بنى وائل ، هو الذى ذكره المرحوم على بهجت بك فى استدراكه على قول الأستاذ كازانوفا بخصوص اسطبل عنتر بأنه المغار الواقع فى جانب الشرف المطل على بركة الحبش ، يعنى الرصد .

موضع انهزام الروم (مسجد الفتح) :

وقد اشتهر موضع انهزام الروم بمسجد سمى « مسجد الفتح » بناه فيما بعد ، (يانس الرومى) وزير مصر . وقد ذكره المقريزى فى خططه ضمن المساجد الشهيرة بالقرافة الكبرى[2] ، وقال : واستشهد يومئذ جماعة دفنوا فى مجرى الحصا[3] .

وقال ابن الزيات : ذكرهم القرشى فى طبقات الشهداء وقال : وقبورهم فى مكان واحد وتعرف بمقبرة الشهداء . وهى مقبرة ظاهرة مقابلة لتربة الشيخ عز الدين بن عبد السلام (وموقعها فى الجنوب الشرقى من مشهد عقبة بن عامر) . والخطة معروفة بمجرى الحصا . وقال : بينه وبين

---

(١) ج ١ ص ٢٩٨ (٢) ج ٢ ص ٤٤٧ (٣) الخطط ج ٢ ص ٤٤٧

الجبل نصف ميل . ومن بحريه تربة الصاحب فخر الدين . وهى قريبة من رباط الأمير سعود [(١)] .

وقد ذكر ابن اسحاق حديث قتلهم [(٢)] فى فتوح مصر، ونقله عنه الواقدى فى كتابه « فتوح الشام » . وقال ابن الزيات : "وقال ابن الجباس : وهم اربعمائة وثلاثون رجلا ، قتلوا فى شهر رمضان المبارك يوم الجمعة ، وهم مع عمرو بن العاص قتلوا وهم ساجدون، ذكرهم الشيخ سراج الدين البلقينى. قال ابن اسحاق : وصلى عليهم عمرو بن العاص رضى الله عنه بجماعة المسلمين. ودفنهم هناك فى مواضعهم قبلة مجرى الحصا وشرقا منه وقبورهم معروفة هناك" .

وقد ذكر أسماء الأعيان منهم [(٣)] . وأوردها ابن الزيات أيضا مع اختلاف فى الأسماء يرجع الى تحريف فى النقل [(٤)] .

ولم يذكرهم ابن عبد الحكم فى فتوح مصر ولا غيره ممن نقل عنه ما خلا المقريزى . ومع أن الواقدى روى حديث قتلهم كابن اسحاق إلا أنه لم يذكر أسماءهم .

وفى وصف الدكتور بتلر لانتصار العرب، قال : وقد قتل فى الموقعة كل ما كان بها من الجنود (الروم) الا ثلثمائة . ولاذ كل من نجا بحصن بابليون وأغلقوا عليهم الأبواب . ولكنهم منذ ملموا بما أصاب إخوانهم الروم من القتل حملهم الخوف على أن يتركوا الحصن . فساروا فى النهر الى نقيوس ... ثم قال : على أنه قد بقى من الروم فئة لا بأس بها، اجتمع إليها

(١) الكواكب السيارة ص ٢٧٢ و ٢٧٣ (٢) ص ٣٥ (٣) ص ٣٥

(٤) ص ٢٧٣ . هذا الخبر تناقله من ذكرناهم على هذا الوجه عن ابن اسحاق ؛ وحكاية مقتلهم وهم ساجدون يتعذر تصديقها . ولا يخفى أنه فى عهد الجهاد كان المصلون يحرس بعضهم بعضا .

من كان فى الحصن فى أثناء القتال فصارت منهم جميعا مسلحة قوية تستطيع الدفاع عنه . ولكن النصر أفاد العرب فوائد جمة؛ فقد أصبحت مدينة مصر فى قبضة يدهم بغير قتال . وكانت من قبل يحميها الجيش الذى فى الحصن وأصبحوا يملكون ناصية شاطئ النهر من ناحيتى الحصن من أعلاه ومن أسفله . ونقلوا عسكرهم بعد من هليو بوليس؛ فضربوه فى شمال الحصن وشرقه بين البساتين والكنائس . وذلك المكان هو الذى صار يعرف بالفسطاط فيما بعد . وقد صار جيش العرب بعد ذلك النصر كافيا لحصار بابليون لا يعوقه عائق من التضييق عليه بعد أن قضى على جيش الروم؛ فلم تبق منه إلا الفلول التى لاذت بالحصن ، أو هامت على وجهها فى بلاد مصر السفلى[1] .

وقال : ولعل وقعة عين شمس كانت فى النصف من شهر يولية سنة ٦٤٠م[2] (١٠ رجب سنة ١٩ هـ) . وتابعه ستانلى لين پول[3] وهو قول تقديرى . وعلى أى حال كانت بعد يوم ١٢ بؤونة (٦ يونية) الذى هو تاريخ وصول الأمداد ، وفى أثناء الحصار قبيل المكالمة التى سنذكرها بين المقوقس و بين عبادة بن الصامت مندوب عمرو فى شأن الصلح فى آخر شعبان سنة ١٩ (أغسطس سنة ٦٤٠ م) .

---

(١) فتح العرب لمصر ص ٢٠٥

(٢) فتح العرب لمصر ص ٢٠٧ وفيه : « وقضى العرب فى فتح الفيوم نحو أسبوعين؛ وعلى ذلك لم يبدأ فتح مصر السفلى قبل شهر أغسطس .

(٣) تاريخ مصر فى القرون الوسطى A History of Egypt in the Middle Ages ص ٤

وفى روايات المسلمين عن القتال بين العــرب والروم فى أثناء الحصار، لم يرد بصفة معينة ذكر لقتــال باسم "وقعة هليو بوليس" . وما ذكروه هو سلسلة من القتال والمناوشات، وقعت فيما بين أم دنين والحصن .

وقد وضح الخطأ جليا فى أقوال بتــلر، وهو يريد أن يعين محــل وقعة هليو بوليس التى توهمها، فقال عن موضع التقاء الجيشين : «ولعله كان فى مكان وسط بين معسكرى الروم والعرب عنــد الموضع الذى اسمه اليوم العباسية»(١) . وهو قول مبنى على الظن والتخمين، ويرده بعد هذا المكان عن موقع انهزام الروم المعين بمسجد الفتح فى القرافة الكبرى كما تقدم .

مدينـــة بابليون :

موقعها على الشاطئ الشرقى بين النيل وجبل المقطم . ولم يتخلف منها غير بقية من استحكاماتها على مقربة من مصر العتيقة .

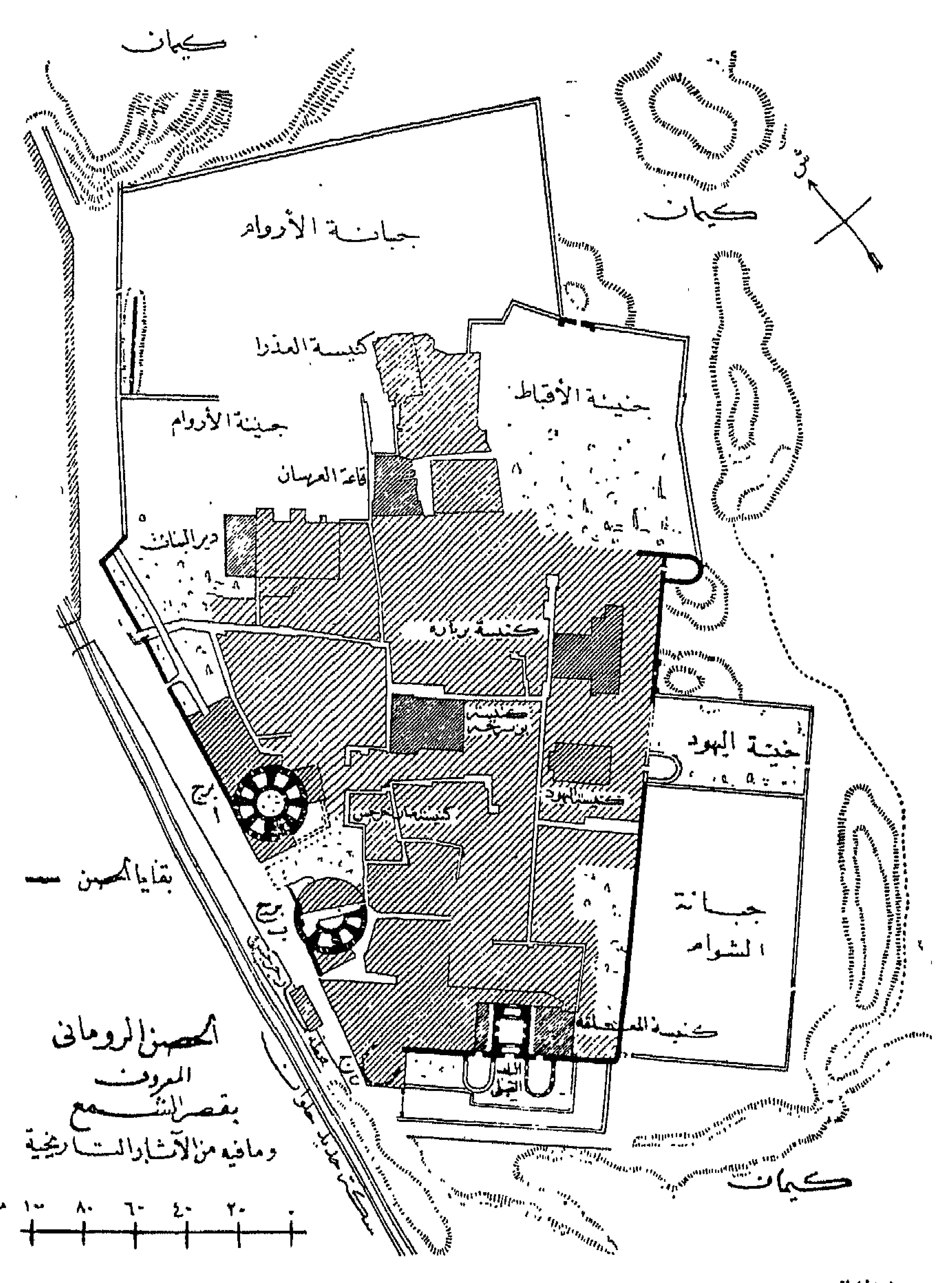
وقد أورد ياقوت فى معجمه اسمها بلفظه الصحيح، ولكنه أطلقه كاسم عام لديار مصر بلغة القدماء، ثم أردفه بقوله : وقيل هو اسم لموضع الفسطاط خاصة .

وقد تعددت الأقوال عن معنى بابليون . ومما قيل فيه : إن هذا اللفظ اذا ردّ الى صيغته اليونانيــة المنقولة عن المصرية يقــرب من الاسم المصرى بى حابى — ن — اون Pi. Hapi —n—On او پرحابى — ن اون — Per — Hapi — n On مدينة اون النيلية . وهو اسم الجــزيرة الكائنة تجاه بابليون، المعروفة الآن باسم جزيرة الروضة(٢) .

---

(١) فتح العرب لمصر ص ٢٠٤

(٢) ستانلى لين بول، تاريخ مصر فى القرون الوسطى A History of Egypt in the Middle Ages ص ٣ تعليقات رقم ٢



من محفوظات
لجنة حفظ الآثار العربية

واذا كانت هـذه المدينة ظلت للآن لا يعـلم عنها شيء، فهى فى ذلك كمدينة منف التى كانت قبلها عاصمة البـلاد ، على الشاطئ الغربى للنيل، ثم زالت بعد أن كانت بحال طيبة حتى القرن السادس الميلادى .

وقد تكون بابليون فى الجانب الشرقى امتدادا لمدينة منف نحو الشمال . وقـد وجدت بعض جدران بجانب مجرى النيـل ، فى جنوب مصر العتيقة ولا يبعد أن تكون مخلفة من هذه المدينة . نعم إن المسافة الآن بين أطلال منف وبين حصن بابليون، تزيد على عشرة أميال . ولكن يلاحظ أن محيط منف بلـغ فى وقت من الأوقات سـبعة عشر ميلا ، ووصل فى امتـداده الى الجـيزة [1] .

حصن بابليون — قصر الشمع :

وقد اختلف قـديما وحديثا فى الوقت الذى بنى فيـه حصن بابليون ، ومن هو منشئه ، ولمـاذا سمى قصر الشمع ؟ فقـال ابن اسحاق : لأنه كان لا يخـلو من الشمع . ونقـل عنه ذلك الواقـدى فى فتوح الشام . وذكره المقريزى فى خططه عن الواقدى . ولكنه زعم أن الواقدى قال : كان هذا القصر يوقد عليـه الشمع فى رأس كل شهر فيعلم الناس أن الشمس انتقلت من البرج الذى حلت فيه الى برج آخر غيره [2] .

وعلق الدكتور بتلر على هذا القول بقوله : انه لا يستغرب من الواقدى فهو صاحب القصص الخيالية .

---

(١) ستانلى لين بول The Story of Cairo ص ٤١ تعليقات رقم ١

(٢) راجـع فتوح مصر وأعمالهـا ص ٢٦ وفتوح الشـام ج ٢ ص ٧١ والخطـط للقريزى ج ١ ص ٢٨٧ .

ونقل المقريزى من وجه آخر أنه عرف بقصر الشمع، لأن الفرس بنوه وجعلوا فيه بيت نار. وكان له باب يقال له باب الشمع (١).

وقال ستانلى لين پول: من المحتمل كما يقول بتلر أن تكون كلمة شمع محرفة عن خيمى (Khemi) أى مصر بالقبطية. فيكون قصر الشمع محرفا عن قصر مصر. وتكون حكاية الوقود بالشمع وضعت تعليلا لذلك (٢).

وفى كتاب پوكوك: ان قصر الشمع فى أيامه كان يعرف « بقصر الكيان ». وقد اتخذ ستانلى لين پول هذا القول دليلا يؤيد به بتلر. ولكن هذا الدليل ينفى نفسه بنفسه، بما لا يحتاج لبيان. وقال ستانلى أيضا: ومع ذلك فان قصر الشمع ليس هو القسم الهام من بابليون، لأن بين رواة العرب من يقول إن حصنا آخر كان قائما قبله بستة قرون، مكانه أو على مقربة منه (٣).

وفى الواقع أن القضاعى سبق له أن قال مثل ذلك، فقد نقل عنه المقريزى قوله: "فى ظاهر الفسطاط القصر المعروف بباب ليون بالشرف، وليون اسم بلد مصر بلغة السودان والروم. وقد بقيت من بنائه بقية مشيدة بالحجارة على طرف الجبل بالشرف، وعليه اليوم مسجد": وقال المقريزى: "فهذا كما ترى صريح فى أن قصر بابليون غير قصر الشمع، فان قصر الشمع فى داخل الفسطاط، وقصر باب ليون هذا عند القضاعى على الجبل المعروف بالشرف، والشرف خارج الفسطاط. وهو خلاف ما قاله ابن عبد الحكم فى كتاب فتوح مصر (٤)".

---

(١) فتح العرب لمصر ج ١ ص ٢١٦ ؛ الخطط للقريزى ج ١ ص ٢٨٧

(٢) The Story of Cairo ص ٤١ (٣) الكتاب والصفحة المذكوران قبله رقم ١

(٤) الخطط للقريزى، ج ١ ص ٢٨٧ و ٢٨٨

وقد عنى الأستاذ كازانوڤا صاحب كتاب تخطيط الفسطاط " بمراجعة الأقوال التى وردت عن ذلك وأجرى عدّة بحوث . ثم كتب عنها مذكرة قدّمها للجنة حفظ الآثار العربية قال فيها : " ان الحصن الذى ذكره القضاعى كان بالجبل المعروف بالشرف المطل على سكة حديد حلوان فيماوراء قصر الشمع حيث كانت طواحين الهواء، الى أن يواجه الانسان دير الطين وأثر النبي . وان هناك بناء مربعا فسيحا فى نهاية الشرف، وجده مرسوما فى إحدى اللوحات فى كتاب پوكوك المسمى «وصف الشرق» (لوحة رقم ١) . بهيئة برج عظيم قائم على انفراد . ولا يختلف المنظر المرسوم فى تلك اللوحة فى شيء ما عن منظر الشرف، والسهل الممتد تحته .

وقال : انه راجع رسوم « البعثة الفرنسية » ، فوجد البرج المذكور واردا فيها كدير خرب ، وقد تحوّل فى العهد الحاضر الى معمل بارود . ويعرف باسم اسطبل عنتر وانه يعتقد أن هذا البناء بقية من قصر بابليون ؛ وانه غير التحصينات القائمة على حدة المعروفة بقصر الشمع[١] .

وقد استدرك المرحوم على بك بهجت على كازانوڤا قوله : ان معمل البارود يعرف باسم اسطبل عنتر فقال : ان قولهم اسطبل عنتر لا يراد به معمل البارود الموجود الآن، وانما هو اسم مغارة فى جانب الشرف المطل على بركة الحبش ؛ وبالقرب من أسيوط مدفن معروف أيضا باسطبل عنتر[٢] . وكذلك يطلق الأهالى على آثار بنى حسن الشرق : اسم اسطبل عنتر[٣] .

(١) لجنة حفظ الآثار العربية ، مجموعتها السنوية الفرنسية سنة ١٩٠٦ ، رقم ٢٣ ص ٨١ و٨٢

(٢) المرحوم على بك بهجت ، كتاب حفريات الفسطاط ، ص ٩ ورقم ٤ بذيل الصفحة (تعريب)

(٣) عن الأستاذ رمزى بك .

ونشر المرحوم مكس هرتس باشا بحثا فى مجلة « الإسلام »[1] عن أقوال كازانوفا، ولم يبت فى الموضوع . وقد أرجأ ذلك الى فرصة أخرى .

وذهب بتلر الى قول آخر بعد اطلاعه على كتاب حنا النقيوسى فقال : ان أول من بنى هذا الحصن الامبراطور الرومانى تراچان فى العام المتمم للمائة من الميلاد ؛ ونقل عن حنا أن اليهود ثاروا بالإسكندرية . وأرسل اليهم تراچان جيشا عظيما بقيادة « مرثيوس توربو » Martius Turbo ثم جاء بنفسه الى مصر وبنى بها حصنا وجعل به قلعة منيعة وجعل فيها ماء كثيرا[2] .

قال بتلر : ولعل هذه الجملة الأخيرة تشير الى ما حفره تراچان من الآبار عند البرج المستدير وفى مواضع أخرى من الحصن . وقال حنا : ان أصل الحصن بناء أقامه بختنصر وسماه باسم عاصمة ملكه « بابليون » ، لما غزا مصر ؛ ثم أقام تراچان أسوار الحصن على أساسه وزاد فى بنائه .

واستشهد بتلر على وجود الحصن القديم بأن استرابون[3] جاء الى مصر قبل عهد تراچان بنحو ١٣٠ عاما . وقال : إنه رأى حصنا قويا على نهد من الصخر ؛ وقد عرف باسم بابليون لأن جماعة من أسرى بابل أقامت فيه . وقال ديودور : ان ملك مصر سيزوستريس جاء بجماعة من الأسرى البابليين وأنزلهم فى قصره ؛ فاطلقوا على القصر اسم المدينة التى جاءوا منها . وقال

(١) Der Islam Band VIII, Heft 1/2 Strassburg 1917.

(٢) فتح العرب لمصر ص ٢١٤ و ٢١٥ — راجع أيضا دائرة المعارف الفرنسية ، المجلد الخامس عشر ، " مصر " Egypte ص ٦٨٩

(٣) كانت رحلته الى مصر فى سنة ٢٤ قبل الميلاد Arthur Rhoné, Résumé Chronologique de l'Histoire d' Égypte, Paris MDCCC LXXVII, p. 42.

يوسيفوس ان الحصن لم يبن إلا فى الوقت الذى غزا فيه الفرس مصر فى حكم قمبيز .

واستأنف مسيو پاتريكولو البحث فى ذلك كله وقال : إنه يميل الى نظرية كازانوفا . ولكنه يتجنب نقد الروايات التاريخية ، لأنه قد يجر الى ما يطول شرحه ؛ ويكتفى بأن يقول ان من الناس من نسب الحصن الى مرثيوس توربو من قواد الامبراطور تراجان بالاعتماد على روايات حنا النقيوسى ، مع أن الأثر نفسه به علامات كثيرة ظاهرة . وكان من اللازم مراعاتها فى البحث . وقد جاء فى أقوال حنا النقيوسى ، وفى كتابى استرابون والمقريزى : أن بابليون مصر التى نزل بها عسكر مرثيوس واتخذوها حصنا هى غير قصر الشمع . والشواهد متوفرة على أن هذا الأثر الأخير لا يرجع الى عصر تراجان . ولو فحص يزول كل شك فى أنه من عصر متأخر لأنه بمجرد النظر اليه يشعر الإنسان أنه أمام بناء من أبنية ديوقليسيان يقرب فى الشبه من قصر اسپالاتو Spalato واستحكاماته ، ولا مثيل له فى أبنية تراجان[1] .

ولما زار أرتور رونيه قصر الشمع عقب قدومه الى مصر فى سنة ١٨٦٤ ، لم يكن باقيا من القصر غير مدخله الرئيسى . ويتكوّن من الباب الكبير تكتنفه من الجانبين بدنتان بارزتان . وقد قال فيما كتبه عنه : ان جنود أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه هاجمت هذا القصر فى سنة ٦٤٠م بعد استيلائهم على منفيس بلا قتال يذكر قبل فتح الإسكندرية ، واذا يكون أقدم ما يذكر من آثار القاهرة وأولاها بالتوقير . وذكر أن إحدى اللوحات من كتاب

(١) لجنة حفظ الآثار العربية . مجموعتها السنوية "الفرنسية" رقم ٣٢ سنة ١٩١٥—١٩١٩ ص ٢١٠ و ٢١١

البعثة الفرنسية (Commission d'Égypte) مرسوم فيها الباب الكبير وثلاثة أبراج ؛ وقد تهدّم منها البرج الغربى وأصبح باب القصر مطمورا فى الأرض أكثر مما كان عليه فى وقت رسمه ، بأن علا التراب على وجهته الى نحو النصف من ارتفاعها[1] واختفى عقده . ولم يكن فى الإمكان رؤية حجارته إلا بعد إزالة التراب عنه ، لأن هيكله لم يكن ظاهرا منه غير جبهته ، أو الجزء العلوى من الوجهة . وكانت تكاد تملأ الفراغ الواقع بين البرجين وقد سقط منها الافريز واتخذ كقاعدة للجزء العلوى ، وصار فى متناول اليد ولم يبق منه غير كابولين بطرفيه ، وقد استند عليهما الجزء العلوى من الجهتين .

وعلى الوجه التحتانى فى الكابولين النسر الرومانى ؛ يحليه بالنقش النافر على صورة تنم بأنه من عصر الانحطاط البيزنطى .

وقد نقله رسامو البعثة الفرنسية ولكنهم أتقنوا رسمه وجعلوه على الأسلوب البيزنطى المتواتر ، رغم ما فى رسم استداراته من التراخى والتهاون فى تمثيل الهيئة الأصلية ؛ وهما من علامات انحطاط الفن وخوره وتوقع ظهور أسلوب جديد .

وشبه مسيو رونيه[2] النسر بدمية من الصوف أو ما يشبه ذلك من العصافير الصغيرة التى تشاهد فى الزخرفة العربية القديمة ويقال أنها بيزنطية . وقال : ولا غرابة فى أن تكون من عمل الصناع البيزنطيين فى مصر .

(١) قال بتلر : كان يتخلل كلا من الجانبين الجنوبى والشرقى من أسوار الحصن أربعة أبراج بارزة ، بينها مسافات غير متساوية . وكانت ثلاثة من هذه الأبراج الأربعة التى الى الجنوب ، لا تزال ظاهرة الى عهد قريب (ص ٢١٠) . وأما الآن فان برجا منها تهدّم واندثر . ولم يبق الا اثنان .

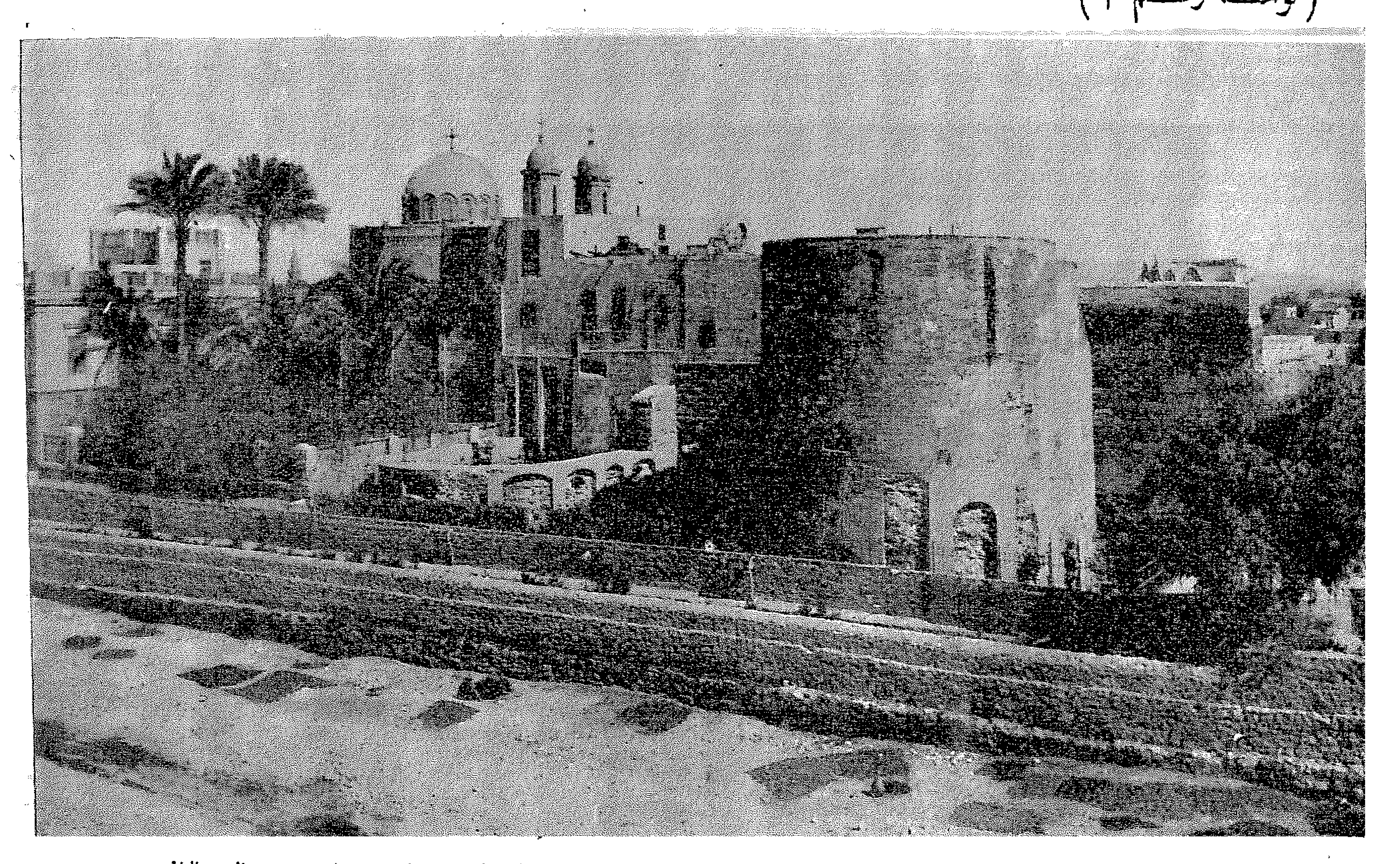
(٢) أرتور رونيه L'Égypte à petites Journées ص ٣١٢ — ٣١٤ طبع باريس سنة ١٩١٠ .



نسر رومانى كان منقوشا بقاعدة وجهة الباب الجنوبى بقصر الشمع
من كتاب أرتور رونيه رسم موس

وقال : ومن المحقق أن البدنات شيدت فى عصر متأخر بعجلة . وهى تبدو كأنها مسندة الى الجدار، وأنه موجود من قبل . وقد بنيت «بمداميك» من حجر تتبادل مع مداميك من الآجر. وبين ذلك لحام عريض من «المونة» . وعلى استواء أعلى الباب بالبرجين صف من طيقان معقودة، ضيقة الفتحات صنجها من حجـر، منفصل بعضه عن بعض، بالآجر وحطات من الملاط

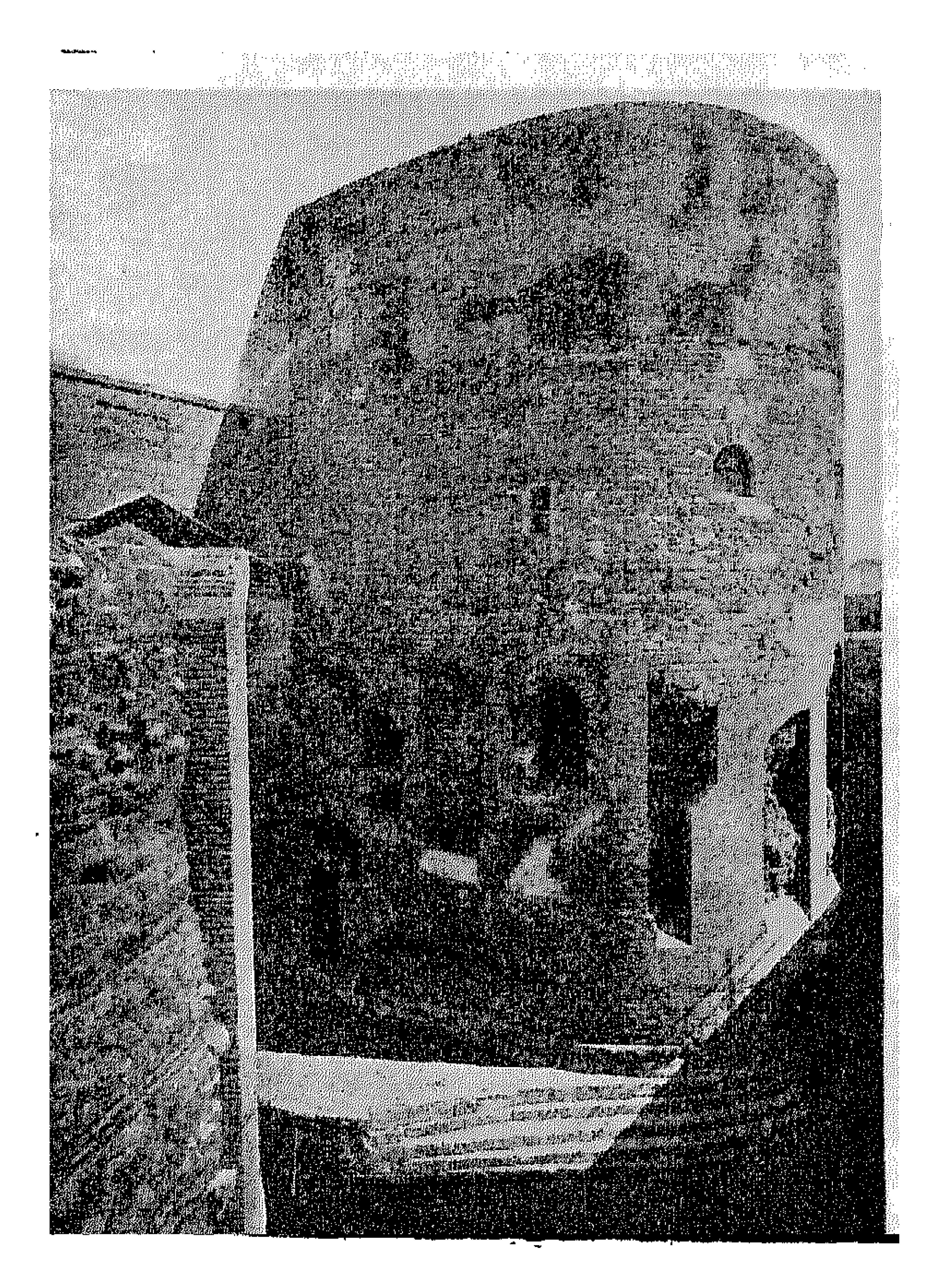
(لوحة رقم ١)



بقايا الحصن الرومانى «قصر الشمع» . وفى ظل البدنة الكبرى منها الجزء العلوى من الباب الجنوبى للحصن و يليه قسم من البرج الثانى
طابع «كليشيه» الأستاذ كريسول

المركب من الجير والشقف ورماد الحمامات . وهذا البناء معروف فى الأبنية البيزنطية القديمة .

وما بقى من حظيرة القصر وسع وأحدثت فيه ثغرات كثيرة . وليس فيه ما يستحق الاهتمام، غير بقايا الأبراج فى الجهة الشرقية . و يكاد يكون السور كله مجدّدا و بناؤه حقير . ولا يبعد أن أهل الجهة من المسيحيين الذين كانوا

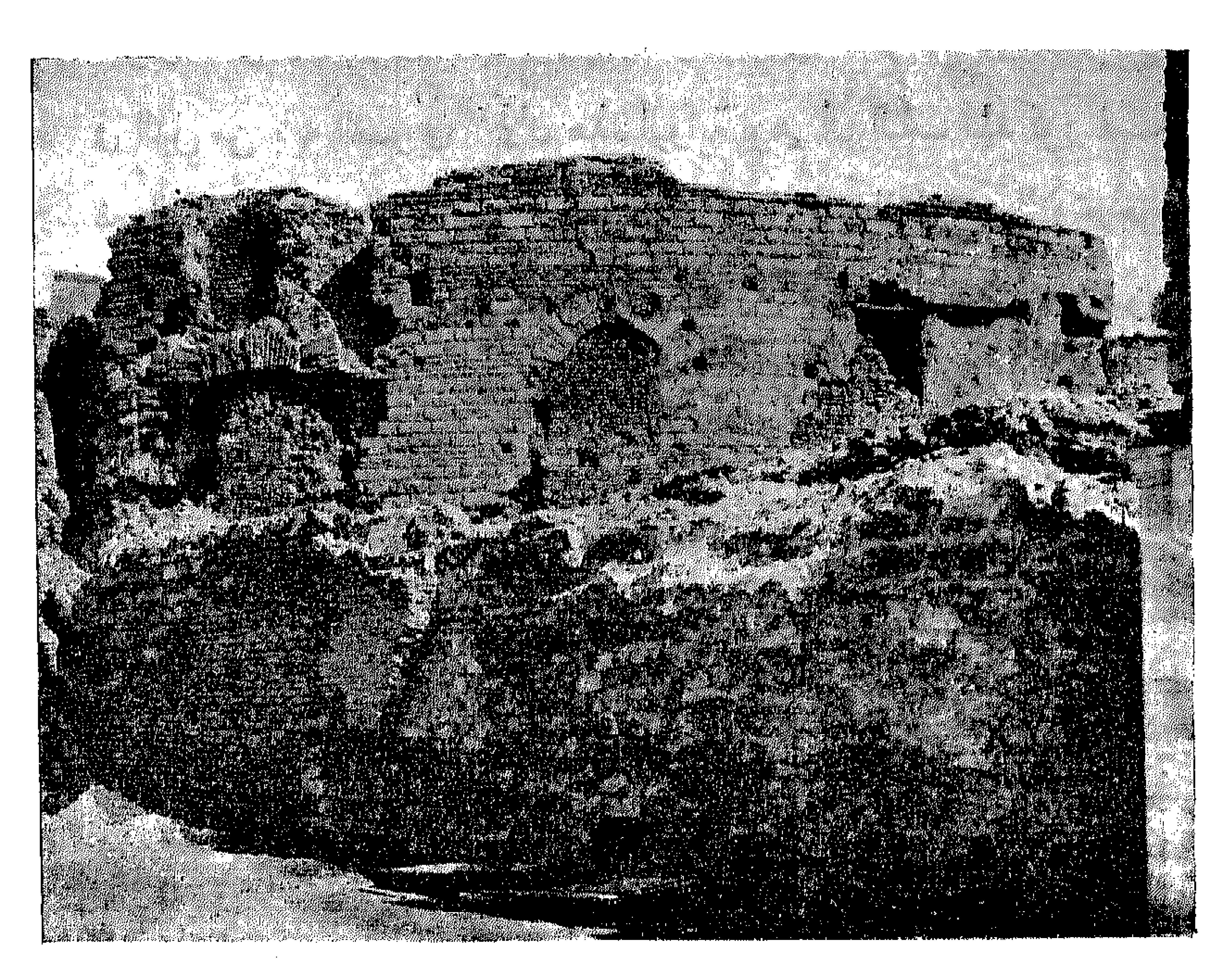


(لوحة رقم ٢) البدنة اليمنى للباب الجنوبى للحصن
من محفوظات لجنة حفظ الآثار العربية

يعيشون على انفراد محتفظين بعوائدهم وعبادتهم ، رأوا أن الاستحكامات القديمة أصبحت لا تنفعهم فى شىء فتركوها تتهدّم ، أو أنهم أزالوها ليستبدلوا بها ما يكون أكثر مناعة .

ويبلغ قطر كل من البرجين المستديرين نحو مائة قدم ، وبداخل كل منهما دائرة أخرى من البناء . وما بين الدائرتين الخارجة والداخلة جدران مقسمة الى ثمانية أقسام .

وكان بين البرجين المستديرين ، وهما تجاه جزيرة الروضة ، جدار ساتر وقد تهدّم .



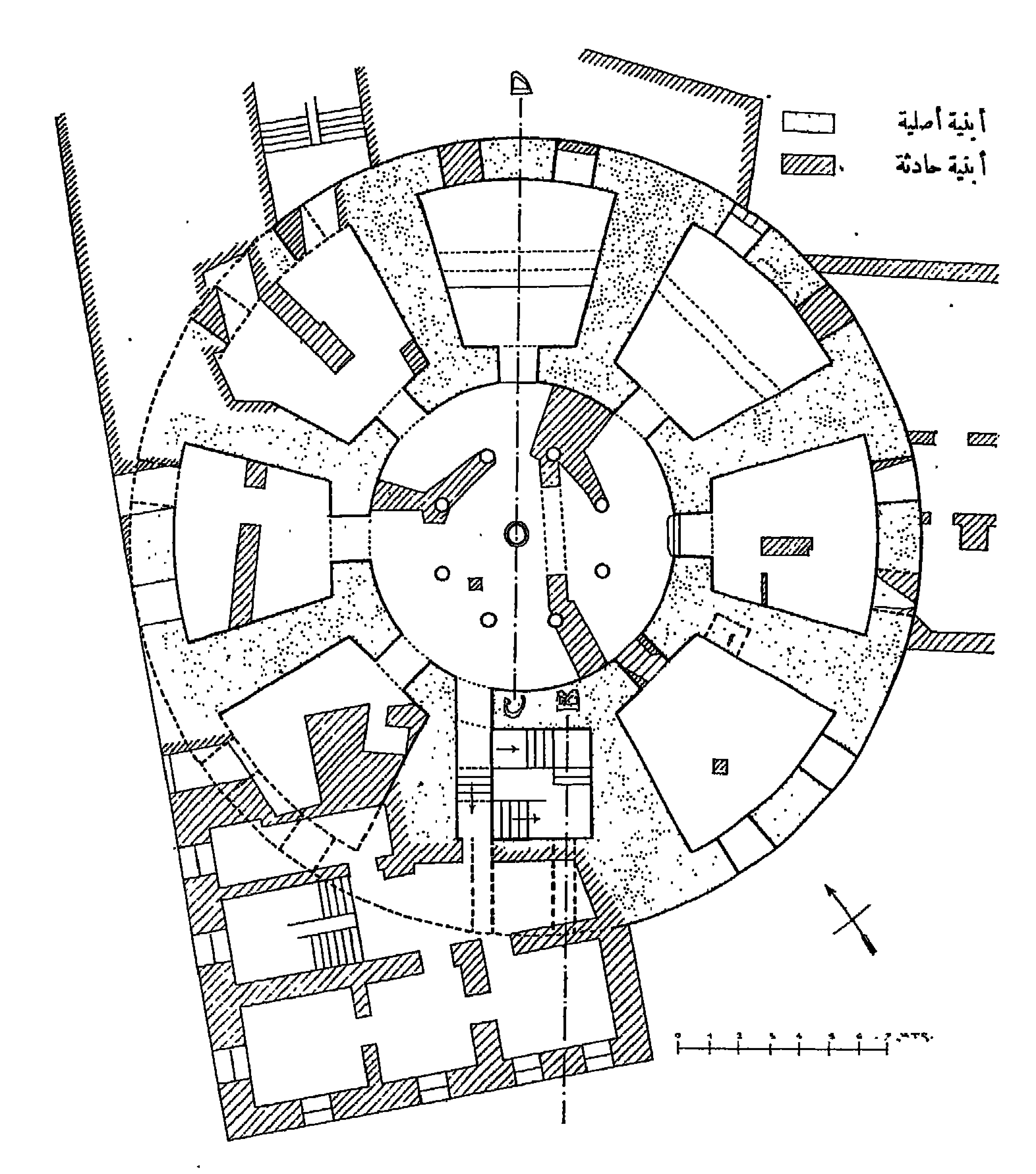
(لوحة رقم ٣) بعض أطلال قصر الشمع
من محفوظات لجنة حفظ الآثار العربية

وذكر الدكتور بتلر وغيره أنه كان للحصن باب آخر تجاه النيل غير الباب الأول الكبير السابق وصفه، المعروف فى التاريخ باسم الباب الجنوبى وباب المعلقة، وباب الشمع . ثم قال : ولعل الباب الثانى كان مشروعا فى الجدار الساتر بين البرجين الكبيرين[1] .

وقد ذكر هذا البـاب فى كتاب حفريات الفسـطاط باسم « البـاب الغربى » ، وقيل : انه باب الحديد[2] ولم يبق منـه غير الأساس . وفى هذا القول التباس يرجع ولا شك الى إحدى روايات المقريزى ، عن باب القصر الكبير ونصها : " وكان هذا الحصن مطلا على النيل وتصل السفن الى بابه الغربى الذى كان يعرف بباب الحديد . ومنه ركب المقوقس فى السفن فى النيل من بابه الغـربى[3] " لأن هذه الرواية توهم أن الباب المذكور فيهـا غير البـاب الكبير الوارد فى روايته الأخرى بالنص الآتى : " وخرجوا (المقوقس ومن معه) من باب القصر القبلى[4] " . والحقيق أن الباب المقصود فى الروايتين باب واحد ، هو الباب سفل المعلقة .

ولمـا ذكر الدكتور بتـلر البـاب الثانى قال : " انه غير البـاب الذى يكثر مؤرخو العرب من وصفه ويقرنونه باسم المقوقس فإن البـاب الغربى الذى يقصدونه هو البـاب الجنوبى الموجود للآن . وأما الباب الذى كان بين البرجين فقـد تهدم ولم يبـق له أثر وكان النيـل أو فرع قصـير منه ، فى وقت الفتح يصل الى الباب الجنوبى ، والى مرسى السفن الرومانيـة .

(١) فتح العرب لمصر ص ٢١٠ و ٢١١ و ٢١٣
(٢) المرحوم على بك بهجت ص ١٠ (تعريب) .
(٣) الخطط للقريزى ج ١ ص ٢٨٦ (٤) الكتاب السابق ج ٢ ص ٢٩٠



قطاع أفقى لأحد البرجين الغربيين للحصن الرومانى (قصر الشمع)
من محفوظات لجنة حفظ الآثار العربية

وكان له درج يوصل الى الماء اذا هبط النيل . وهذا الباب الجنوبى ، هو الذى يسميه العرب : « باب الحديد »(١) .

وقال : " ان المقريزى دعا باب الحديد « الباب الغربى » ، وإن ابن دقماق وهو من عصر المقريزى يقول : إن الباب الغربى هو الذى بسفل كنيسة المعلقة ؛ وانه هو نفسه ، أى الدكتور بتلر ، سمى الباب الكبير « الجنوبى » وهى تسمية لا خطأ فيها ، وانما أطلقت مع شىء من التسامح ، لأن النص على هذا الباب بالجنوبى أو الغربى مطلقا لم تراع فيه الدقة التامة ، لأنه يخالف اتجاهات البوصلة الحقيقية ؛ والأوفق أن يسمى الجانب المواجه للقاهرة الشمالى ، والجانب المواجه لحلوان الجنوبى " . وقال : " إن ابن دقماق ذكر « درب المعلقة » وقال : هو الدرب الذى سفل الكنيسة المعروفة بالمعلقة ، وهو باب الحصن المدخول منه الى جميع قصر الروم المعروف بقصر الشمع وهو بابه الغربى ؛ والصواب الجنوبى الغربى "(٢) .

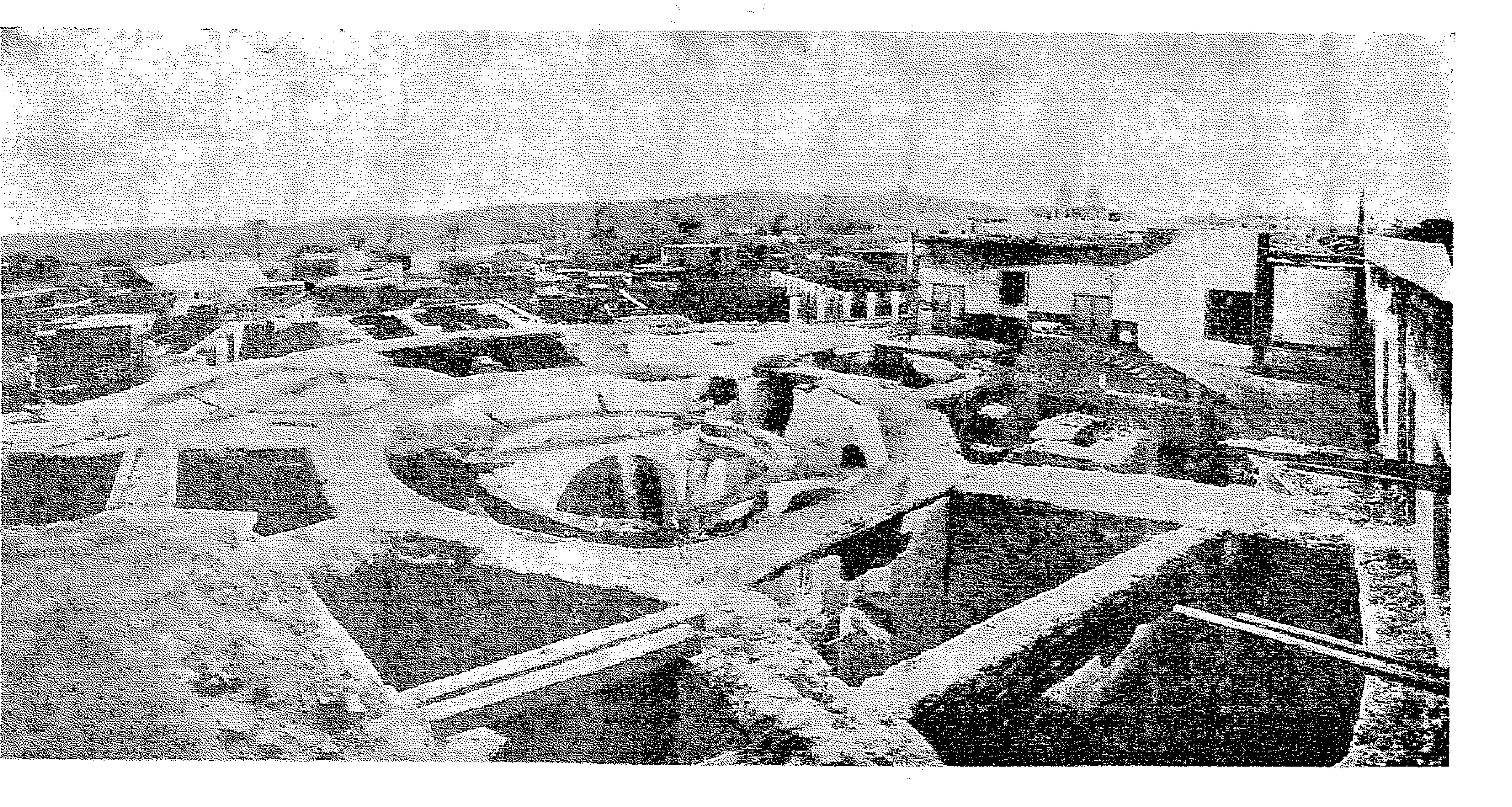
أقول وهذا النص يتفق تماما مع رواية المقريزى الأولى ، بل ومع روايته الثانية ، اذا راعينا الاتجاه الصحيح ، وقلنا الجنوبى الغربى .

وقد لاحظت أنه لما ذكر الباب الكبير للقصر فى كتاب « حفريات الفسطاط » قيل عنه الجنوبى الشرقى ؛ وكان المقصود أن يقال ولا شك « الجنوبى الغربى » . واذا قرنا ذلك يصبح القول الوارد فى « حفريات الفسطاط » متفقا مع قول الدكتور بتلر وابن دقماق والمقريزى ؛ إلا فى تسمية

(١) فتح العرب لمصر ص ٢١١ و ٢١٢

(٢) فتح العرب لمصر ص ٢١٢ و (٢) بذيل الصفحة .

(لوحة رقم ٤)



منظور من عال لاحد البرجين الغربيين للحصن
(من محفوظات لجنة حفظ الآثار العربية)

الباب الذى قيل أنه كان فى الجدار الساتر بين البرجين المقابلين لجزيرة الروضة بباب الحديد ، والصواب أن يسمى « الغربى » .

وكانت للقصر أبواب أخرى ، ذكر منها ابن دقماق الباب الشرقى ، وصوابه الشمالى الشرقى للحصن باسم «درب الحجر» ، وذكر «الباب البحرى» باسم درب « محط القرب » ، وقال انه آخر دروب القصر المشهورة[1] .

ويغلب على ظنى أن هذا الباب عرف بدرب « محط القرب » لأن السقائين كانوا يردون عليه بالقرب يستقون الماء من النيل .

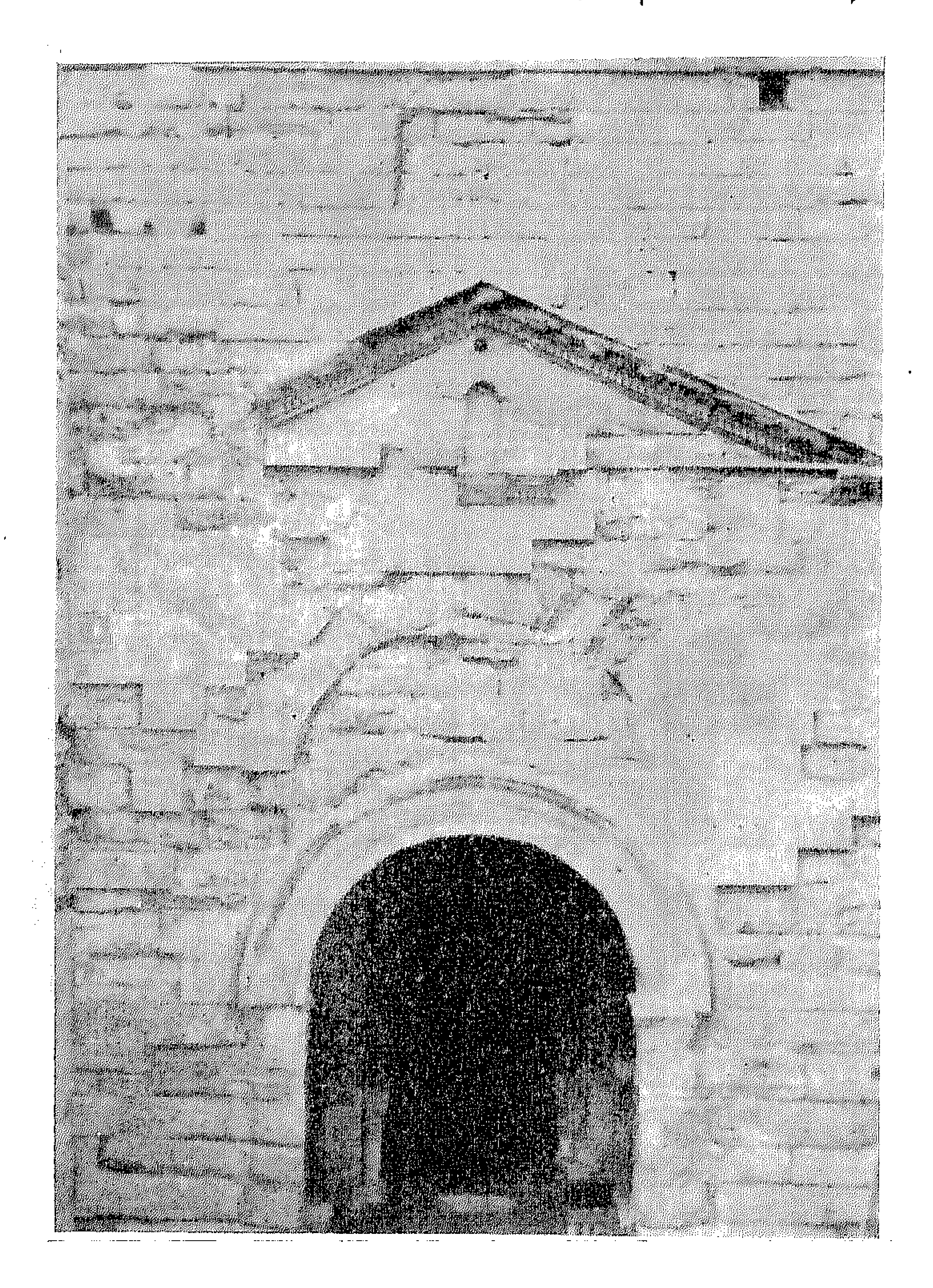
ولقد عنيت لجنة حفظ الآثار العربية منذ سنة ١٩٠٢ ، بالتحفظ على بقايا هذا الأثر الذى كان له دور مهم فى تاريخ الفتح الاسلامى فى مواقع كثيرة منه . فأزاحت التراب والأنقاض التى علت على المبانى ، وعنى مهندسوها الفنيون بالمحافظة عليها وأعادوها الى أصلها على قدر المستطاع : فخلصت الوجهة ، وأخلى من الأنقاض الفضاء الواقع خلفها بين البابين اللذين كان يمر بهما الداخل الى القصر ، الكائن أحدهما وراء الآخر .

وكان الرومان يسمون هذا الفضاء برو بوجنا كولوم Propugnaculum وكان يستخدم للمقاومة ، اذا اقتحم المهاجم الباب الأول ، وتمكن من كسر السياج الذى يتخذ من حسك الحديد ؛ وكانوا يبقونه دائما مكشوفا ، ويتخذون دهليزا بدائر الجدران فى أعلى الحصن يتجمعون فيه لعرقلة العدو .

---

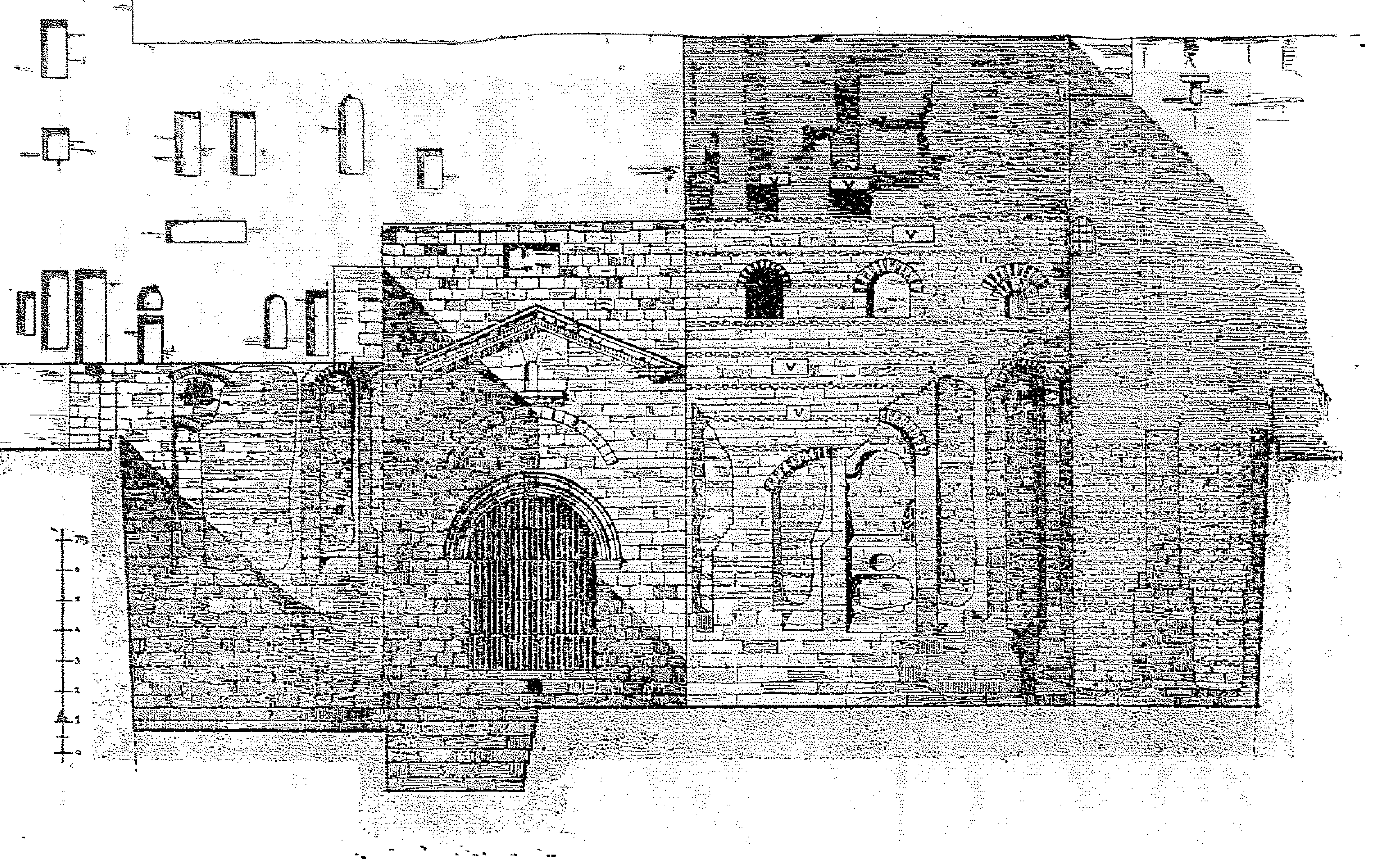
(١) الانتصار ، ج ٤ ص ٢٥ و ٢٦

(لوحة رقم ٥)



الباب الجنوبي الغربي لقصر الشمع
(طابع حسن أفندي عبد الوهاب)

(لوحة رقم ٦)



الباب الجنوبي للحصن الروماني المعروف بقصر الشمع مع البدنة اليمنى
من محفوظات لجنة حفظ الآثار العربية

وقد أصبح هذا الفضاء مسقوفا منذ توسيع كنيسة المعلقة . وكانت فى الأصل راكبة على جزء من الحصن فقط ، شرقى الباب القبلى [(١)] .

وكان بالجهة الشرقيــة من الحصن فى وقت الفتح مزارع ، والى شماله حدائق وكروم ، وفيما يليهــا الى الجبــل الشرقى كنائس وديورة متصــلة الى الموضع الذى به اليوم جامع ابن طولون وقلعة الكبش . وقد بقيت بعض هــذه الكنائس والديورة بعضهــا داخل ســور القصر وبعضها خارجه . ولمــا دمرت الكنائس فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون، هــدم بعضها ضمن ثمــان كنائس أزيلت بســوق وردان من مدينــة مصر ، وبالمصاصة وقصر الشمع [(٢)] .

مقياس النيــل الذى تخلف بقصر الشــمع من زمن الروم — مسجد النصر أو مسجد الفتح :

وكان بقصر الشمع مقياس للنيل من زمن الروم ، بصدر زقاق غير نافذ يسمى زقاق القمارية ، لأن بابها كانــ منه [(٣)] . ثم عمر الشــيخ شمس الدين أبو عبد الله بن النعمان مسجد النصر وقيــل مسجد الفتح ، وعرف فيما بعد بزاوية الشيخ شمس الدين بن النعمان الفاسى ، بالقرب من الكنيسة المعلقة، واشتهر بأنه موضــع مبارك . وقــد بقيت هذه الزاوية بيــد أولاد النعمان الى ما بعد سنة ٧٩٣ هجرية . وكان بأسفل المسجد سقيفة تعرف به تجاور كنيسة الملكيين [(٤)] .

---

(١) مجموعة لجنة حفظ الآثار العربية (الفرنسية) سنة ١٩٠٥ — ١٩٠٦ ، ص ٢١٢

(٢) الخطط ج ٢ ص ٥١٧ (٣) الانتصار ج ٤ ص ١٥ و ٨١

(٤) الانتصار ج ٤ ص ١٥ و ١٦ و ٤٩ و ٨١ و ١٠٣

وذكر ابن المتوج : أن عمود المقياس موجود فى زقاق مسجد ابن النعمان . وقد ذيل المقريزى هذا الخبر بقوله : وهو باق الى يومنا هذا ؛ يعنى سنة عشرين وثمانمائة[1] .

وقد عين أبو المحاسن فى النجوم الزاهرة موقعه بأنه بالقصر، خلف الباب يمنة من يدخل منه فى داخل الزقاق، وأن أثره كان لا يزال قائما فى زمنه ، وقد بنى عليه وحوله[2] .

ولما ذكر المقريزى دير البنات بقصر الشمع ، قال : "وهو على اسم بوجرج ، وكان مقياس النيل قبل الإسلام وبه آثار ذلك"[3] .

ولا يوجد الآن بين مبانى الدير الحالى والدير القديم الذى ذكره المقريزى صلة غير الموقع . وقد أجريت بعض حفريات فى جداره فظهرت كتل كبيرة من الحجر ، على عمق أربعة أمتار من أرض الدير ، يرجح أن تكون من البناء القديم .

ما جرى فى حصار الحصن بعد انهزام الروم :

كان شحنة الروم المتولى على مصر من قبل القياصرة ، ينزل قصر الشمع اذا قدم من الإسكندرية . وقد نص فى الروايات العربية كما تقدّم على أن المقوقس هو الذى قدم من الإسكندرية ، ونزل قصر الشمع لتجهيز الجيش وصد العرب وقت زحفهم على مصر[4] .

---

(١) الخطط ج ١ ص ٢٨٦
(٢) ج ٢ ص ٣٠٩ و ٣١٠
(٣) الخطط للقريزى ج ٢ ص ٥١٠
(٤) فتوح مصر (ليدن) ص ٥٨ والخطط للقريزى ج ١ ص ٢٨٦ ؛ النجوم الزاهرة ج ١ ص ٧

وكان معه بالحصن أكابر القبط ورؤساؤهم وفريق من الروم ، ذكر منهم حنا النقيوسى ، تيودور وأودقيانوس[1] . وذكر المؤرخون شخصا من الروم يقال له الأعيرج واليا عليه . وكان تحت يد المقوقس ، واسمه جريج بن مينا وكان يعرف بالمندقور[2] ، وهو لفظ محرف صححه بتلر « المنداتور » .

وفى كتاب «فتح العرب لمصر» ينفى الدكتور بتلر اشتراك القبط فى القتال . ويزعم أن العرب مسخوا الحقيقة وقلبوها لأنهم قالوا : " إن الحصن كان جنده من القبط وأن كل من كانوا به من القبط ، مع أن القبط من اضطهاد قيرس لهم كانوا أعجز من أن يجتمعوا على أمر أو ينزلوا الى قتال و يصالحوا العرب ، وكل ما كان يتوقع منهم هو النظر فى النضال لكل من الفريقين ، كغريب عنهم كريه فى أعينهم " . واتخذ دليلا وجود قيرس العدو الأكبر لمذهب القبط فى الحصن[3] .

على أن مؤرخى العرب لم ينسبوا للقبط مقاومة ، ولم يقولوا إنهم جاربوهم بل كانوا يدوّنون الأدوار التى قام بها الروم فقالوا : إنهم اتخذوا الخندق على الحصن ، وقاتلوا ثم فرّوا ودخلوا الحصن فحوصروا فيه ثم خرجوا يجمعون متاعهم وغير ذلك .

وقالوا : إن المسلمين لما حاصروا القصر ، كان به جماعة من الروم وأكابر القبط ورؤساؤهم . وهذا يكفى لمعرفة من قيل إنهم كانوا بالحصن وليس بينهم قيرس ولا جنود من القبط .

---

(١) فتح العرب لمصر ص ٢٠٢ و ٢٢٠

(٢) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٧ وسنعود للكلام على اسم « جريج بن مينا » .

(٣) ص ٢٢٠ و ٢٢١

وزعم بتلر أن مؤرخى العرب، كتبوا بعد الفتح بقرون، وادّعوا أنه كان للمصريين جند وقوّاد من القبط دون أنْ يميزوا بين القبط والروم، مع أنه لم يكن فى ذلك الوقت شىء اسمه القبط فى ميدان النضال [1] .

والحقيقة إن كتب مؤرخى العرب ليس فيها أقوال من هذا القبيل، إلا إذا كان الدكتور بتلر يعد منها كتب المغازى . ومع ذلك نراه يقول : "وكان بالحصن كثير من الأزودة والذخائر من كل نوع، وكان قد اجتمع به عدد عظيم من غير الجند من أهل مدينة مصر والأديرة المجاورة" . وهو إقرار صريح بأن القبط كانوا موجودين بالحصن وقتئذ، لأنهم هم أهل مصر وإن حرص على ألا يبين من هم أهل مدينة مصر والأديرة التى بجوارها .

وصار المسلمون يقاتلون الملتجئين . وقد فرّق عمرو الرجال حول الخندق منذ مجىء المدد ووضع عليه المنجنيق . قال ابن لهيعة : وقال عمرو يومئذ :

يوم لهمدانَ ويوم للصَّدف ... والمَنْجَنِيقُ فى بَلِيٍّ تختلِفْ

عَمْرٌو يُرْقِلُ إرقال الشَّيْخِ الخَرِفْ [2]

قال : وكان عمرو إنما يقف تحت راية «بلى» فيما يزعمون [3] .

وقد ذكر الدكتور بتلر نصب المنجنيق على الحصن . ولكنه زعم أن استعماله لم يكن معروفا عند العرب، قال : وكان العرب قد غنموا بعض آلة الحرب فى غزاة الفيوم ومن حصن تراجان فى منوف، ولم تكن لهم

---

(١) فتح العرب لمصر ص ٢٢٠ و ٢٢١   (٢) كذا فى الأصل وهو غير موزون ولم نقف عليه فى غير فتوح مصر . ويصح إذا قرئ شطره الأخير :
عمرو له يرقل إرقال الخرف
عن الأستاذ محمد عبد الجواد .   (٣) فتوح مصر (ليدن) ص ٦٢

خبرة ولا معـرفة بكيفية استعمالهـا و إصلاحها اذا اعتراها الفساد . ولهـذا لم يلحق منهـا بمسلحة الحصن إلا ضرر يسـير ؛ مع أنه كان دونهم نهد من الأرض على نحو مائتى ياردة (ثلثمائة ذراع) الى جنوب الحصن ، ولو وضعوا عليه آلة الحصار لرجحت كفتهم وازدادوا قوة[1] .

ثم قال : وقد ذكر واحد أو اثنان من مؤرخى العرب أن عمرا وضع مجانيق حول الحصن ؛ ولكن لم يرد ما يدل على أنها أفادت المحاصرين[2] .

وعلى قدر الحط من معرفة العرب بالمنجنيق نراه يرفع من قدر الملتجئين الى الحصن ودربتهم على استعمالها فيقول : ان عمرا لم يستطع أن يملك زمام النهر مع كل ما كان من انتصاره ؛ ولو أتى الى الحصن جانب النهر لاستاقت المياه السفن التى أتى فيها أو لأغرقها من فى الحصن من رماة المنجنيق[3] .

وهى مفاضلة تقديرية أملاها الخيال ، ولا محل لهـا بعد استسلام أهل الحصن ، وقوله إن العـرب كانوا قبـل فتح الحصن قد غنموا بعض آلة الحـرب فى غزاة الفيوم ومنوف غير صحيح ، لأن روايات العرب تنفى غزو الفيوم ومنوف قبل فتح الحصن . ويؤيد ذلك سقوط الأدلة التى بنى عليها تغيير تواريخ الفتح كما بيناه فى مواضعه .

نزيد على ذلك أن زعمه بأن العرب لم تكن لهم خبرة باستعمال هذه الآلات غير صحيح ، لأنهم وقفوا على استعمالها من قبل وكانوا يقولون : إن أوّل من وضع المنجنيق جذيمة الأبرش ملك الحيرة ، وكان ملك العرب . وقيـل :

---

(١) فتح العرب لمصر ص ٢١٨

(٢) فتح العرب لمصر ص ٢١٨ (١) بذيل الصفحة .

(٣) فتح العرب لمصر ص ٢١٩

وكأنها أولية نسبية ، فقد جاء فى قصص العرب أن المشركين لما أرادوا إحراق الخليل عليه السلام وضع فى المنجنيق . وأما أول منجنيق رمى به فى الإسلام فهو الذى نصبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على حصن الطائف باشارة سلمان الفارسى رضى الله عنه ، قال : يارسول الله ؛ أرى أن تنصب المنجنيق على حصنهم فإنا كنا بأرضنا ننصب المنجنيقات على الحصون وتنصب علينا فنصيب من عدونا و يصيب منا . وإن لم يكن منجنيق ، طال الثواء (أى الإقامة فى محاصرتهم) ؛ فأمره صلى الله عليه وسلم فعمل منجنيقا بيده فنصبه على حصنهم[١] .

وقال القسطلانى : هو أوّل منجنيق رمى به فى الإسلام ، وكان قدم به الطفيل الدوسى معه لما رجع من سرية ذى الكفين[٢] .

ولما ورد المسلمون على مدينة بهرسير قبيل فتح المدائن فى سنة ١٦ ، استصنع سعد شيرزاد المجانيق ، فنصب على أهلها عشرين منجنيقا[٣] .

المفاوضة الأولى فى الحصن :

ثم حصلت مفاوضة ، قيل دخل من أجلها عمرو الحصن ومعه عبادة ابن الصامت ، وتناظر مع الموجودين فيه وأحس بأنهم نووا اغتياله فخرج ولم يتم شيء[٤] . واستمر الحصار والقتال بين من كانوا بالحصن و بين العرب .

---

(١) الحلوانى : قطع المجاج ص ١٨

(٢) القسطلانى ، المواهب اللدنية ج ١ ص ٢١٥

(٣) تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ١٦٨

(٤) فتوح مصر (ليدن) ص ٦٢

بوادر اقتحام الحصن :

وأعقب ذلك اقتحام الحصن . وقد وردت حكاية ذلك فى كتاب فتوح مصر لابن عبد الحكم فى روايتين :

الرواية الأولى :

ذكر أنه لما أبطأ الفتح على عمرو قال الزبير : إنى أهب الله نفسى وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين . فوضع سلما الى جانب الحصن ثم صعد فأمرهم اذا سمعوا تكبيرا أن يجيبوه جميعا . فما شعر أهل الحصن إلا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف . وتحامل الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفا من أن ينكسر . وكبر الزبير فكبرت الناس معه وأجابهم المسلمون من خارج ، فلم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموه جميعا فهربوا . وعمد الزبير وأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه واقتحمه المسلمون[1] .

الرواية الثانية :

عن ابن عبد الحكم أيضا قال : وقد سمعت فى فتح القصر وجها آخر : هو أن المسلمين لما حاصروا بابليون (باب اليون) ، وكان به جماعة من الروم وأكابر القبط ورؤسائهم وعليهم المقوقس فقاتلوهم بها شهرا . فلما رأى القوم الجد منهم على فتحه والحرص ، ورأوا من صبرهم على القتال ورغبتهم فيه خافوا أن يظهروا عليهم ، فتنحى المقوقس وجماعة من أكابر القبط وخرجوا من باب القصر القبلى (الجنوبى) ، ودونهم جماعة يقاتلون العرب فلحقوا بالجزيرة موضع الصناعة (وهى جزيرة الروضة الواقعة فى النيل تجاه مصر القديمة) ؛ وأمروا بقطع الجسر وذلك فى جرى النيل[2] .

---

(١) فتوح مصر (ليدن) ص ٦٤ (٢) الخطط للقريزى ، ج ١ ص ٢٩٠ !

ويقال : إن الأعيرج تخلف بالحصن بعـد المقوقس ؛ فلما خاف فتح الحصن ركب هو وأهل القوة والشرف وكانت سفنهم ملصقة بالحصن ، ثم لحقوا بالمقوقس بالجزيرة .

قال المقريزى : وتبتدئ زيادة النيل من خامس بؤونة (يونيه) . وتظهر فى ثانى عشره ، وأول دفعـه فى الثانى من أبيب (يولية) . وتنتهى زيادته فى ثامن بابه (أكتوبر) ؛ ويأخذ فى النقصان من العشرين منه[1] .

المفاوضة مع المقوقس :

وأرسل المقوقس الى عمرو يقول ؛ ضمن كلام آخر اختصرناه : ابعث الينا رجالا منكم نسمع كلامهم ، فلعـله أن يأتى الأمر فيا بيننا وبينـكم على ما تحبون ونحب ، وينقطع عنا وعنكم هـذا القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم ، فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه .

وردّ على ذلك عمرو مع رسل المقوقس : إنه ليس بينى وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال ؛ إما أن دخلتم فى الإســلام فكنتم إخواننا وكان لكم ما لنا ، وإما أن أبيتم فأعطيتم الجـزية عن يد وأنتم صاغرون ، وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين . فأعاد المقوقس يطلب أن يبعث اليهم عمرو رسلا ، فبعث عمرو بعشرة نفر أحدهم عبادة بن الصامت . فحصلت بينه وبين المقوقس مفاوضة طويلة مشهورة ؛ ظهر فيها ميل المقوقس الى عدم الاستمرار فى القتال . ولكن أصحابه أبوا التسليم وقالوا : "الموت أهون علينا"[2] .

---

(١) الخطط للقريزى ج ١ ص ٦٠ — راجع صبح الأعشى ، ثالث ص ٢٩٢ — ٢٩٥

(٢) فتوح مصر ص ٦٥ و ٦٦ و ٦٩ ، النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٠ — ١٦ والنص منقول عنه وعن ابن عبد الحكم ، ويختلف فى اللفظ عن الوارد فى الخطط للقريزى ج ١ ص ٢٩٢

قال المرحوم محمد مختار باشا فى كتاب التوفيقات الإلهامية : وكانت هذه المكالمة فى آخر شعبان سنة ١٩ (أغسطس سنة ٦٤٠)[١] .

استئناف القتال — انتصار المسلمين :

وألح المسلمون عند ذلك بالقتال على من بالقصر حتى ظفروا بهم وأمكن الله منهم فقتل خلق كثير وأسر من أسر . فأبحرت السفن كلها الى الجزيرة فصار المسلمون يراقبونهم وقد أحدق بهم الماء من كل وجه، لا يقدرون على أن ينفذوا نحو الصعيد ولا الى غير ذلك من المدائن والقرى[٢] .

وهذا النص من رواية ابن عبدالحكم وقد أورده المقريزى وأبو المحاسن؛ ولكن سقط فى كتاب فتوح مصر لابن عبد الحكم والنجوم الزاهرة بعد " وصار المسلمون "، كلمة " يراقبونهم "[٣] .

قبول الصلح :

ولما رأى المقوقس ذلك قال لأصحابه : ألم أعلمكم هذا وأخافه عليكم ؛ ما تنتظرون؟ فأذعنوا بالجزية . واستشار عمرو أصحابه فى ذلك .

---

(١) ص ١٠ — ويظهر لى أنه نقل ذلك وصححه عن الواقدى من كتاب فتوح الشام، بالرواية عن ابن اسحاق . وقد ذكرت فيه سنة ٢٠ بدلا من سنة ١٩ ؛ وهو خطأ ظاهر لأن مصر فتحت كما سيجىء فى ٢ من المحرم سنة ٢٠ ؛ وقد ورد فى التوفيقات الإلهامية أن مندوب عمرو بن العاص فى المفاوضة كان قيس بن سعد ، وهو قول مغاير لما جاء فى روايات الفتح ، لأنها نصت على أن المندوب كان عبادة بن الصامت بن قيس بن أحزم الأنصارى الخزرجى ، أبا الوليد ، المتوفى بفلسطين فى سنة أربع وثلاثين . وأما قيس بن سعد الذى ذكر بدلا منه فهو قيس بن سعد بن عبادة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضا ، وقد شهد فتح مصر واختط بها ثم ولى إمرة مصر فى خلافة على بن أبى طالب رضى الله عنه ومات بالمدينة سنة تسع وخمسين .

(٢) فتوح مصر (ليدن) ص ٦٩

(٣) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٢٩٢ ؛ النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٦

فقالوا : لا نجيبهم الى شيء من الصلح ولا الجزية حتى يفتح الله علينا وتصير الأرض كلها لنا فيئا وغنيمة، كما صار لنا القصر وما فيه . فقال : قد علمتم ما عهد الى أمير المؤمنين فى عهده ، فإن أجابوا الى خصلة من الخصال الثلاثة التى عهد الىّ فيها أجبتهم اليها، وقبلت منهم مع ما قد حال هذا الماء بيننا و بين ما نريد من قتالهم[1] .

المعاهـــدة :

فاجتمعوا على عهد بينهم واصطلحوا[2] .

روايه الطبرى :

وذكر الطبرى خبر الفتح والصلح، ومن عادته الإيجاز فى القول فقال : وارتقى الزبير سورها (والضمير عائد على عين شمس والمراد بها الحصن) وقد علمنا مما تقدّم أن العرب كانوا يدعون بابليون عين شمس — فلما أحسوه فتحوا الباب لعمرو وخرجوا اليه مصالحين . فقبل منهم ، ونزل الزبير عليهم عنوة حتى خرج على عمرو من الباب معهم . فتعاقدوا (يعنى ثم تعاهدوا لما أذعن المقوقس وأصحابه) بعد ما أشرفوا على الهلكة ؛ فأجروا (المسلمون) ما أخذوا عنوة (وهو الحصن وما فيه) مجرى ما صالح عليه (عمــرو) فصاروا ذمة . وكان صلحهم :

بسم الله الرحمن الرحيم . هــذا ما أعطى عمرو بن العــاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم و برهم وبحرهم . لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص ولا يساكنهم النوب ؛ وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية اذا اجتمعوا على هــذا الصلح ، وانتهت زيادة نهرهم

(١) فتوح مصر (ليدن) ص ٦٩ و ٧٠ (٢) فتوح مصر (ليدن) ص ٦٩ و ٧٠

خمسين ألف ألف، وعليهم ما جنى لصوتهم (لصوصهم) ، فان أبى أحد منهم أن يجيب دفع عنهم بقدر ذلك ؛ ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوب فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا، عليهم ما عليهم أثلاثا، فى كل ثلث جباية ثلث ما عليهم . على ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمته ، وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين ، وذمم المؤمنين ؛ وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأسا وكذا وكذا فرسا ، على أن لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة . شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه . وكتب وردان وحضر .

فدخل فى ذلك أهل مصر كلهم وقبلوا الصلح . واجتمعت الخيول[1] .

مما تقدّم نعرف أنه لم يكن عن حقيقة قول الدكتور بتلر : ان العرب خلطوا بين بابليون وعين شمس، ونقلوا الحوادث من بابليون الى عين شمس، فقال ابن الأثير : ان قوّاد العرب حاصروا عين شمس وان الزبير تسوّرها، مع أنه انما تسوّر قصر الشمع . والصحيح أن ما فهمه الدكتور بتلر لم يفهمه غيره . لأن ذكر تسوّر الزبير للسور ، سواء فى قول الطبرى ، أو فى قول ابن الأثير لا ينصرف إلا الى « قصر الشمع » . كما يفهم من سياق الكلام .

رواية البلاذرى :

قالوا : وكان الزبير يقاتل من وجه وعمرو بن العاص من وجه فقاتلوهم شهرا ؛ ثم أن الزبير أتى بسلم فصعد عليه حتى أوفى على الحصن وهو مجرّد

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٢٢٩

سيفه فكبر وكبر المسلمون واتبعوه ، ففتح الحصن عنوة واستباح المسلمون ما فيه . وأقر عمرو أهله على أنهم ذمة ، ووضع عليهم الجزية فى رقابهم والخراج فى أرضهم . وكتب بذلك الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأجازه.[1]

هذه الروايات الأربع تتفق على أن الحصن فتح عنوة ، ولا تختلف إلا من جهة الإيجاز والتفصيل، ويتبين ذلك من الفقرات الآتية :

فى رواية ابن عبد الحكم الأولى قوله : فلم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموا جميعا ، فهربوا وعمد الزبير وأصحابه الى باب الحصن ففتحوه واقتحم المسلمون الحصن .

وفى روايته الثانية قوله : فألح المسلمون عند ذلك بالقتال على من بالقصر حتى ظفروا بهم .

وفى رواية الطبرى قوله : وارتقى الزبير سورها ، فلما أحسوه فتحوا الباب لعمرو وخرجوا اليه مصالحين فقبل منهم . ونزل الزبير عليهم عنوة حتى خرج على عمرو من الباب معهم .

وفيه أيضا : فأجروا ما أخذوا عنوة مجرى ما صالح عليه . فصاروا ذمة .

وفى رواية البلاذرى : ففتح الحصن عنوة واستباح المسلمون ما فيه .

ويؤيد فتح الحصن عنوة أيضا قول المسلمين لعمرو — فى رواية ابن عبد الحكم الثانية — : لا نجيبهم الى شىء من الصلح ولا الجزية حتى يفتح الله علينا وتصير الأرض كلها لنا فيئا وغنيمة كما صار لنا القصر وما فيه .

---

(١) فتوح البلدان ص ٢١٥

نقض قول الدكتور بتلر إن المعاهدة لم تشمل عامة أهل مصر من القبط :

ذكرنا المعاهدة وقول الطبرى أن أهل مصر كلهم دخلوا فيها ، ولكن الدكتور بتلر يذهب الى غير ذلك فيقول : ان الصلح الذى أبرم عند بابليون لم يكن الا عهدا حربيا ولم يكن عقدا سياسيا ، فقد رضى عمرو بأن يشترى الحصن ويدفع ثمنا له ، تأمين من كانوا فيه وخروجهم منه بغير أن يسلموا ويدفعوا الجزية ؛ وإنما دفع الجزية من بقى من أهل المدينة . ويقول : "انه من أكبر الخطأ أن يقال أن القبط عامتهم دخلوا فى عهد الصلح الذى كتبه عمرو عند فتح بابليون ، فإن ذلك العهد إنما دخل فيه أهل ذلك الموضع ولا يمس إلا مدينة مصر والحصن . بدليل أن الجزية كانت قليلة ومؤقتة[1]؛ لأنها كانت دينارا لكل من جنود العرب ولباسا ، واذا قلنا ان عدد العرب كان عند ذلك قد نقص الى ١٢٠٠٠ ، أمكن أن نفسر ما ذكره بعض الكتاب أن الجزية قد بلغ قدرها ١٢٠٠٠ دينار" .

وقد بنى هذه الأقوال على حديث لابن وهب[2] جاء فيه ، عن عبد الرحمن ابن شريح : "أن عمرا سار بمن معه حتى نزل على الحصن ، فحاصرهم حتى سألوه أن يسير منهم بضعة عشر أهل بيت ويفتحوا له الحصن ، ففعل ذلك . فعرض عليهم عمرو لكل رجل من أصحابه دينارا وجبة وبرنسا وعمامة وخفين . وسألوه أن يأذن لهم فى أن يهيئوا له ولأصحابه صنيعا ففعل ، وأمر عمرو أصحابه فتهيئوا ولبسوا البرود ، ثم أقبلوا فلما فرغوا من

---

(١) فتح العرب لمصر ص ٢٤١

(٢) عبد الله بن وهب بن مسلم المصرى الفهرى من الأئمة المجتهدين ، توفى سنة ١٩٧ هـ .

طعامهم سألهم عمرو كم أنفقتم ؟ قالوا عشرين ألف دينار . فقال عمرو : لاحاجة لنا بصنيعكم بعد اليوم، أدّوا الينا عشرين ألف دينار[1] " .

ولكن اختياره هذا الحديث لم يوفق فيه ، لأنه حديث ملفق ضمت فيه روايتان معروفتان ، الواحدة الى الأخرى مع البتر والتحريف . وقد يكون عبد الرحمن بن شريح حدث بهما على أصلهما ، ثم نقلتا محرّفتين ولخصتا على الوجه الوارد فى خطط المقريزى كحديث واحد قائم بذاته . وقد قبله الدكتور بتلركما هو، ووصفه بأنه قريب الى الأذهان[2] .

أما الروايتان الأصليتان فهما :

الرواية الأولى : ذكرها البلاذرى بسند مرفوع الى عبد الله بن عمرو ابن العاص، ونتلخص فى أن الزبير لما علا حصن اليونة (بابليون) طلب صاحبها من عمرو أن يعامل اليونة كما عومل أهل الشام بوضع الجزية؛ فوضع على كل حالم دينارين جزية الا أن يكون فقيرا ، وألزم كل ذى أرض مع الدينارين ثلاثة أرادب حنطة، وقسطى زيت، وقسطى عسل، وقسطى خل؛ رزقا للمسلمين تجمع فى " دار الرزق "، وتقسم فيهم . وأحصى المسلمون فألزم جميع أهل مصر لكل رجل منهم جبة صوف، وبرنسا أو عمامة، وسراويل وخفين فى كل عام، أو عدل الجبة الصوف ثوبا قطنيا . وكتب عليهم بذلك كتابا وشرط لهم اذا وفوا بذلك أن لا تباع نساؤهم وأبناؤهم ، ولا يسبوا وأن تقرّ أموالهم وكنوزهم فى أيديهم .

(١) فتوح مصر (ليدن) ص ٦٠ ؛ فتح العرب لمصر ص ٢٤١ هامش ٢ ؛ الخطط للمقريزى ج ١ ص ٢٩٣

(٢) فتح العرب لمصر ص ٢٤١ (٢) .

ثم صولح عمرو عن جميع أهل مصر على مثل صلح اليونة، ووضع الخراج على أرض مصر ؛ فجعل على كل جريب دينارا وثلاثة أرادب طعاما . وعلى رأس كل حالم دينارين[1] .

ومن هذا النص يتبين أن خبر فرض الدينار والملابس الوارد فى حديث عبد الرحمن بن شريح ، منقول عن هذا الحديث مع إغفال الدينارين اللذين فرضا على كل حالم وإسقاط ذكر ضريبة الدينار ، على كل جريب فى أرض مصر، وجعلها فريضة وضعها عمرو لكل رجل من أصحابه .

و يتبين أيضا من الاطلاع على الرواية الثانية، وهى الآتية ، أن حكاية الصنيع الذى نسب عمله الى أهل الحصن مأخوذة منها . وفى ذلك البرهان التام على أن استنتاج الدكتور بتلر باطل، وفى غير محله .

والرواية الثانية : ذكرها الطبرى قال : وبلغ عمرا أنهم (القبط) يقولون : ما أرث العرب وأهون عليهم أنفسهم ، ما رأينا مثلنا دان لهم ؛ فخاف أن يستثيرهم ذلك من أمرهم، فجمع بين القبط والعرب فى ثلاثة أيام . فى اليوم الأول، أكل العرب أكلا عربيا انتشلوا وحَسَوْا وهم فى العباء ولا سلاح . وفى اليوم الثانى، جاءوا فى ثياب أهل مصر وأحذيتهم وأكلوا أكل أهل مصر . وفى اليوم الثالث، تسلحوا وعرضهم عمرو على القبط ؛ ثم قال : إنى قد علمت أنكم رأيتم فى أنفسكم أنكم فى شىء حين رأيتم اقتصاد العرب وهون تزجيتهم ، فأحببت أن أريكم حالهم وكيف كانت فى أرضهم ، ثم حالهم فى أرضكم ، ثم حالهم فى الحرب ، فظفروا بكم وذلك عيشهم ،

---

(١) فتوح البلدان ص ٢١٦ و ٢١٧

وقد كلبوا على بلادكم قبـل أن ينالوا منها ما رأيتم فى اليوم الثانى ؛ فأحببت أن تعلموا أن من رأيتم فى اليوم الثالث غير تارك عيش اليوم الثانى، وراجع الى عيش اليوم الأول، فتفرقوا وهم يقولون لقد رمتكم العرب برجلها (١) .

والبون شاسع بين ما نص عليه فى هذه الرواية ، و بين ما ورد فى حديث عبد الرحمن بن شريح ، فيما يتعلق بالغرض من حكاية الطبرى للخبر . وليس فيـه ما يدل على أن عمرا طلب أن تؤدّى الجزية اليـه بقيمة ما صرف على الصنيع، وهو قول مصدره مجهول وقد انفردت به تلك الرواية .

وفى الحديث نفسه أن ما طلبه عمرو بن العاص جزية بدلا من الصنيع عشرون ألف دينار لا اثنا عشر ألفا ، كما ذكره الدكتور بتلر .

وسنرى أن الروايات المتواترة عن الجزية لم يرد فيها أنها كانت اثنى عشر ألف دينار؛ وأن هـذا الرقم ورد خطأ وفات على الدكتور بتلر ، رغم وضوح هذا الخطأ .

خلاصة ما ورد عن الجزية والخراج :

علمنا ممـا حدث به عبد الله بن عمرو بن العاص، ما استقر عليه الأمر من وضع الخراج على أرض مصر ، على أساس دينار وثلاثة أرادب طعاما، عن كل جريب من الأرض، وديناربن على رأس كل حالم . ولم يعين فى هذا الحديث المجموع السنوى للخراج . وورد فى معاهدة الصلح التى ذكرها الطبرى أنه اشترط على أهـل مصر أن يعطوا الجزية اذا انتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف « درهم » يعنى ما مقداره ثلاثة ملايين وثلث مليون دينار باعتبار الدينار ١٥ درهما ؛ أو مليونان ونصف باعتباره ٢٠ درهما .

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٢٢٩ و ٢٣٠

ومن البديهى أن هذا الرقم لا يدل على مجموع الجباية ، لأنه مبنى على إحصاء تقديرى يحتمل الزيادة والنقص تبعا لموقف أهل البلاد من المعاهدة .

وسنرى أن كثيرا من البلاد والقرى فى الأقاليم ، استلزمت توجيه البعوث إليها .

وقد ذكرت ضريبة الدينارين على كل رجل من قبط مصر ، فى روايتى ابن عبد الحكم ؛ ففى الرواية الأولى ، ذكر فيها ابن عبد الحكم : أن المقوقس لما خاف على نفسه ومن معه ، سأل عمرو بن العاص الصلح ، على أن يفرض للعرب على القبط دينارين على كل رجل منهم ، فأجابه عمرو بن العاص الى ذلك . وفى الرواية الثانية ، قيل ان الصلح تم على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط خاصة ، ديناران على كل نفس ، شريفهم ووضيعهم ، من بلغ منهم الحلم ليس على الشيخ الفانى ، ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ولا على النساء شىء . وعلى أن للمسلمين النزل بجماعتهم حيث نزلوا . ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك ، كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم ؛ وأن لهم أرضهم وأموالهم لا يتعرض لهم فى شىء منها . وأحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الجزية وفرض عليه الديناران . رفع ذلك عرفاؤهم بالأيمان المؤكدة ، فكان جميع من أحصى يومئذ بمصر أعلاها وأسفلها من جميع القبط فيما أحصوا وكتبوا أكثر من ستة آلاف ألف نفس ، فكانت فريضتهم يومئذ اثنى عشر ألف ألف دينار فى كل سنة .(١)

---

(١) فتوح مصر (ليدن) ص ٧٠ ؛ الخطط للمقريزى ج ١ ص ٢٩٣

وهذا الرقم فيه زيادة كبيرة عما ورد فى المعاهدة التى ذكرها الطبرى . ولكن اذا لاحظنا أن ابن عبد الحكم روى أيضا عن ابن لهيعة : أن من أحصوا على دينارين ، بلغت عدتهم ثمانية آلاف ألف[1] ، لا يبقى لدينا شك فى أن هذه الأرقام لم تسلم من تسرب التحريف إليها . ويصعب إقرارها كأنها صحيحة . وقد يكون ما ذكر فى المعاهدة بالنظر الى اعتداله هو الصحيح .

وقد ذكر البلاذرى عن ابن لهيعة نفسه عن يزيد بن أبى حبيب ، أنه قال : جبى عمرو خراج مصر وجزيتها ألفى ألف ، وجباها عبد الله بن سعد ابن أبى سرح ، أربعة آلاف ألف ، فقال عثمان لعمرو : " إن اللقاح بمصر بعدك قد درّت ألبانها " . قال : " ذلك لأنكم أعجفتم أولادها[2] " .

وهنا نستدرك على الدكتور بتلر ما ذهب اليه من أن بعض الكتّاب ذكروا أن الجزية بلغ قدرها ١٢٠٠٠ دينار ، وأنه يفسر ذلك بأن عدد جنود العرب كان قد نقص الى ١٢٠٠٠ رجل وأن فريضة كل منهم كانت دينارا واحدا كما جاء فى حديث ابن وهب[3] . وحقيقة الواقع أن ما قيل عن الجزية إنها كانت ١٢٠٠٠ دينار لم يرد مطلقا عن مؤرخى العرب ، وإنما هو خطأ نشأ من سقوط لفظ «ألف» من عبارة ابن عبد الحكم فى الرواية الثانية التى نصها : " وكان جميع من أحصى يومئذ بمصر أعلاها وأسفلها من جميع القبط فيما أحصوا وكتبوا أكثر من ستة آلاف ألف نفس ، فكانت فريضتهم يومئذ اثنى عشر ألف ألف دينار فى كل سنة[4] " . فصار الرقم الأول ستة آلاف نفس والآخر اثنى عشر ألفا .

(١) فتوح مصر (ليدن) ص ٧٠ الخطط للمقريزى ، ج ١ ص ٢٩٣
(٢) فتوح البلدان ص ٢١٧ (٣) فتح العرب لمصر ص ٢٤١ (٢) .
(٤) فتوح مصر (ليدن) ص ٧٠

وقد لاحظت وقوع مثل ذلك فى النسخة المطبوعة بدار الكتب المصرية من كتاب « النجوم الزاهرة » فى رواية ابن عبد الحكم[١] . ولا يبعد أن يكون الأصل الذى طبعت منه هذه النسخة به هذا الخطأ ومنه نقل الدكتور بتلر .

ومع أن هذه العبارة واردة بنصها الصحيح فى فتوح مصر لابن عبد الحكم ، وخطط المقريزى ، وحسن المحاضرة للسيوطى ، فلم يفكر فى تصحيحها فى طبع كتاب « النجوم الزاهرة » فدرجت العبارة بخطئها فى المتن ، وعلق عليها بهذه الجملة " وهو قول مردود ، لأن القبط كانوا كما لا يخفى يكونون السواد الأعظم من السكان[٢] " . ولو رد اللفظ الساقط وهو « ألف » إلى موضعه لأغنى عن هذا الشرح .

تفنيد بعض مزاعم الدكتور بتلر :

ومن الغريب أن ينسب الدكتور بتلر الى الطبرى ما لم يقله ، ويجرى فى كتابة التاريخ على طريقة كتاب الروايات التى يتفكه الناس بقراءتها .

ويظهر ذلك جليا من مقارنة الفقرات الآتية التى نسبها الى الطبرى بما جاء فى أقوال هذا المؤرخ :

" ووضع الزبير سلما على السور ولم يفطن اليه أحد ... وتحامل اليه الناس من داخل الحصن ... فاجتمع كبارهم على عجل فى أول الصباح الباكر ، فسألوا عمرا الصلح ، وعرض (جورج) قائد الجند فى الحصن أن يسلم على أن يأمن كل من هناك من الجند على أنفسهم ، فقبل عمرو منهم الصلح ، وخالفه الزبير خلافا شديدا فى ذلك وقال له : إنه كان على وشك أن يفتح

(١) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٨ (٢) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٨ (١) .

الحصن عنوة" ، وقال : "لو صبرت قليلا ، لنزلت من السور الى داخل الحصن ، ولكان الأمر على ما نشتهى" . ولكن عمرًا لم يلتفت الى ما قاله وكتب عهد الصلح ، على أن يخرج الجند من الحصن فى ثلاثة أيام فينزلوا بالنهر ، ويحملوا ما يلزم لهم من القوت لبضعة أيام . وأما الحصن وما فيه من الذخائر وآلات الحرب فيأخذ العرب كل ذلك ، ويدفع أهل المدينة للسلمين الجزية[1] .

وقال فى ذيل الصفحة ٢٣٨ من كتابه « فتح العرب لمصر » : "الرواية التى ذكرناها هنا مأخوذة عن الطبرى وأنها لواضحة وقريبة الى الذهن فلسنا نتردّد فى قبولها ، ولو أن ذلك المؤرخ قد خلط فى كثير من أخبار الفتح" .

وهو قول مختلق لم يقله الطبرى ؛ وما قاله لم يخلط فيه . وقد مرت علينا روايته بنصها ولا أثر فيها للخلاف بين الزبير وعمرو . ومن الغريب أن يكون هذا الكلام لبتلر لا للطبرى ، ثم يقول أنه لا يتردّد فى قبوله .

وللقارئ بعد ذلك أن يقدر قوله : "كان من أصعب الأمور أن تؤلف قصة لفتح بابليون ، فإن خبر صعود الزبير أسوار الحصن جاءت أوّلا من ابن عبد الحكم ، ولكن مؤرّخى العرب غيروا وبدلوا حتى خرجوا بها الى حد السخف"[2] .

ومما نسبه الى الطبرى ، أنه يقول[3] : (١) ان وقعة عين شمس كانت بعد فتح حصن بابليون . وهو غير صحيح لأن الطبرى لم يقل ذلك ؛ (٢) ان

---

(١) جئنا بهذه الحكاية ملخصة لتجنب التطويل . راجع ص ٢٣٦ — ٢٣٨ من فتح العرب لمصر . (٢) الكتاب قبله ص ٢٣٨ (١) . (٣) فتح العرب لمصر ص ٢٠٣ (٣)

المقوقس كان مع جيش القبط فى عين شمس، وقد أزمع السير الى مصر. وهو أيضا غير صحيح، لأن المقوقس لم يذكر اسمه فى الطبرى إلا فى روايتين سبق لنا ذكرهما . الرواية الأولى جاء فيها : أن عمرا انتهى الى بابليون واتبعه الزبير فاجتمعا والتق بهما أبو مريم وأبو مريام، وقد بعثهما المقوقس، وبعد مفاوضتهما مع عمرو رجعا الى المقوقس . وأعقب ذلك مفاجأة المسلمين بالبيات وانكسار الروم، وتقدّم عمرو والزبير لعين شمس أى لحصن بابليون. الرواية الثانية : جاء فيها أن عَمْرًا والمقوقس التقيا بعين شمس ، واقتتلت "خيلاهما". وفى هاتين الروايتين لم يقصد الطبرى موقع عين شمس الحقيق، وإنما المقصود فى الرواية الأولى حصن بابليون حيث كان جمع القوم . وفى الرواية الثانية المكان الذى التحم فيه جيشا عمرو والمقوقس فى القتال فيما بين الحصن وأم دنين . وقد بينا فيما تقدّم أن العرب كانوا يعدون من عين شمس موقعها الحقيق وما يليه من الأماكن الى بابليون بما فيه حصنها المعروف بقصر الشمع حيث كان جمع القوم . ولا ينكر الدكتور بتلر ذلك لأنه قال : "قد كانت هليوبوليس قديما تغطى مساحة أكبر مما يمكن تصوّره اليوم ، وهذا واضح ليس فقط من الأطلال الباقية بل من شهادة ابن دقماق إذ يقول عن عين شمس : "انها كانت فى قديم الزمان عظيمة الطول والعرض، متصلة البناء بمصر القديمة ، حيث مدينة الفسطاط[1]" . ولكنه رغم هذا الاعتراف، يذهب الى تفسير مقال الطبرى على ذلك الوجه المخالف . وليس المقصود من قول الطبرى : إن عمرا والمقوقس التقيا بعين شمس ، أنهما وجدا فى صفوف القتال جميعا ، وإنما كان المقصود تلاقى الجيشين .

---

(١) فتح العرب لمصر ص ٢٠٣ (٢) .

وقد ذكر صاحب الرواية اسميهما كناية عن ذلك وهو يتوخى الإيجاز . و يدرك ذلك كل من له إلمـام بسيط بقواعد لغـة العرب ؛ (٣) أن جيش القبط تشتت عنـد أول صدمة وخسر عددا عظيما بين قتيل وأسير . وهو قول غير صحيح كسابقيه ، لأن الطبرى كما كررنا قوله مرة بعد أخرى لم يذكر ، كغيره من مؤرخى العرب ، وجود جيش للقبط اشترك فى القتال الى نهاية هذه الوقعة . (٤) ان العرب غنموا غنيمة عظيمة وأرسلوا الأسرى الى المدينة . وهـذا القول صحيح لأنه جاء فى الطبرى فى رواية أبى حارثة وأبى عثمان ، بعد الانتهاء من خبر فتح الحصن بمناسـبة ظهور أبى مريم وأبى مريام ، والتماسهما من عمرو النظـر فى أمر السبايا التى أصيبت بعد حادثة البيات التى فوجئ بها عمرو كما يأتى[1] .

و يظهر أن بتـلر أحس بضعف حجتـه فقال : " انه من الإسراف أن نكذب خبرا مثل هذا الخبر المفصل ... ولكن يظهر لنا أن الطبرى أخطأ خطأ فى وصف البلاد ، فإن وصفه للوقعة صحيح ، ولكنها لم تكن وقعة عين شمس[2] " . وقد فاته أن الطبرى لم يقل أن الأسرى أخذوا فى الوقعة التى سماها هو وقعة عين شمس و إنمـا كان كلامه عن الأسرى بعد الانتهاء من جميع الوقائع التى حدثت من وقت انتهاء عمرو من وقعة أم دنين الى ما بعـد أخذ الحصن . و يكون الخطأ اذا راجعا الى اسـتنتاجه لا الى الطبرى ؛ لأنه حمل أقـوال الطبرى على وقعة واحدة ، كما يتبين من مراجعة تلك الأقوال التى شرحناها شرحا وافيا .

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ١ ص ٢٢٩

(٢) فتح العرب لمصر ص ٢٠٤ السطر الأول بذيل الصفحة .

وزاد على ما تقدّم : " أن الطبرى نفسه يكشف عن خطئه بوصفه عين شمس بأنها كانت مدينة عظيمة فى بلاد القبط وأنها واقعة الى الغرب ، وهو ما لم يرد مطلقا فى البـاب الذى أفرده الطبرى لفتح مصر بعنوان « ذكر الخبر عن فتحها وفتح الإسكندرية» . فهو ادّعاء من الغرابة بمكان ، وأشدّ منه غرابة قول الدكتور بتلر : " وقد كان الطبرى غريبا عن مصر لا يعرف كثيرا من وصف بلدانها " . ثم قوله فى موضع آخر : ولكنه زارها[١] .

وعند نقل خبر الوليمة التى تقدّم ذكرها قال : " قد بقى فى مصر بعد فتح الحصن جماعة كبيرة من جنود القبط"[٢] .

ونسب هذا القول أيضا الى الطبرى وقال : " انه عندما يذكر الجنود القبط يظن أنه يقصد المصريين الذين كانوا فى الجيش الرومانى، وهم كتيبة (الحرس الوطنى)[٣]، مع أن الطبرى فى هـذا أيضا، لم يذكر جنودا من القبط ولا من الروم . وإنما قال بعد أن انتهى من خبر الصلح : "وحضرت القبط باب عمرو" ثم ذكر حكاية الوليمة.

اشتراط الخيار للروم فى الصلح حتى يخاطب المقوقس هرقل :

قيل : واشترط المقوقس أن له الخيار فى الروم خاصة حتى يكتب الى ملك الروم يعلمه بما فعل، فإن قبل ذلك ورضيه جاز عليهم، وإلا كانوا جميعا على ما كانوا عليه[٤] .

---

(١) فتح العرب لمصر ص ٢٠٤ (٢) وص ٤٥١ (٢) فتح العرب لمصر ص ٢٤١

(٣) فتح العرب لمصر ص ٢٤١ (٣) . (٤) فتوح مصر (ليدن) ص ٧١

سعى أبى مريم وأبى مريام فى السبى — حكم أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه :

وظهر أبو مريم وأبو مريام، فكلما عمْرًا فى السبايا التى أصيبت بعد المعركة فقال : أَوَ لَهُمْ عهد وعقد؟ ألم نحالفكما، و يغار علينا من يومكما ؟ وطردهما ، فرجعا وهما يقولان : كل شيء أصبتموه الى أن نرجع اليكم ففى ذمة منكم ، فقال لهم : أتغيرون علينا وهم فى ذمة ؟ قالا : نعم . وقسم عمرو ذلك السبى على الناس، وتوزعوه ؛ ووقع فى بلدان العرب . وقدم البشير على عمر بعد بالأخماس ، و بعث الوفود، فسألهم عمر، فما زالوا يخبرونه حتى مروا بحديث الجاثليق وصاحبه ، فقال : ألا أراهما يبصران وأنتم تجاهلون ولا تبصرون . من قاتلكم فلا أمان له ، ومن لم يقاتلكم فأصابه منكم شيء من أهل القرى فله الأمان فى الأيام الخمسة حتى تنصرم . و بعث فى الآفاق حتى رُدَّ ذلك السبى الذى سبوا ممن لم يقاتل فى الأيام الخمسة، إلا من قاتل بعد؛ فترادُّوهم، إلا ما كان من ذلك الضرب (١) .

والمتبادر أن الروم والقبط والنوب انقسموا الى فريقين : فريق مال الى الصلح، وهم القبط أهل مصر والنوب، وفريق امتنع عنه أو علق أمره على قبول هرقل وهم الروم . وهكذا بقى هؤلاء خارج الصلح .

نفى ما قيل من أن المقوقس انما صالح عمرا لما فتح الإسكندرية :

هذا القول يخالف ما تضمنه حديث الفتح فى كل الروايات . وقد ورد فى «فتوح مصر لابن عبد الحكم» ، ونقله المقريزى فى الفصل الذى عنوانه

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٢٢٩

« ذكر فتح الإسكندرية» ونصه : "ويقال : إن المقوقس إنما صالح عمرو ابن العاص على الروم وهو محاصر الإسكندرية . حدّثنا يحيى بن خالد العدوى عن الليث بن سعد أن عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية حاصر أهلها ثلاثة أشهر وألح عليهم وخافوه وسأله المقوقس الصلح عنهم كما صالحه على القبط ، على أن يستنظر رأى الملك . قال : فحدّثنا عبد الله بن صالح ، حدّثنا الليث ابن سعد عن يزيد ابن أبى حبيب ، أن المقوقس الرومى الذى كان ملكا على مصر صالح عمرو بن العاص على أن يسير من الروم من أراد المسير ، ويقرّ من أراد الإقامة من الروم على أمر قد سماه ، فبلغ ذلك هرقل ملك الروم ، فتسخط أشد التسخط وأنكره أشد الإنكار ، وبعث الجيوش فأغلقوا الاسكندرية وآذنوا عمرو بن العاص بالحرب ، فخرج اليه المقوقس ، فقال : أسألك ثلاثا . قال : ما هى؟ . قال : لا تبذل للروم ما بذلت لى فإنى قد نصحت لهم فاستغشوا نصحى ؛ ولا تنقض بالقبط فان النقض لم يأت من قبلهم ، وأن تأمر بى اذا مت فادفنى فى أبى يحنس . فقال عمرو : هذه أهونهنّ علينا ... " قال : فخرج عمرو بالمسلمين حين أمكنهم الخروج ..."(١).

ومن هذا يتبين أن ما رواه ابن عبد الحكم ، خبران يلى أحدهما الآخر ؛ قيل فى الأول منهما : إن عمرا والمقوقس تصالحا لما فتحت الإسكندرية ؛ وإن هذا الصلح كان خاصا بأهلها . أما الخبر الثانى ، فقيل فيه : إن الصلح بين عمرو والمقوقس حصل قبل الخروج الى الإسكندرية يعنى ببابليون ، وهو تعقيب صحح به ابن عبد الحكم الخبر الأوّل بدليل قوله : "فحدّثنا عبد الله بن صالح ، حدّثنا ..." ثم النص فيه على أن صلح بابليون شمل الروم

(١) فتوح مصر طبع ليدن ص ٧٢ و ٧٣

وأن المقوقس كان قبيل فتح الإسكندرية محرّضا على الروم لرفض هرقل ، لا طرفا ثانيا فى الصلح عن أهلها .

والظاهر أن الدكتور بتلر لم يدرك تماما ما عناه ابن عبد الحكم برواية الخبرين السابقين ، مع تعقيبه على الخبر الأوّل فقال : " نعلم أن هرقل أبى ذلك الصلح ، وقد ذكر مؤرّخو العرب ذلك ولكنهم يذكرونه عند فتح الإسكندرية . وهذا خطأ منهم لأسباب : (١) إن هرقل كان قد مات عندما فتحت الإسكندرية ؛ (٢) إن صلح الإسكندرية كان عن أمر الملك الحاكم عند ذلك " .

أما التخطئة بالسبب الأوّل فلا محل لها لأن مؤرّخى العرب لم يتكلموا عند (ذكر فتح الإسكندرية) عن سخط هرقل ، على ما تم عليه الصلح بين عمرو والمقوقس ببابليون إلا لتصحيح الخبر الذى قيل فيه : ان الصلح بينهما كان عند فتح الإسكندرية كما قلنا ، وكذلك لا محل لما عناه بالسبب الثانى ؛ لأن العرب لم يقولوا ان صلح الاسكندرية كان بأمر هرقل أو عن يد المقوقس ، مما يتنافى مع زعم أنه كان عن أمر الملك الحاكم وقتئذ .

وقد لاحظت ، أن مالم يفطن اليه الدكتور بتلر عن المقصود بالرواية التى ذكرها ابن عبد الحكم وعقب عليها ، لم يصحح عند نشر كتاب « النجوم الزاهرة » لتغرى بردى بدار الكتب المصرية ، فقد ورد فى ذيل الصفحة ١٨ من الجزء الأول من هذا الكتاب ، تعليق عن مقدار الجزية التى فرضت على أهل مصر عند الفتح بعد الإحصاء الذى عمل ، قيل فيه : " ان هذا منقوض بالبداهة التى تؤيدها رواية لابن عبد الحكم نقلها

المقريزى ، فى « فتح الإسكندرية » : ان عمرو بن العاص، انما صالح المقوقس لما فتح الإسكندرية، وهكذا قال الطبرى وابن خلدون " .

وهذا القول خطأ ترتب على الحديث الذى ذكره ابن عبد الحكم ثم صححه كما بينا . أما الطبرى فلم يقل : " ان المقوقس صالح عمرا لما فتح الإسكندرية، فإن ما أورده هذا المؤرخ الكبير ينحصر فى ثلاث روايات : الأولى مسندة الى زياد بن جَزْء الزُّبيدى ، وكان فى جند عمرو بن العاص . وقد بدأ روايته بقوله : لما افتتحنا باب اليون تدنينا قرى الريف فيما بيننا وبين الإسكندرية قرية فقرية ، حتى انتهينا الى بلهيب [1] أرسل صاحب الإسكندرية، — ولم يقل انه المقوقس — الى عمرو يعرض عليه الصلح، وبعدأن فصل ماتم بين الفريقين قال: ثم فتحت لنا الإسكندرية فدخلناها [2] .

الرواية الثانية : مسندة الى خالد وعبادة ، وقد ذكرا فيها مسير عمرو من بدئه الى أن انتهى الى بابليون ، وما حصل بينه وبين جاثليق مصر وأسقفها فبرالبيات كما فصلناه [3] . ولا علاقة لهذه الوقائع بالإسكندرية، بل انها قاصرة على فتح مصر، قبل زحف عمرو الى الإسكندرية .

والرواية الثالثة: مسندة الى أبى حارثة وأبى عثمان، وقد ذكرا فيها نزول عمرو بعين شمس (بابليون) واقتحام الزبير للحصن وفتحه، والتعاقد مع أهل مصر عقب فتح الحصن ليس إلا [4] .

---

(١) مكانها اليوم فزارة احدى قرى مركز المحمودية بمديرية البحيرة . راجع معجم البلدان ج ٢ ص ٢٨١ و٢٨٢

(٢) تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٢٢٦ و ٢٢٧

(٣) تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٢٢٨ و ٢٢٩

(٤) تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٢٢٩

وقد بينا أن التعاقد الذى تم عقب المفاوضة مع المقوقس، وضع مبدئياً لتنفيذه على أهل مصر من القبط، ومن يقبله من الروم؛ فكان تعاقداً عاماً. وبعبارة واضحة، برنامجاً شاملاً لما تقرر بالاتفاق معاملة جميع أهل مصر به فى المستقبل.

ولم يرد فيما ذكره مؤرخو المسلمين أن المقوقس صالح عمراً لما فتح الإسكندرية بل قالوا: انه لما صالح عمراً عقيب فتح مصر، أسخط ذلك هرقل، فبعث جيوشاً الى الإسكندرية آذنت عمراً بالحرب[1]، أما المقوقس فما تحرك ولا نكث[2].

وما قاله ابن خلدون مكتوب بالإيجاز، وهو عين ما ذكره الطبرى؛ فقد فصل بين فتح مصر وبين فتح الإسكندرية التى قال فيها: انها فتحت عنوة[3]. وقد جاء فى كلامه على نزول عمرو بن العاص بعين شمس قوله: وهى "المطرية"، وهو توضيح غير موجود فى رواية الطبرى. ولا شك فى أنه حشو طارئ. وقد لخص ابن الأثير الرواية نفسها ولم يذكر المطرية؛ ويكاد يكون تلخيصه هو الذى نقل عنه ابن خلدون مع شىء من التصرف فى الألفاظ.

بعض تفاصيل عن الجزية فى عهد أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه — المكاتبات المنسوبة الى عمر وعمرو بخصوص الابطاء فى توريدها:

تبين مما تقدّم أنه لما فتحت مصر وصالح عمرو القبط، وضعت الجزية على الرؤوس بالتراضى بين الطرفين، وأعفى منها من كانوا يعتنقون الإسلام.

(١) فتوح مصر طبع ليدن ص ٧١ (٢) فتوح مصر طبع ليدن ص ٢٧٠

(٣) كتاب العبر بقية الجزء الثانى ص ١١٤ و ١١٥؛ الكامل ج ٢ ص ٢٧٨

و يؤخذ مما روى عن يزيد بن أسلم أن عمر رضى الله عنه، كان يأخذ من صالحه من المعاهدين ما سمى على نفسه، لا يضع من ذلك شيئا ولا يزيد عليه . ومن نزل منهم على الجزية ولم يسم شيئا يؤدّيه، نظر عمر فى أمره، فاذا احتاجوا خفف عنهم، واذا استغنوا زاد عليهم بقدر استغنائهم.[1]

قال : وكتب عمر الى أمراء الأجناد : ألا يضربوا الجزية الا على من جرت عليه الموسى؛ وجزيتهم أربعون درهما على أهل الورق (الفضة) وأربعة دنانير على أهل الذهب؛ وعليهم من أرزاق المسلمين من الحنطة والزيت مدان[2] من حنطة، وثلاثة أقساط من زيت فى كل شهر، لكل إنسان من أهل الشام والجزيرة؛ ومقدار معين من ودك (وهو الشحم والسمن) وعسل . ومن كان من أهل مصر، فأردب فى كل شهر غير الودك والعسل . وعليهم من البز الكسوة التى يكسوها أمير المؤمنين الناس، وضيافة من ينزل بهم من أهل الإسلام ثلاث ليال[3] .

ولما استوثق الأمر لعمرو أقر القبط على جباية الروم . وكانت جبايتهم بالتعديل، اذا عمرت القرية وكثر أهلها زيد عليهم؛ وان قل أهلها وخربت نقصوا . وكان عرافو القرى وأمراؤها ورؤساء أهلها يجتمعون و يتناظرون فى تقدير ما يجبى بنسبة احتمال القرى، وسعة المزارع . وكانوا يخصصون من

---

(١) الخطط للقريزى ج ١ ص ٧٧ (٢) المد ربع الصاع الذى هو مكيال أهل المدينة الذى تدور عليه أحكام المسلمين . وكل مد رطل وثلث . والرطل اثنتا عشرة أوقية والأوقية أربعون درهما . ومعيار الصاع الذى لا يختلف أربع حفنات بكفى الرجل الذى ليس بعظيم الكفين ولا صغيرهما إذ ليس كل مكان يوجد فيه صاع النبي صلى الله عليه وسلم . ذكره الداودى . وقال الفيروزبادى : وجربت ذلك فوجدته صحيحا . (المخصص ج ١٢ ص ٢٦٤؛ القاموس المحيط ج ٣ ص ٥١) .

(٣) فتوح مصر (ليدن) ص ١٥٢

الأرض فدادين ينفق ريعها فى اصلاح أحوالها وأبنيتها كالكنائس والحمامات .
وكانوا يقدرون مايفرض لضيافة العرب ونزول السلطان [١]، والمراد به الحاكم .

قال ابن عبد الحكم : وكان عمرو بن العاص رضى الله عنه يبعث الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالجزية بعد حبس ما كان يحتاج اليه [٢] .

واستبطأ عمر الخراج من قبل عمرو فكتب اليه "... أما بعد فإنى فكرت فى أمرك والذى أنت عليه، فاذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة، وقد أعطى الله أهلها عددا وجلدا وقوّة فى بر وبحر، وانها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملا محكما، مع شدة عتوّهم وكفرهم، فعجبت من ذلك وأعجب مما عجبت أنها لا تؤدّى نصف ما كانت تؤدّيه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جدوب . ولقد أكثرتُ فى مكاتبتك فى الذى على أرضك من الخراج وظننتُ أن ذلك سيأتينا على غير نزر، و رجوت أن تفيق فترفع الى ذلك، فاذا أنت تأتينى بمعاريض تعبأ بها [٣]، لاتوافق الذى فى نفسى . لست قابلا منك دون الذى كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك . ولست أدرى مع ذلك ماالذى نفرك من كتابى وقبضك ؛ فلئن كنت مجزئا كافئا صحيحا ان البراءة لنافعة . وان كنت مضيعا نطعًا، ان الأمر لعلى غير ماتحدّث به نفسك، وقد تركت أن أبتلى ذلك منك فى العام الماضى ، رجاء أن تفيق فترفع الى ذلك . وقد علمت أنه لم يمنعك من ذلك إلا أن عمالك عمال السوء وما توالس عليك وتلفف، اتخذوك كهفا، وعندى باذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك

(١) فتوح مصر، (ليدن) ص ١٥٢ و ١٥٣ ، وقد لخصناه .

(٢) فتوح مصر (ليدن) ص ١٥١

(٣) فى نسخة فتوح مصر (ليدن) تغتالها والذى دوّناه عن خطط المقريزى ، أول ص ٧٨

فيه، فلا تجـزع أبا عبد الله أن يؤخذ منك الحق وتعطاه . فان النهر يخرج الدر والحق أبلج، ودعنى وما عنه تلجلج؛ فانه قد برح الخفاء والسلام .

فكتب اليه عمرو بن العاص :

"بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عمر أمير المؤمنين، من عمرو بن العاص . سـلام الله عليك، فإنى أحمد الله الذى لا إله الا هو . أما بعد : فقد بلغنى كتابك أمير المؤمنين فى الذى استبطأنى فيه من الخراج، والذى ذكر فيها من عمل الفراعنة قبلى، وإعجابه من خراجها على أيديهم ونقص ذلك منها مذ كان الإسلام . ولعمرى للخراج يومئـذ أوفر وأكثر والأرض أعمر، لأنهم كانوا على كفرهم وعتوهم أرغب فى عمارة أرضهم منا مذ كان الاسلام . وذكرت أن النهر يخرج الدر فحلبتها حلبا قطع درها . وأكثرت فى كتابك وأنبت وعرضت وتربت[1] . وعلمت أن ذلك عن شيء تخفيـه على غير خبر، فجئت لعمرى بالمقطعات[2] المقذعات، ولقد كان لك فيه من الصواب من القول، رصين صارم، بليغ صادق ؛ ولقد عملنا لرسـول الله صلى الله عليه وسلم ولمن بعده، فكنا بحمد الله مؤدين لأماناتنا؛ حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا، نرى غير ذلك قبيحا والعمل به شيئا[3]، فتعرف ذلك لنا وتصدق فيـه قلبنا . معـاذ الله من تلك الطعم ومن شر الشـيم والاجتراء على كل مأثم . فاقبض عملك فان الله قد نزهنى عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها ، بعد كتابك الذى لم تستبق فيه عرضا، ولم تكرم فيـه أخا . والله يا ابن الخطاب لأنا حين يراد

---

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم (ليدن)، ص١٥٩ و ١٦٠ وقد ورد فيه : وثربت .

(٢) فى فتوح مصر لابن عبد الحكم (ليدن) بالمقطعات .

(٣) فى الكتاب السابق، والعمل فيه سيئا .

ذلك منى غضبا أشد لنفسى ولها إنزاها وإكراما ، وما عملت من عمل أرى على فيه متعلقا ، ولكنى حفظت مالم تحفظ . ولو كنت من يهود يثرب مازدت . يغفر الله لك ولنا . وسكت عن أشياء كنت بها عالما . وكان اللسان بها منى ذلولا ولكن الله عظم من حقك ما لا يجهل والسلام" .

وردّ عمر رضى الله عنه على ذلك بقوله : أما بعد فانى قد عجبت من كثرة كتبى اليك فى ابطائك بالخراج، وكتابك الى بثنيات[1] الطرق ، وقد علمت أنى لست أرضى منك الا بالحق البين ، ولم أقدمك الى مصر أجعلها لك طعمة ولا لقومك . ولكنى وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك؛ فاذا أتاك كتابى هذا فاحمل الخراج، فانما هو فىء المسلمين، وعندى من قد تعلم قوم محصورون والسلام" .

فكتب اليه عمرو بن العاص" ... أتانى كتاب أمير المؤمنين يستبطئنى فى الخراج ويزعم أنى أحيد[2] عن الحق ، وأنكب عن الطريق . وانى والله ما أرغب عن صالح ما تعلم ، ولكن أهل الأرض استنظرونى الى أن تدرك غلتهم ، فنظرت للسلمين ، فكان الرفق بهم خيرا من أن نخرق بهم فيصيروا الى بيع ما لا غنى بهم عنه والسلام" .

وقد استخلص الدكتور بتلر من هذه المراسلة أن عمرو بن العاص كان فى أول حكمه لا يقصد الا العدل والرأفة بأهل البلاد . ولكن الخليفة لم يوافقه ولم يجزه الا هوانا وجحودا، بعد أن ملأ عمرو خزائنه

---

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم، (ليدن) ص ١٥٩ و ١٦٠ وقد ورد فيه : بينيات .

(٢) ابن عبد الحكم (ليدن) ص ١٦٠ وفى هذه الطبعة أعند بدلا من أحيد .

بما كان يصدره اليه من قمح مصر وذهبها، ومدّ سلطان العرب فى أرجاء البلاد[١] .

وقال : " انه لا يشك فى صحة تلك المكاتبات وانها تظهر جليا ما كان عليه الرجلان فى صلتهما الواحد بالآخر وان عمر لم يكن يشعر برحمة فى جباية الأموال، وانه اتهم عمرا بالخيانة والتفريط، مع أنه كان يدافع عن المصريين، وان الأولى بالاتهام بالحرص هو عمر، فانه اذا قال : المسلمين، لم يقصد الا نفسه وتلك الفئة القليلة التى كانت معه فى مكة[٢]" .

ولسنا بحاجة الى المحاجة فيما يقال فى عمر؛ لأن شخصية عمر وسموّ مقامه لا تنال منهما أقوال من هذا القبيل .

وها هو ذا جورجى زيدان رجل من عصرنا من غير المسلمين، له اطلاع وعلم بتاريخ المدنية الاسلامية يقول : " وأخبار[٣] عمر بن الخطاب، بالطهر والنزاهة أشهر من أن تذكر . ويقال بالإجمال : انه هو مؤسس دولة المسلمين وقد أسسها على أمتن دعائم الملك ... أسسها على العدل والتقوى والزهد والاستهلاك فى نصرة الحق، مما يندر اجتماعه فى رجل واحد؛ وقد يوهم لغرابته أنه من قبيل المبالغة . ويسهل علينا التصديق به، اذا تذكرنا النتائج التى ترتبت على تلك المناقب مما لا يسمع بمثله فى التاريخ — يكفى منها تلك الفتوح التى جعلت الأموال تنصب نحو بيت المال فى المدينة كما ينصب الماء من الميازيب . وعمر مع ذلك لا يلتفت اليها ولا يأخذ منها إلا ما فرضه لنفسه كسائر الصحابة الأوّلين .

(١) فتح العرب لمصر ص ٣٩٦ و ٣٩٧ و ٣٩٩ (٢) فتح العرب لمصر ص ٣٩٩ و ٤٠٠ (٣) تاريخ التمدن الإسلامى ج ٣ ص ١٣

وكان اذا احتاج الى ما فوق راتبه، جاء الى صاحب بيت المـال فاستقرضه حتى يفيه إياه من عطائه فيما بعد . ولمـا طعن وأحس بدنو الأجل، قال لابنه : "انى استلفت من بيت مال المسلمين ثمانين ألفا، فليردّ من مال ولدى، فان لم يف مالهم فمال آل الخطاب"[1] . وزهده فى الطعام واللباس مشهور .

وإذا دلت أقوال بتلر على شيء، فإنهـا تدل على أن ما أظهره قائلها من النقص فى فهم أخبار فتح مصر، وقد تعرّض لنقدها هو دون ما يجهله من سيرة الخلفاء الراشدين . ومن حقنا أن نبين أن عجزه من هذه الجهة لم يكن قائمـا على أسباب يلتمس له العـذر فيها ، كالقصور مثـلا فى فهم اللغـة العربية، وانما كان ديدنه الاعتماد على التراجم المشوّهة والتأويلات الموضوعة بقصد وغرض . ومن الدلائل على ذلك ما لاحظه حضرة الأستاذ الفاضل معرّب كتابه بالذات ، فقـد استدرك عليـه فى سياق الكلام عن « الحكم الإسـلامى » من كتابه ، أنه اقتضب من المكاتبات التى ذكرناها واعتمد عليهـا جملا تنقص المعنى . مثاله فى كتاب عمر الأوّل، أغفل فيه من النص "فلا تجزع أبا عبد الله أن يؤخذ منك الحق وتعطاه" . وفى الكتاب الثانى أهمل منه صدره ونصه : "أما بعـد، فانى قد عجبت من كثرة كتبى اليك فى إبطائك بالخراج وكتابك الىّ بثنيات الطرق، وقد علمت أنى لست أرضى منك إلا بالحق البين" . وفى الواقع تنطوى هاتان الجملتان على بيـان ما كان

---

(١) هذه القصة نسبت الى أبى بكر رضى الله عنه ورواها مالك على غير هـذا الوجه . قال ابن القاسم : قلت لمـالك : فأين قولهم عن عمر انه رد ثمانين ألفا؟ قال : كذبوا انما يقول هذا أعداء الله؛ هو لم يجز لولده سلف أبى موسى إياه حين أخذ منه نصفه، فكيف يأخذ من مال الله ثمانين ألفا ! الطرطوشى : سراج الملوك (بولاق) ص ١٣٠ ، وقد أورد الامام البخارى هذا الخبر فيما بعد فى صحيحه تحت عنوان "باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان بن عفان" ج ٢ ص ١٨٤

يطلبه أمير المؤمنين عمر ، وهو الحق ليس إلا ، المقرر تحصيله . وأن سبب الطلب هو الإبطاء فى حمل الخراج رغم تكرار الحث على إرساله . ولا حرج على عمر فى المطالبة بذلك ، فلم يكن هو الذى يتهاون فى استيفاء حقوق الأمة .

وقد أورد بتلر عن حنا النقيوسى ، وقد وصفه بأنه كان لا يتورّع عن أن يصف الإسلام بأشنع الأوصاف ويتهم من دخلوا فيه بأشد التهم ، أنه قال عن عمرو : " انه قد تشدّد فى جباية الضرائب التى وقع الاتفاق عليها ولكنه لم يضع يده على شىء من ملك الكنائس ، ولم يرتكب شيئا من النهب والغصب بل انه حفظ الكنائس وحماها الى آخر مدّة حياته[1] " .

ومعنى ذلك أن عمراً كان يعمل كعمر ، فلا يتسامح فى تحصيل ما وقع الاتفاق عليه من الخراج لارتباطه بمصالح الدولة . وقد كان عمر صاحب الولاية والرقابة فى أمر الجزية والخراج . وكان أول من حدّد مقدار ذلك ، وقد كان التقدير قبله بحسب الأحوال ، وعلى ما يتقرر بالتراضى بين المسلمين وبين الفريق المعاهد . وليس فى المكاتبات ما يشعر بأن عمر قصد إرهاق المصريين بما لا طاقة لهم به ، أو مال الى خرق الاتفاق . وانما كان الطلب والرد دائرين على حمل ما هو مقرر والانتظار ريثما تدرك الغلة . وهذا كله واضح فى قول عمر : " فاذا أتاك كتابى فاحمل الخراج " ، وفى قول عمرو : " أتانى كتاب أمير المؤمنين يستبطئنى فى الخراج " .

وقد أغفل الدكتور بتلر أن يدرج الرد المنسوب الى عمرو بنصه .

وكأنه من وجه آخر شعر بأن هذه المكاتبات قد تثير ارتيابا بالنظر الى اللهجة المكتوبة بها فقال : انه لا يشك فى صحتها . وقد رآها ابن عبد الحكم

(١) فتح العرب لمصر ص ٣٨٦ و ٣٨٧

نفسه وأورد نصها . وقال عن دى ساسى : انه سلم بصحتها كل التسليم بالاستناد الى قدم أسلوب لغتها[١] .

ووصف بتلر رد عمرو على عمر بأنه "الرد السهل فى أسلوبه ، الجليل فى معناه[٢] ، ويكفى القارئ أن يطلع عليه ليدرك مدى قيمته من جهة أسلوب الكتابة" .

أما الاستناد الى أن ابن عبد الحكم اطلع على هذه المكاتبات ودرجها فى مؤلفه[٣] ، فليس مما يعبأ به ، لأن ابن عبد الحكم لا يوجد من مؤلفه نسخة أصلية والأقوال المنسوبة اليه منقولة سماعا أو إملاء ممن رووا عنه .

وكثيرا ما يصل الى مثل هذه الكتب شيء من التغيير والحشو من الرواة أو النساخ الذين يعهد اليهم بنسخها . وقد وقع بالفعل شيء من هذا القبيل فى خبر سير عمرو الى مصر بإذن عمر أو بغير إذنه ، فاختلف النص فيه بين ما ورد فى تاريخ ولاة مصر للكندى[٤] ، وبين ما روى عن ابن عبد الحكم[٥] ، مع أن الخبر واحد . وسنرى أن مثل هذا التصرف وقع فى الأقوال الواردة فى كتاب ابن عبد الحكم نفسه ، المطبوع فى ليدن على ظن أنه تصحيح .

والواجب أن يرجع فى تحقيق ما كان من هذا القبيل الى النقد الدقيق بالنظر الى الرواة ومقابلة الروايات بعضها ببعض . وقد قال ابن عبد الحكم نفسه عن رواية الذين تلقى عنهم أخبار فتح مصر : يزيد بعضهم على بعض .

وفى المكاتبات المتبادلة بين أمير المؤمنين عمر وبين عمرو رضى الله عنهما يخيل الى أن طريقة التعبير فيها لا توافق عصرهما ولا أخلاقهما ، لأن

---

(١) فتح العرب لمصر ص ٣٩٧ (١) (٢) فتح العرب لمصر ٣٩٨ (٣) فتح العرب لمصر ص ٣٩٧ (١) . (٤) كتاب ولاة مصر ص ٧ (٥) فتوح مصر ص ٥٦

أسلوبها أقرب الى المعروف عن المتأخرين فضلا عما فيه من الشذوذ من جهة الأدب الكتابي وصياغة الجمل والركاكة . مثاله فى كتاب عمر : "فعجبت من ذلك وأعجب مما عجبت" أو "فلئن كنت مجزئا كافيا صحيحا إن البراءة لنافعة وان كنت مضيعا نطعا"؛ أو " رجاء أن تفيق "، أو " وما توالس عليك وتلفف"؛ و"الحق أبلج ودعني وما عنه تلجلج"، وفى كتاب عمرو : "ولو كنت من يهود يثرب ما زدت"، "وسكت عن أشياء كنت بها عالما". أو " بخثت لعمرى بالمقطعات المقذعات "، وقوله : " ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم، بليغ صادق"، أو "والعمل به سيئا"، أو " بعد كتابك الذى لم تستبق فيه عرضا " ، أو " ولكنى حفظت ما لم تحفظ " . وغير ذلك ؛ وهى فى الواقع جمل ضعيفة واهية ، بعيدة الالتئام متخاذلة التأليف والنظم مما لا يخفى على أدنى متأمل من أهل الذوق الفهماء بأساليب البلاغة والأدب .

وفى مقدمة فتح العرب لمصر ، يقول الدكتور بتلر عن كتاب ابن عبد الحكم : " ويختلط فيه كثير من قصص الخيال بأخبار التاريخ ، ولكن لو نشرت منه نسخة منقودة لكانت ذات شأن عظيم[1]" . وانى لا أدرى هل كان يعدّ من أخبار التاريخ التى يقصدها ، هذه المكاتبات المنسوبة الى عمرو وعمر .

المكان الذى دفن فيه قتلى المسلمين :

وشهد الفتح جماعة كثيرة من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين . ويقال : ان من قتل من المسلمين دفنوا فى أصل الحصن[2] .

(١) فتح العرب لمصر ص ٢٧ من مقدمة المؤلف . (٢) الخطط للقريزى ج ١ ص ٢٩٤

وقف قصر الشمع :

قال ابن عبد الحكم : "وأقرّ عمرو بن العاص القصر لم يقسمه ووقفه"[١].

تاريخ الفتـــح :

وكان الفتح فى سنة عشرين . قال القضاعى : إن مصر فتحت يوم الجمعة مستهل[٢] المحرم سـنة عشرين . وأثبتـه المرحوم محمد مختار باشا بكل تحقيق فى التوفيقات الإلهامية[٣]، يوم الجمعة ٢ من المحرم سنة ٢٠ هجرية (٢٢ من ديسمبر سنة ٦٤٠ ميلادية) .

وهذا يتفق تماما من جهتين مع قول ساويرس ، إن هبوط جيش المسلمين فى قوة عظيمة فى ١٢ من شهر بؤونة (٦ يونية[٤]) ومع قول مؤرّخى العرب ، إن فتح مصر كان فى مستهل المحرم سنة ٢٠ (٢٢ من ديسمبر سنة ٦٤٠ ميلادية) .

القول فى فتح مصر هل كان عن صلح أم عنوة ؟

وقد اختلف فى فتح مصر : هل فتحت بصلح أم عنوة؟ فذهب أكثر علماء أهل مصر إلى أنها فتحت بصلح . وقالوا : إن الأمر لم يتم إلا بما جرى من المفاوضة بين عبادة والمقوقس . وذهب آخرون منهم عبيد الله بن المغيرة الشيبانى ومالك بن أنس ، وعبـد الله بن وهب ، الى أنهـا فتحت عنوة . واحتجوا بأن الحصن فتح عنوة؛ وكان حكم جميع الأرض كذلك .

---

(١) فتوح مصر (ليدن) ص ١١٤

(٢) أى فى ظهور هلاله وهو غرة القمر أو لليلتين أو الى ثلاث الى سبع من أول الشهر ولليلتين من آخر الشهر أى ست وعشرين وسبع وعشرين .

(٣) ص ١٠ (٤) فتح العرب لمصر ص ٤٦٨

وعن ابن شهاب أنه قال : كان فتح مصر بعضها بعهد وذمة و بعضها عنوة، فجعلها عمر بن الخطاب رضى الله عنه جميعا ذمة ، وحملهم على ذلك فمضى ذلك فيهم إلى اليوم (١) .

إرسال البعوث الى الصعيد و بلاد مصر السفلى :

قال الطبرى : إن أهل مصر كلهم دخلوا فى معاهدة الصلح ، وخالف الدكتور بتلر فقال : إن الصلح كان مقصورا على جماعة صغيرة . ولكنه نبه الى أن منفيس أو بابليون ، وان لم يبق لها المحل الأوّل فى القطر، إذ مضى عليها زمن طويل وليست هى عاصمة البلاد ، كانت لا تزال ذات شأن عظيم ، إذ كانت باب إقليم الصعيد و إقليم مصر السفلى ، وكان حصنها منيعا لا يكاد ينال ، فاذا هو وقع فى يد عدوّ دانت له بلاد الصعيد جميعا ، وهابته بلاد مصر السفلى فى الشمال (٢) .

ثم بين أن من أثر الاستيلاء عليها أن أصبح فى يد عمرو ملك الفرما و بلبيس (٣) وأَتْرِيب (٤) وعَيْن شمس .

أما الروايات العربية وهى عمادنا ، وقد بينا صدق أكثرها فيما تقدم ، فقد ورد فيها بين ما رواه البلاذرى عن الجَيْشَانى فى فتوح البلدان : أن عمرا بعد

(١) فتوح مصر طبع ليدن ص ٩٠ (٢) فتح العرب لمصر ص ٢٤٤

(٣) قال فى تقويم البلدان : بكسر الباء الموحدة وسكون اللام وفتح الباء الموحدة وسكون المثناة تحت ثم سين مهملة . وقال القلقشندى : والجارى على الألسنة ضم الباء فى أولها وضبط ياقوت بكسر البائين وسكون اللام ، صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٤٠٤ و ٤٠٥

(٤) مدينة مصرية قديمة اندثرت . ومكانها اليوم تل اتريب الواقع فى شمال مدينة بنها .

الفتح وجه عبد الله بن حذافة السهمى الى عين شمس، فغلب على أرضها وصالح أهل قراها على مثل حكم الفسطاط (يريد مصر)، ووجه خارجة ابن حذافة العدوى الى الفيوم والأشمونين وإخميم (والبشرودات) وقرى الصعيد ففعل مثل ذلك؛ ووجه عمير بن وهب الجمحى الى تنيس ودمياط وتونة[(١)] ودميرة[(٢)] وشطا[(٣)] ودقهلة[(٤)] وبنا[(٥)] وبوصير ففعل مثل ذلك؛ ووجه عقبة بن عامر الجهنى — ويقال وردان مولاه صاحب سوق وردان بمصر — الى سائر قرى أسفل الأرض[(٦)] ففعل مثل ذلك. قال: فاستجمع عمرو بن العاص فتح مصر فصارت أرضها أرض خراج[(٧)] الخ.

وروى المقريزى[(٨)]: أن عمرا أنفذ أيضا الى الفرما أبرهة بن الصباح، فصالحه أهلها على خمسمائة دينار هرقلية وأربعمائة ناقة، وألف رأس من

(١) كانت من مدن مصر الصناعية القديمة. وقد اندثرت ومكانها اليوم جزيرة ببحيرة المنزلة تسمى «كوم ابن سلام» شرقى بلدة المطرية؛ وعلى بعد أربعة كيلو مترات منها. وقد ذكرت هنا البشرودات خطأ بين إخميم وقرى الصعيد، والصحيح أنها بأسفل الأرض كما ذكره المقريزى ج ١ ص ٧٣. (٢) ناحية دميرة، هى اليوم إحدى قرى مركز طلخا بمديرية الغربية.

(٣) ما زالت موجودة الى اليوم من ضواحى دمياط، وعلى بعد خمسة كيلو مترات منها.

(٤) قال أبو الحسن المهلبى: مدينة قديمة جاهلية، لها ارتفاع جليل، ومنها الى سمنود ميلان، معجم البلدان ج ٢ ص ٢٨٦، وتعرف اليوم باسم بنا أبو صير وهى إحدى قرى مركز سمنود بمديرية الغربية. (٥) معروفة اليوم باسم أبو صير بنا من قرى مركز سمنود بمديرية الغربية. وقد ذكرها ياقوت باسم بوصير بنا، وقال أنها من كورة السمنودية. معجم البلدان ج ٢ ص ٣٠٦ (٦) كانت مصر مقسمة بحسب كورها الى أعلى الأرض وهو الصعيد والى أسفل الأرض وهو ما يعرف الآن بالوجه البحرى وكانت كوره موزعة فى أربع نواح: الحوف الشرقى وبطن الريف والجزيرة والحوف الغربى. ويمكن الوقوف على تفصيل ذلك فى كتب الخطط وعلى الخصوص فى الجزء الثالث من كتاب صبح الأعشى للقلقشندى، ص ٣٧٩ — ٣٩١؛ راجع أيضا البلاذرى ص ٢١٨ (٧) البلاذرى ص ٢١٨

(٨) الخطط ج ١ ص ٢١١

الغنم ، فرحل عنهم الى البقارة[(١)] ، فأسلم من بها . وساروا منها الى الورادة من جملة الجفار فدخل أهلها الإسلام[(٢)] .

خبر السير الى الفيوم وعودة عمرو ولم يفتحها :

ذكر الدكتور بتلر السير الى الفيوم؛ ولكن جعله عقب وقعة أم دنين وقبل فتح مصر بقيادة عمرو نفسه؛ فقال : ان عمرا رأى وقتئذ أنه لن يستطيع فتح بابليون بمن معه، نخطر له أن يحوّل وجهته نحو الفيوم . وقد استطاع بعد فتح أم دنين أن يأخذ من السفن ما يلزمه لاجتياز النهر، وبلوغ مدينة منف ثم البهنسا . ومن يقرأ هذا الخبر يخطر بفكره أن العرب فى هذه الحملة وصلوا الى مدينة البهنسا التى هى اليوم احدى قرى مركز بنى مزار بمديرية المنيا، الموضوع لها كتاب باسم فتوح البهنسا؛ ولكن اذا قارنا بين الزمن الذى قيل بأن عمرا استغرقه فى جهة الفيوم والمنطقة التى مر بها الجيش العربى فى تلك الجهة، وهى لا تتجاوز نواحى بعض قرى الفيوم ودلاص وأبويط ، يتبين له أن اسم البهنسا الذى ذكره بتلر، لم يكن مقصودا به البهنسا الحالية التى بمركز بنى مزار، لبعدها عن إقليم الفيوم، ولذلك بحثت عن سبب ذكر البهنسا هنا مع بعدها عن الفيوم . فأخبرنى الأستاذ العلامة محمد رمزى بك بأن القرية التى يحتمل أن جيش المسلمين وصل اليها فى زحفه الى الفيوم هى التى كانت تسمى البهمسا احدى قرى مديرية الفيوم فى ذلك

(١) وهى من بلاد الجفار الواقعة بين العريش والقنطرة بأرض مصر وقد اندثرت .

(٢) المقريزى الخطط، ج١ ص ١٨٤ ، قال المقريزى : وبلد الورادة القديمة فى شرق المنزلة التى يقال لها اليوم الصالحية . وهى الآن على وجه التعيين فى المكان الذى يعرف باسم "المزار" بقرب محطة "المزار" الواقعة على بعد ١١٠ كيلومترات شرقى بلدة القنطرة الشرقية من الطريق الحديدى بينها وبين العريش .

الوقت . وقـد اندثرت هذه القـرية وما زال يعرف مكانها الى اليوم باسم «حوض المهمسا» أو «المهمسى» بأراضى ناحية قلمشاة بمركز الفيوم .

وهـذا يتفق مع تعليق للدكتور بتـلر قال فيه : أن البهنسا هنا فى كورة الفيوم بالطبـع ، وليست بالبهنسـا المعروفة التى فى موضع المدينـة القديمة أوكسير هينخوس Oxyrhynchus فقد كانت تلك على بعـد خمسين ميلا الى الجنوب من بعد بهنسا الفيوم [١] .

قال الدكتور بتـلر : ففتحت البهنسا عنوة ، والتقى العرب فى طريقهم بحنا الماروسى ، فى جمع قليل ، فأراد أن يجتنبهم و يرجع الى عسكره فى أبو يط [٢] ، ولكنه قتل هو ومن معه وانتشـل أصحـابه جثته من النيـل . ولم يستطع العـرب فتح الفيوم فعـادوا أدراجهم إلى الشمال إلى موضع أكثر أمنـا . وقضى عمرو فى غزوته أسابيع أضاعها الروم [٣] .

رواية ابن عبد الحكم عن وقت فتحها وكيفية وقوعه :

قال ابن عبـد الحكم : لمـا تم الفتح للمسلمين (أى فتح مدينـة مصر والحصن) بعث عمرو جرائد الخيل الى القرى التى حولها ، فأقامت الفيـوم سنة لم يعلم المسلمون بمكانها ، حتى أتاهم رجل فذكرها لهم ، فأرسل عمرو معه ربيعـة بن حبيش بن عرفطة الصـدفى ، فلما سلكوا فى المجابة لم يروا شيئا فهموا بالانصراف ، فقالوا لا تعجلوا ، سيروا ؛ فان كان قد كذب فمـا أقدركم

(١) فتح العرب لمصر ص ١٩٧ (١) بذيل الصفحة (راجع أيضا أملينو Géographie Copte صفحة ٣) . (٢) هذه البلدة ذكرها ابن دقـاق فقال : انها فى رأس الجبل الذى يصعد منه الى الفيوم (ج ٥ ص ٣) . وقال ياقوت انها قرب بوصير قوريدس (المعجم ج ١ ص ٩٦) ، وذكرها باسم بويط (ج ٢ ص ٣١١) . وقال المقريزى : مدينة من جملة البهنساوية وسماها أبويط (الخطط ج ١ ص ٢٠٣) ، وهى الآن إحدى قرى مركز الوسطى بمركز الوسطى بمديرية بنى سويف . (٣) فتح العرب لمصر ص ١٩٨ و ١٩٩

على ما أردتم ، فلم يسيروا الا قليلا حتى طلع لهم سواد الفيوم فهجموا عليها ، فلم يكن عندهم قتال وألقوا بأيديهم .

وذكر ابن عبد الحكم خبرين آخرين عن كيفية اكتشاف الفيوم نكتفى بالاشارة اليهما [١] .

رواية بتلر عن فتح الفيوم :

قال : ولما بلغت أنباء الفتح (فتح مدينة مصر) الى الفيوم غادرها من بها من المسالح ، وأرسل عمرو كتيبة من جنده عبرت النهر وفتحت مدينتى الفيوم وأبويط ، ثم أرسل عمرو جنوده الى « دلاص » على الضفة الغربية للنيل فى جنوب منفيس ، والى الشرق من مدينة الفيوم ، وطلب من أباقيرس (أباكيرى) حاكمها أن يمدّ المسلمين الذين كانوا بالفيوم بالسفن لينتقلوا فيها من الجانب الغربى الى الجانب الشرقى [٢] .

نفى تهمة مكذوبة على المسلمين :

من التُّهَمَات الشنيعة التى تطاول بها حنا النقيوسى على المسلمين قوله : «أنهم لما بلغوا مدينة البهنسا وفتحوها عنوة ، قتلوا من وجدوا بها من رجال ونسوة وأطفال» [٣] . وقوله فى حكاية دخول العرب مدينة نقيوس ، وسيأتى ذكرها : «ان العرب قتلوا كل من وجدوه فى الطريق من أهلها ولم ينج من دخل فى الكنائس لائذا ولم يدعوا رجلا ولا امرأة ولا طفلا» [٤] .

وقد علق على هذين القولين حضرة الأستاذ الفاضل فريد أبو حديد معرّب كتاب « فتح العرب لمصر » ، فقال :

---

(١) فتوح مصر (ليدن) ص ١٦٩
(٢) فتح العرب لمصر ص ٢٠٥ و ٢٠٦
(٣) فتح العرب لمصر ص ١٩٧
(٤) فتح العرب لمصر ص ٢٤٨

عن القول الأول : " لم يكن من مذهب العرب ولا مما يوصيهم به الدين والخلفاء أن يقتلوا طفلا أو امرأة . ولعل فى ذلك خطأ من حنا النقيوسى دفعه اليه كرهه لأعداء بلاده ودينه ، ولو حدث شىء من ذلك لما تردّد مؤرخو العرب فى وصفه ، فانهم لا يدعون شيئا إلا وصفوه حتى ولو كان شديدا عليهم[1] " .

وقال عن القول الثانى : " أغلب الظن أن هذه مبالغة من الكاتب (حنا النقيوسى) دفعته اليها غيرته وحقده على الغالبين من العرب إذ كان من أوّل أصول العرب فى الحرب ألا يقتلوا من استسلم وألا يقتلوا امرأة ولا شيخا ولا طفلا ، يأمرهم بذلك دينهم ويحضهم عليه أمر خلفائهم الأولين الى القوّاد والجنود[2] " .

أما الدكتور بتلر فلا جدال فى أن كذبة حنا النقيوسى راقت له ووافقت أمياله وأفكاره . فقال فى تعليقه على قول حنا الأوّل : " ويجب أن نصدق خبر المذبحة ، ولم تكن مخالفة لقانون الحرب فى تلك الأيام ، وسنجد أمثلة غيرها من نوعها[3] " .

ومن البين أن الأمثلة المزعومة هى التى ادّعى حنا النقيوسى أنها حدثت فى نقيوس . ولا نعلم أين وجد الدكتور بتلر انها تنطبق على قانون الحرب الذى كان يجرى عليه المسلمون فى غزواتهم .

لا شك فى أن هذا القول شر مما قاله حنا النقيوسى . وفيه دليل آخر يؤيد رأينا فى أن ما تضمنه كتاب فتح مصر ليس فيه شىء من العدالة .

(١) فتح العرب لمصر ص ١٩٧ (١) . (٢) فتح العرب لمصر ص ٢٤٨ (٢) .
(٣) فتح العرب لمصر ص ١٩٧ (١) .

ومع ذلك فان ما جاء فى الأثر فيه البرهان الكافى لسحق هذه الأكاذيب .

روى البخارى فى صحيحه مسندا الى نافع أن عبدالله رضى الله عنه أخبره أن امرأة وجدت فى بعض مغازى النبى صلى الله عليه وسلم مقتولة ، فأنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل النساء والصبيان[١] .

وروى أيضا عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : وجدت أمرأة مقتولة فى بعض مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل النساء والصبيان[٢] .

وروى مالك مسندا الى عبد الرحمن بن كعب أنه قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين قتلوا ابن أبى الحقيق عن قتل النساء والولدان[٣] .

وحدث مالك عن يحيى بن سعيد أن أبا بكر الصديق بعث جيوشا الى الشام ، فخرج يمشى مع يزيد بن أبى سفيان وكان أمير رُبْع من تلك الأرباع ؛ فزعموا أن يزيد قال لأبى بكر إما أن تركب وإما أن أنزل ، فقال أبو بكر : ما أنت بنازل وما أنا براكب ؛ انى أحتسب خطاى هذه فى سبيل الله . ثم قال له : انك ستجد قوما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله ، فذرهم وما زعموا أنهم حبّسوا أنفسهم له ، وستجد قوما فحصوا عن أوساط رؤوسهم من الشعر ، فاضرب ما فحصوا عنه بالسيف وانى موصيك بعشر : لا تقتلن امرأة ولا صبيا ولا كبيرا هرما ولا تقطعن شجرا مثمرا ولا تُخَرّبن عامرا ولا تعقرن شاة ولا بعيرا إلا لمأكلة ولا تحرقن نخلا ولا تفرّقنه ولا تغلل ولا تجبن[٤] .

---

(١) البخارى ج ٢ ص ١٠٧ (٢) البخارى ج ٢ ص ١٠٧

(٣) جلال الدين السيوطى ، تنوير الحوالك ج ٢ ص ٥ و ٦

(٤) جلال الدين السيوطى ، تنوير الحوالك ج ٢ ص ٦ ؛ والمراد بقوله "تُفَرِّقَنّه" تُبَدِّدنه .

وحدث مالك أنه بلغه أن عمر بن عبد العزيز كتب الى عامل من عماله : أنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا بعث سَرِيَّةً يقول لهم : اغزوا باسم الله فى سبيل الله تقاتلون من كفر بالله لا تَغُلُّوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا، وقل ذلك لجيوشك وسراياك إن شاء الله، والسلام عليك [١] .

هذه هى الأصول الصحيحة أو على تعبير الدكتور بتلر : القانون الذى كان يجرى عليه المسلمون فى مغازيهم .

الاستيلاء على أتريب ومنوف — إقامة قنطرة عند قليوب :

وأخذ المسلمون مدينتى أتريب ومَنُوف واستولوا على ريفهما . ولمرور المسلمين أقيمت قنطرة على الترعة عند قليوب، وقد جاء الأمر الى جورج حاكم اقليم مصر باقامتها . وبهذه المناسبة قال حنا النقيوسى : "وأخذ الناس يساعدون المسلمين" . وكأن اعتراف حنا النقيوسى، كان له أثر عند الدكتور بتلر، لأنه يهزم تشبثه بنفى ما جاءت به الروايات من أن القبط كانوا عونا للسلمين حين الفتح، فقال : "وانه لمن سوء الحظ أن قول الأسقف (يعنى حنا النقيوسى) هنا ليس بالواضح البين" . ومن رأيه أن المساعدة كانت محدودة ومعينة لغرض خاص، ولم تكن مساعدة عامة . ثم قال : وقد يكون العرب لقوا شيئا من ذلك أثناء حصار الحصن من جماعة لعلهم من أهل الفيوم بعد فتحها ، وكانوا أحابيش من عصابتين عرفتا بالحزبين الأخضر والأزرق ، وقد ذكرهما حنا النقيوسى [٢] . وقال : انهما كانتا تعبران النهر ليلا الى الروضة فتنهبان فيها أو تهبطان على السفن بقيادة ميناس وقزماس بن صمويل .

(١) جلال الدين السيوطى، تنوير الحوالك ج ٢ ص ٧

(٢) فتح العرب لمصر ص ٢٣٢ ؛ حنا النقيوسى ص ٥٦٨

رفض هرقل الصلح :

قلنا ان المعاهدة التى تمت بين عمرو والمقوقس، اشترط فيها المقوقس أن له الخيار فى الروم خاصة حتى يأتيه أمر ملك الروم، وان ملك الروم لما كتب اليه كره ذلك، وكتب الى المقوقس والى جماعة الروم بقتال عمرو و بقى القبط على الصلح الذى تعاقدوا عليه .

وقد تضمن هذا الخبر أن عمرا طلب من القبط أن يضمنوا له الجسرين جميعا، و يقيموا الأنزال والضيافة والأسواق والجسور ما بين الفسطاط الى الإسكندرية .

قال ابن لهيعة عن يحيى بن ميمون الحضرمى : ففعلوا وصارت لهم القبط أعوانا[١] . ولكن الدكتور بتلر لم يقنع بذلك، فقال : ان المقوقس، بعد الاتفاق مع عمرو على بقاء الروم بالحصن حتى يقرّه ملكهم، سافر مسرعا بالنيل الى الإسكندرية و بادر بارسال كتاب الى الامبراطور يخبره بما تم عليه الاتفاق، وان الامبراطور أرسل اليه يأمره بأن يوافيه على عجل . ولما وصل اليه أوقع به المهانة ثم نفاه من بلاده طريدا . وهى أقوال لا أثر لها فى الروايات العربيـــة .

وكانت الروم تحصنت مدّة بالجزيرة (جزيرة الروضة الآن)، ثم هربت منها وكانت حصينة، فخرب عمرو بن العــاص بعض أبراجها وأســوارها، وكانت الأسوار مستديرة عليها[٢] .

---

(١) فتوح مصر طبع ليدن ص ٧٢

(٢) الانتصار ج ٤ ص ١٠٩

فتح الإسكندرية

زحف عمرو على الإسكندرية :

لما حاز المسلمون الحصن بما فيه، أجمع عمرو على المسير الى الإسكندرية فاستخلف على مصر خارجة بن حذافة . وكان سيره اليها فى ربيع الأول سنة ٢٠ هجرية (١٨ من فبراير — ١٩ من مارس سنة ٦٤١ م)، كما رواه الكندى عن سعيد بن عفير عن أشياخه وفى رواية غيره فى جمادى الآخرة من تلك السنة ، وكان من دون الإسكندرية من الروم والقبط قد تجمعوا له وقالوا : نغزوه بالفسطاط قبل أن يبلغنا ويروم الإسكندرية .

ولم يجد الدكتور بتلر ما ينقله عن حنا النقيوسى فى موضوع الزحف غير فقرات مشتتة . أما ابن عبد الحكم فقد روى من حديث عثمان بن صالح : أن عمرا خرج بالمسلمين حين أمكنهم الخروج ، وخرج معه جماعة من رؤساء القبط ، وقد أصلحوا لهم الطريق وأقاموا الجسور والأسواق . وصارت لهم القبط أعوانا على ما أرادوا من قتال الروم . وسمعت بذلك الروم فاستعدت واستجاشت ، وقدمت عليهم مراكب كبيرة من أرض الروم ، فيها جمع من الروم عظيم بالعدة والسلاح[1] . ولما سار عمرو فى طريقه لم ير

---

(١) فتوح مصر (ليدن) ص ٧٣

منهم أحدا حتى بلغ ترنوط[١] . قال بتلر : وكانت بهـا فرضة يعبر النيل عندها فى الذهاب الى الإسكندرية . ووقع قتال خفيف بين عمرو والروم فانهزموا . وقد ذكر ياقوت هـذه الوقعة[٢] . ومضى عمـرو بمن معه قاصـدا نقيوس، فى قول بتـلر، ومحلها اليوم زاوية رزين بمركز منوف، فى الجنوب الغربى من منوف، فاستولى عليها . وكان بها قائد رومانى ضعيف اسمه دومنتيانوس وتحت يده سفن كثيرة، فلما رأى المسلمين على كثب منه خانه جنانه، وترك جيشه وسفنه ولاذ فى سفينته هاربا نحو الإسكندرية وتفرقت جنوده فقتلوا . ولم يرد لهذه الوقعة ذكر فى خبر الزحف على الإسكندرية لابن عبـد الحكم وغيره . ولكن ياقوت ذكرها فقال : كانت بها (أى بنقيوس) وقعة لعمرو ابن العاص والروم لمـا نقضوا[٣] . فيكون بتـلر قد قدّم تاريخ وقوعها عن الوقت الذى حدثت فيـه . وانتشرت العرب فى البـلاد التى حول نقيوس ودخلوا سوونا ، وهى شـونى بمركز تلا بمديرية المنوفيـة ، وليست صا التى بمركز كفر الزيات كما وردت فى كتاب فتح العرب لمصر[٤] .

قال بتلر : وأقام عمرو فى نقيوس بضعة أيام ثم عبر النيـل الى الغرب واستأنف سيره . وقيل : بل أرسل شريك بن سمى فى آثار الجيش الفار فأدركهم

(١) وقد وردت محرفة فى النص العربى « مريوط » . وهى من المـدن المصرية القديمة أسمها المصرى پرانوت والرومى ترنوتيس والقبطى ترنوط أو طرنوط . وفى القرن السابع الهجرى حرف أسمها الى الطرانة ، وهو أسمها الحـالى ، وهى اليوم إحدى قرى مركز كوم حمـادة بمديرية البحيرة . وقال عنها ياقوت : قرية كبيرة جامعة على النيل فيهـا أسواق ومسجد جامع وكنيسـة خراب كبيرة ، خربتها كامة مع القاسم بن عبيد الله ، وبها معاصر للسكر وبساتين ، وأكثر فواكه الإسكندرية منها . قالوا لا تطول الأعمار كما تطول بترنوط وفرغانة .

(٢) معجم البلدان ج ٢ ص ٣٨٤ (٣) الكتاب السابق ج ٨ ص ٣١٤

(٤) ص ٢٤٨ و ٢٤٩ بذيل الصفحتين .

عند الكوم الذى عرف به بعد وسمى (كوم شريك) ، وهى قرية ما زالت موجودة الى اليوم بمركز كوم حمادة بمديرية البحيرة على شاطئ النيل الغربى ، فى شمال محطة الطيرية الواقعة على السكة الحديدية الموصلة بين امبابة وإتياى البارود بمصر .

واضطرّ شريك لما أدرك الروم أن يلجأ الى الكوم ؛ فاعتصم به وأحاطوه ، وانحط عليهم من الكوم مالك بن ناعمة الصدفى ، ويعرف بصاحب الفرس الأشقر الذى يقال له «أشقر صدف» . وكان لا يجارى سرعة . وطلبته الروم فلم تدركه حتى أتى عمرا فأخبره ، فأقبل عمرو متوجها ، فانصرفت الروم . ثم التقوا بسُلْطَيْس وهى سنطيس إحدى قرى مركز دمنهور فى الجنوب من دمنهور على بعد سبعة كيلو مترات .

وهناك اقتتلوا قتالا شديدا ، فانهزم الروم وتقهقروا أمام الفاتحين ثم التقوا بالكريون ، وهى على الشاطئ الشمالى لترعة المحمودية ، وأقرب محطة اليها معمل القزاز بمركز كفر الدوّار . وكانت آخر سلسلة من الحصون بين بابليون والإسكندرية . قال بتلر : ولكن حصونها لم تكن من المنعة مثل ما كان حصن بابليون ولا حصن نقيوس . وكان بها تيودور فى جنود أكثر عددا من المسلمين ، وكانت الترعة تحميهم من بين أيديهم ، والطريق من ورائهم يفضى الى الإسكندرية ويسهل حفظه . وجاءت اليها الكتائب تترى من كل مكان الى لواء الروم ، من سلطيس ومن جهات أبعد منها ، مثل الخَيس(١) وسخا(٢) وبلهيب . واشتدّ القتال واستمرّ بضعة عشر يوما . وكان

(١) الخيس قرية قديمة قد اختفى اسمها من زمن بعيد . وفى مكانها اليوم قرية أم حكيم بمركز شبرا خيت بمديرية البحيرة . (٢) هى اليوم إحدى قرى مركز كفر الشيخ بمديرية الغربية بمصر .

عبد الله بن عمرو على المقدمة ، وحامل اللواء يومئذ وردان مولى عمرو ، فأصابت عبد الله بن عمرو جراحات كثيرة وصلى عمرو يومئذ صـلاة الخوف . ثم فتح الله على المسلمين فقتـلوا من الروم مقتـلة عظيمة ، وأتبـعوهم حتى بلغـوا الإسكندرية فتحصن بها الروم . وكان عليها حصون متينة لا ترام حصن دون حصن ، فنزل المسلمون ما بين حلوة الى قصر فارس الى ما وراء ذلك[١] ومعهم رؤساء القبط يمدّونهم بما احتاجوا اليه من الأطعمة والعلوفة ، فأقاموا شهرين .

وروى ابن عبد الحكم حديثا عن محمد بن يحيي الإسكندرانى قال : نزل عمرو بن العاص بحلوة فأقام بها شهرين ثم تحوّل الى المقس ، فأخرجت عليه الخيل من ناحيـة البحيرة مستترة بالحصن . فواقعوه ، فقتـل من المسلمين يومئذ بكنيسة الذهب اثنا عشر رجلا[٢] .

وقال الدكتور بتلر : وقد علم «عمرو» أنه لن يستطيع أخذ الإسكندرية بالهجوم فعوّل أن يخلف فى عسكره جيشا للرباط ، وأن يسـير هو ومن بقى من النـاس فيضرب بهم فى بلاد مصر السـفلى . وكان الروم قد هاجروا من حول الإسكندرية ، فسار الى الكريون ، ومن ثم الى دمنهور ، ثم سار الى الشرق يجوس خلال الإقليم المعروف اليوم بالغربية ، حتى بلغ سخـا ولم يتمكن من أخذها على غرة . ثم الى طوخ[٣] ومنها الى دَمْسيس[٤] . وغزا بعض

(١) ابن عبد الحكم (ليـدن) ص ٧٤ راجع أيضا فتح العرب لمصر ص ٢٥٦ وقد ورد فى هذه الصفحة : أن قصر فارس كان فى الجهة الشرقية ولعل الفرس بنوه ليستعينوا به على الحصار فانا نعرف ان دقلديانوس لم يستطع أن يحدث أثرا فى حصون المدينـة حتى بنى قلعـة فى شرقها (حنا النقيوسى ص ٤١٧) .

(٢) فتوح مصر (ليدن) ص ٧٥ و ٧٦

(٣) طوخ المذكورة هنا يقصد بها طوخ مزيد إحدى قرى مركز السنطة بمديرية الغربية وهى إحدى القرى العشرة التى تسمى طوخ فى مصر الآن .

(٤) قرية مصرية قديمة اندثرت ، ومكانها اليوم كفر شبرا اليمن من توابع قرية شبرا اليمن ، بمركز زفتى بمديرية الغربية .

القرى التى على فرع النيل الشرقى . وقيـل : أن سرية أرسلها عمرو بلغت دمياط فى الوقت نفسه [١] .

ويغلب على ظنى أنها هى التى تقدم ذكرها فى رواية الجَيْشانى، فى فتوح البلدان للبلاذرى [٢] .

الجامع الذى أسسه المسلمون بدمياط :

وقال المقريزى : وبدمياط حيث كانت المدينـة التى هدمت، جامع من أجل مساجد المسلمين، تسميه العـامة مسجد فتح ، وهو المسجد الذى أسسه المسلمون عند فتح دمياط ، أول ما فتح الله أرض مصر على يد عمرو ابن العاص؛ وقال : إنمـا عرف بجامع فتح لنزول شخص يقال له فاتح به ، فقالت العامة « جامع فتح » [٣] . ويعرف أيضا بجامع أبى المعاطى .

وانتهى قول بتلر بأن عمرا عاد الى بابليون، وأن العرب قضوا فى عملهم هذا اثنى عشر شهرا [٤] .

وقال ابن عبـد الحكم، فيما رواه عن يحيى بن أيوب وخالد بن حميد : وكان ملك الروم يقول : " لئن ظهرت العـرب على الإسكندرية ففى ذلك انقطاع الروم وهلاكـهم " . لأنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الإسكندرية ... ... فأمر بجهازه ومصلحته لخروجه الى الإسكندرية، حتى يباشر قتالها بنفسـه إعظاما لهـا . وأمر ألا يتخلف أحد من الروم ، وقال ما بقاء الروم بعد الإسكندرية ! فلما فرغ من جهازه صرعه الله فأماته وكفى المسلمون مؤنتـه . وكان موته فى سنة تسـع عشرة، فكسر الله بموته شوكة الروم، فرجع جمع كثير ممن كان قد توجه الى الإسكندرية [٥] .

(١) راجع ماذكره بتلر فى فتح العرب لمصر ص ٢٥٧ — ٢٥٩
(٢) ص ٢١٨ (٣) الخطط للقريزى ج ١ ص ٢٢٤
(٤) فتح العرب لمصر ص ٢٠٩ (٥) فتوح مصر (ليدن) ص ٧٦

وبعد أن روى ذلك ابن عبد الحكم أردفه بقوله : حدّثنا يحيى بن عبد الله بن بكير عن الليث بن سعد ، قال : مات هرقل فى سنة عشرين، وفيها فتحت قيسارية الشام[1] .

وهذه الرواية تطابق قول ابن اسحاق الذى نقله الطبرى فى تاريخ الأمم والملوك، ونصه : كان فتح قيسرية من فلسطين وهرب هرقل وفتح مصر فى سنة عشرين . قال : حدّثنا بذلك ابن حميد، حدّثنا ابن سلمة عنه[2] .

واستأسدت العرب عند ذلك وألحت بالقتال على أهل الإسكندرية وقاتلوهم قتالا شديدا .

وجاء فيما رواه ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبى حبيب أنه قال : أقام عمرو بن العاص محاصر الإسكندرية أشهرا، فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب قال : ما أبطؤا بفتحها إلا لما أحدثوا[4] .

وقال : ويقال أن عمرو بن العاص استشار مسلمة بن مخلد ، فأشار عليه أن يعقد لعبادة بن الصامت على الناس فيكون هو الذى يباشر القتال فعقد له وولاه القتال، ففتح الله على يده الإسكندرية .

ولم يرد فى الروايات العربية أن عمرا عاد الى بابليون قبل الفتح كما زعم بتلر .

حديث الصلح من رواية الطبرى :

أورد الطبرى حديثا مفصلا أسنده الى زياد بن جَزْءٍ الزُّبَيْدى . وقد ذكر فيه : أنه كان فى جند عمرو بن العاص حين افتتح مصر والإسكندرية ثم قال : ولما افتتحنا بابليون تدنينا قرى الريف، فيما بيننا وبين الإسكندرية

(١) ص ٧٦ (٢) تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٢٢٥
(٣) فتوح مصر (ليدن) ص٧٦ (٤) الكتاب السابق، ص ٧٨ و ٧٩

قرية فقرية حتى انتهينا الى بلهيب، أرسل صاحب الإسكندرية، (ولم يذكر اسمه) [١] الى عمرو بن العاص : انى قد كنت أخرج الجزية الى من هو أبغض الى منكم معشر العرب، لفارس والروم ؛ فأن أحببت أن أعطيك الجزية على أن ترد علىّ ما أصبتم من سبايا أرضى فعلت ... ... ، فبعث اليه عمرو ابن العاص : ان ورائى أميرا لا أستطيع أن أصنع أمرا دونه ، فان شئت أن أمسك عنك وتمسك عنى ، حتى أكتب اليه بالذى عرضت علىّ ، فان هو قبل ذلك منك قبلت ؛ وان أمرنى بغير ذلك مضيت لأمره . فقال : نعم . فكتب عمرو الى عمر ، وكانوا لا يخفون علينا كتابا كتبوا به ، يذكر له الذى عرض عليه صاحب الإسكندرية ، وفى أيدينا بقايا من سبيهم ، ثم وقفنا ببلهيب وأقمنا ننتظر كتاب عمر ، حتى جاء فقرأه علينا عمرو ، وفيه : "أما بعد ، فانه جاء فى كتابك تذكر أن صاحب الإسكندرية عرض أن يعطيك الجزية ، على أن ترد عليه ما أصيب من سبايا أرضه . ولعمرى لجزية قائمة تكون لنا ولمن بعدنا من المسلمين أحب الى من فىء يقسم ، ثم كأنه لم يكن ، فاعرض على صاحب الإسكندرية أن يعطيك الجزية على أن تخيروا من فى أيديكم من سبيهم بين الإسلام وبين دين قومه ؛ فمن اختار منهم الإسلام فهو من المسلمين ، له ما لهم وعليه ما عليهم . ومن اختار دين قومه ، وضع عليه من الجزية ما يوضع على أهل دينه . فأما

---

(١) الظاهر أن المقوقس بعد أن ترك جزيرة الروضة ، أقام بالإسكندرية بعيدا عن التداخل فى الوقائع بين العرب والروم . وقد يظن أن المراد بصاحب الإسكندرية قيرس البطرك ، لأننا سنرى أن كتاب حنا النقيومى فيه : أن قيرس بطرك الإسكندرية حصل على تفويض من هرقل لعقد الصلح . ولكن هذا ينافيه قول صاحب الإسكندرية : انى قد كنت أخرج الجزية الى من هو أبغض الىّ منكم معشر العرب لفارس والروم ؛ فان هذا القول يشير الى عصر سابق على مجىء قيرس الى مصر .

من تفرّق من سبيهم بأرض العرب فبلغ مكة والمدينة واليمن ، فانا لا نقدر على ردّهم . ولا نحب أن نصالحه على أمر لا نفى له به . " فبعث عمرو الى صاحب الإسكندرية يعلمه الذى كتب به أمير المؤمنين . فقال : قد فعلت ، فجمعنا ما فى أيدينا من السبايا ، واجتمعت النصارى ، فجعلنا نأتى بالرجل ممن فى أيدينا ثم نخيره بين الإسلام وبين النصرانية ، فإذا اختار الإسلام كبرنا تكبيرة هى أشد من تكبيرنا حين نفتح القرية ثم نحوزه الينا ، وإذا اختار النصرانية نخرت النصارى ثم حازوه اليهم . ووضعنا عليه الجزية وجزعنا من ذلك جزعا شديدا حتى كأنه رجل خرج منا اليهم ؛ فكان ذلك الدأب حتى فرغنا منهم . وقد أتى فيمن أتينا به بأبى مريم عبد الله بن عبد الرحمن وقد أدركته وهو عريف بنى زبيد فوقفنا فعرضنا عليه الإسلام والنصرانية ، وأبوه وأمه وإخوته فى النصارى ، فاختار الإسلام فحزناه الينا ووثب عليه أبوه وأمه وإخوته يجاذبوننا حتى شققوا عليه ثيابه ، ثم هو اليوم عريفنا كما ترى . ثم فتحت لنا الإسكندرية فدخلناها[(١)] .

تاريخ الفتح :

قال الكندى : حاصر عمرو الإسكندرية ثلاثة أشهر ثم فتحها عنوة . وهو الفتح الأول[(٢)] .

وقد أثبت المرحوم محمد مختار باشا اللواء المصرى تاريخ الفتح فى كتاب التوفيقات الالهامية ، فى يوم الجمعة أول جمادى الآخرة سنة عشرين هجرية (١٨ من مايو سنة ٦٤١ ميلادية) ، وبعد العصر[(٣)] .

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٢٢٧ (٢) كتاب ولاة مصر ص ٩
(٣) ص ١٠

وقال الكندى : ويقال بل فتحها عمرو مستهل سنة إحدى وعشرين، كما حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث[١]. وقال القضاعى عن الليث : أقام عمرو بالإسكندرية فى حصارها وافتتاحها ستة أشهر، ثم انتقل الى الفسطاط فاتخذها دارا فى ذى القعدة[٢].

قال ابن عبد الحكم : فلما هزم الله تبارك وتعالى الروم وفتح الإسكندرية، وهرب الروم فى البر والبحر، خلف عمرو بن العاص بالإسكندرية ألف رجل من أصحابه، ومضى عمرو ومن معه فى طلب من هرب من الروم فى البر، فرجع من كان هرب من الروم فى البحر الى الإسكندرية، فقتلوا من كان فيها من المسلمين إلا من هرب منهم . وبلغ ذلك عمرو بن العاص فكر راجعا ففتحها وأقام بها . وكتب الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه، ان الله فتح علينا الإسكندرية عنوة بغير عقد ولا عهد، فكتب اليه عمر بن الخطاب يقبح رأيه ويأمره ألا يجاوزها . قال ابن لهيعة : وهو فتح الاسكندرية الثانى[٣]. وذكر ابن عبد الحكم سببا آخر للفتح نكتفى بالاشارة اليه .

وقال المقريزى فى الخطط عند « ذكر فتح الإسكندرية » : كان حصار الإسكندرية بعد موت هرقل تسعة أشهر وخمسة أشهر قبل ذلك . وفتحت يوم الجمعة لمستهل المحرم سنة إحدى وعشرين[٤] .

ولما أعاد الأستاذ جاستون ڤيت طبع الخطط بمطبعة المعهد العلمى الفرنسى بمصر، أثبت هذا القول بلفظه، إلا أنه أسقط من تاريخ الفتح

---

(١) كتاب ولاة مصر ص ٩ (٢) الخطط للمقريزى ج ١ ص ١٦٥

(٣) فتوح مصر (ليدن) ص ٨٠ و ٨١ يلاحظ أن المقريزى أطلق أيضا على فتح الإسكندرية فى عهد عمر «الفتح الأول» . وقال عن فتحها فى خلافة عثمان بعد انتقاض الروم، « الفتح الآخر » ج ١ ص ١٦٨ و ٢٨٦

(٤) الخطط للمقريزى أول ص ١٦٥

كلمة « احدى » فصار « لمستهل المحرّم سنة عشرين[1] » ، وعلق على ذلك بما معناه[2] : «ان هذا التاريخ وارد فى النسخ الخطية سنة «إحدى وعشرين» ؛ ولكنه رأى من اللازم أن يساير ابن عبد الحكم و يغفل مانص عليه فى النسخ الخطية لأن مستهل المحرم سنة ٢١ يوم الاثنين، كما أن مستهل المحرم سنة ٢٠ يوم الخميس. ولما كان هذا الخبر مرويا عن يحيي بن أيوب وخالد بن حميد ، فمن الواجب أن يكون منسجما مع الأحاديث الأخرى المروية عنهما ، فقد روى لها ابن عبد الحكم كما تقدّم أن " موت هرقل فى سنة تسع عشرة " ، ويترتب عليه أن يكون فتح الإسكندرية بعد تسعة شهور من هذا التاريخ. على أنه لا يشك فى أن هذا القول لا ينسجم مع قول الليث بن سعد : " مات هرقل فى سنة عشرين " . ولكن قول الليث عار عن الإسناد وفيه غموض ورواية ابن عبد الحكم واضحة» .

وهو تعليق مقبول فى ظاهره ، إلا أن العمل به يؤدّى الى نقض القول الصحيح وإثبات غيره. وحقيقة الأمر أن ابن عبد الحكم ذكر موت هرقل فى سنة تسع عشرة عن يحيي وخالد ولم يقف عنده كأمر مقطوع به ، وإنما أردفه بما يصححه وهو قوله : "حدثنا يحيي بن عبد الله بن بكير عن الليث ابن سعد قال : "مات هرقل فى سنة عشرين، وفيها فتحت قيسارية الشام"[3] وهو قول صحيح[4] أيده الدكتور بتلر . وليست هذه أوّل مرة يذكر فيها

---

(١) كتاب المواعظ والاعتبار طبع سنة ١٩٢٢ ، المجلد الرابع ص ١٥١

(٢) الكتاب السابق بذيل الصفحة نفسها رقم ٧ من المجلد الرابع .

(٣) فتوح مصر (ليدن) ص ٧٦

(٤) ويوافق ماورد عن تاريخ وفاته فى دائرة المعارف الفرنسية الكبرى (فى ترجمته) وهو ١١ فبراير سنة ٦٤١ م .

ابن عبد الحكم رواية ، ثم يستدرك عليها بقول آخر يصححها ، بل وقع له مثل ذلك فى روايات أخرى كما بينا بعضه فى غير هذا الموضع .

ولو أبقى جناب الأستاذ ڤيت الشطر الأخير من ذلك النص حسب وروده فى النسخ الخطية : "وفتحت لمستهل سنة احدى وعشرين" ونبه الى ما قاله الليث وغيره عن تاريخ وفاة هرقل ، لكان الانسجام تاما بين روايات ابن عبد الحكم كلها ، بل وروايات غيره . ولا أشك فى أن الأستاذ الكبير يوافق على هذا .

وهناك دليل آخر وهو أن النص الذى رجح عند الأستاذ ڤيت ، وجوب تعديله ، وان أورده المقريزى فى خططه ، وفيه تاريخ الفتح " سنة احدى وعشرين " ، فقد كان هذا المؤرخ الجليل حريصا على تأييد هذا التاريخ من وجه آخر ، فقال : وقال أبو عمرو الكندى : وحاصر عمرو الإسكندرية ثلاثة أشهر ثم فتحها عنوة ، وهو الفتح الأول ، ويقال : بل فتحها عمرو لمستهل المحرم سنة احدى وعشرين[1] .

وهذا النص بأكمله وارد فى كتاب ولاة مصر للكندى[2] . وهو منقول عن نسخة خطية ترجع الى ما قبل سنة ٦٢٤ هجرية (١٢٢٧ م)[3] .

وليس هناك خطأ فى رواية المقريزى لقوله : "يوم الجمعة مستهل المحرم سنة احدى وعشرين" . لأنه من الجائز أن يكون المقصود فى الرواية بقوله "يوم الجمعة مستهل المحرم" ، يوم الجمعة الواقع فى الأيام التى يسمى فيها القمر هلالا فى أول الشهر كما تقدم ، وهى الى سبع فى الشهر . وقد تكون إضافة لفظ

(١) الخطط للقريزى ج ١ ص ١٦٥ (٢) ص ٩

(٣) كتاب ولاة مصر ص ٤٧ من مقدمته باللغة الإنكليزية .

الجمعة روعى فيها قول عمر رضى الله عنه، فى كتابه لعمرو بن العاص الذى أورده ابن عبد الحكم فى الفقرة السابقة: " ومر الناس جميعا أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد، وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة، فانها ساعة تنزل فيها الرحمة ووقت الإجابة، وليعج الناس الى الله ويسألوه النصر على عدوهم . الى قوله : " ففعلوا، ففتح الله عليهم " .

ومما يسترعى النظر أن الكندى لم يذكر "يوم الجمعة" لما قال : ان الفتح كان لمستهل المحرم[(١)] .

واذا ضبطنا حساب المدة وهى تسعة أشهر منذ موت هرقل وهو يوم الأحد ٢٣ من صفر سنة ٢٠ هجرية (١١ من فبراير سنة ٦٤١ ميلادية[(٢)]) نجد فتح الإسكندرية يقع قبل مستهل المحرم سنة ٢١ بشهر . وهذا الفرق غير جوهرى لأن النص على التسعة الأشهر قد يكون تقريبيا . وسنرى فى تطبيق ستانلى لين پول لهذا النص أنه تجاوز عن مثل هذه المدة . ولما حسبنا الشهور الخمسة السابقة لموت هرقل وجدناها ترجع الى وقت التجاء الروم الى جزيرة مصر وحصرهم فيها، وقطع الجسر (سبتمبر — أكتوبر سنة ٦٤٠ م) : كأن صاحب الرواية اعتبر حصار الإسكندرية من هذا التاريخ الذى هو فى الحقيقة أول الدور الثانى من فتح مصر، وكانت الإسكندرية هى الهدف الأصلى .

وفى كتاب حنا النقيوسى : ان قيرس بطرك الإسكندرية سافر الى القسطنطينية ثم رجع وبيده تفويض من هرقل يخوله عقد الصلح مع عمرو

---

(١) كتاب ولاة مصر ص ٩ راجع فيما يتعلق بتسمية الهلال « المنجد » ص ٩٥٩

(٢) فتح العرب لمصر للدكتور بتلر ص ٤٧٤ و ٤٨١ و ٤٨٢

بابليون . وقد قبـل فيه جزية شهرية على أهل الإسكندرية وإبقاء العرب تحت يدهم ١٥٠ نفرا من جند الروم و ٢٠ من الأهالى؛ وأن يتعهد المسلمون بالمحافظة على الكنائس وألا يتداخلوا فى شـئون النصارى وكنائسهم؛ وأن يسمحوا لليهود بالإقامة فى الإسكندرية؛ وأن يبق المسلمون مدّة أحد عشر شهرا على مسافة من المدينـة حتى ينتهى جلاء الروم منها . وتم الصلح على هذه الشروط فى أوائل نوفمـبر من سـنة ٦٤١ ميلادية (أوائل ذى القعدة سنة ٢٠ هجرية)، ثم أبحر الروم فى ١٧ من سبتمبر سنة ٦٤٢ ميلادية (الثلاثاء ١٦ من شوّال سنة ٢١ هجرية) [١] .

ويظـهر أن هـذه المفاوضة هى التى قيـل أن صاحب الإسكندرية عرض فيها على عمرو وضع الجزية . وعلى أى حال لم يرد فى الروايات العربية حصول مفاوضات بين العرب وقيرس .

وقـد بحث ستانلى لين پول عن سبب إطلاق اسم بابليون على موضـع المفاوضة فقال : لا يبعـد أن يكون الأصل بلهيب وحرفه النساخ ببابليون ، والا يكون رؤى عند كتابة التفويض وجوب توقيـع المعاهدة فى الجهة التى امتنع فيها الروم عن عقدها أوّل مرة [٢] .

---

(١) سـتانلى لين پول . تاريخ مصر ص ١١ ملحوظة (A History of Egypt under the Saracens) .

وورد فى كتاب فتح العرب لمصر أن العقد كتب فى الثامن من شهر نوفبر سنة ٦٤١ وأن حنا النقيوسى ذكر أن الهدنة عقدت لنحو أحد عشر شهرا تنتهى فى أوّل شهر بابه القبطى الموافق للثامن والعشرين من شهر سبتمبر سـنة ٦٤٢ وقال بتلر هذا تمـام أحد عشر شهرا من الشهور القمرية . وهى أقل اذا حسبنا بشهور الروم، ص ٢٧٧ و (٢) بذيل الصفحة .

(٢) ستانلى لين پول، تاريخ مصر ص ١١ رقم ١

ومن رأيى أن ذلك يرجع الى أن البطـرك وهو بالقسطنطينية لم يكن فى وسعه معرفة المكان الذى يكون فيه عمرو عند رجوعه، فأثبت فى التفويض بابليون وهو الموضع الذى اتخذه عمرو مقرا له بعد فتح مصر .

ويلاحظ فى رواية حنا النقيوسى أنهـا تقرب من الرواية العربية الثانية فيما يتعلق بسنة الفتح وتجعلها راجحة على غيرها .

ومات قيرس البطرك فى يوم ٢١ من مارس سـنة ٦٤٢، وقد استنتج سـتانلى لين پول تاريخ وفاته من قول حنـا النقيوسى ، إنه مات فى ٢٥ مجابيت أى يوم الثلاثاء السابق لعيـد القيامة ، وقال : من ذلك يثبت أن آخر احتفال بعيد القيامة لهذا البطرك، وقد خصه حنا النقيوسى بالوصف ، كان احتفال سـنة ٦٤١؛ وعلى ذلك تكون المفاوضـة التى حصلت على يد قيرس بتفويض من هرقل فى سـنة ٦٤١ لا سنة ٦٤٢ ، ثم قال : وهناك دليل آخر رواه مؤرخو العرب، وهو أن الإسكندرية سلمت بعد تسعة أشهر من موت هرقل ؛ وبما أنه مات فى ١١ من فبراير سنة ٦٤١، والشهر التاسع يوافق (أكتوبر — نوفمبر) ؛ فتكون نهاية المهلة المحـددة بأحد عشر شهرا التى تبتدئ من هـذا التاريخ توافق ١٧ من سبتمبر سنة ٦٤٢، واعتمادا على ذلك قرر : أن التاريخ المتـواتر فى الروايات العربيـة ، وهو مستهل المحرم بسـنة ٢٠ هجرية (٢١ من ديسمبر سـنة ٦٤٠) [1] باطل فيما يتعلق بالشهـر . أما سـنة ٢٠ التى عينها أقـدم الرواة كابن إسحاق والواقدى، ونقلها عنهما الطبرى (ص ٢٢٦) لفتح بابليـون والإسكندرية فانهـا تتفق مع التاريخ

(١) صحته ٢٢ من ديسمبر .

المرقوم ، كما أنها تتفق مع قول ابن عبد الحكم إن الإسكندرية افتتحت فى السنة الثامنة من خلافة عمر بن الخطاب ؛ وهذه السنة تبتدئ فى منتصف سنة عشرين هجرية[1] .

ولى على هذا الاستنباط استدراكان : الأول إن المدّة المحصورة بين وفاة هرقل وبين يوم ١٧ من سبتمبر سنة ٦٤٢ الذى اعتبره نهاية المدة المحدّدة للجلاء هى تسعة عشر شهرا وستة أيام ، أى أنها تنقص عن المجموع الذى يتكوّن من التسعة الأشهر التالية لموت هرقل والأحد عشر شهرا مدّة المهلة التى ذكرها حنا النقيوسى ، لأن مجموع المدّتين عشرون شهرا .

وعلى ذلك يكون ستانلى لين پول ، للوصول الى النتيجة التى أرادها وبالتوفيق بين العشرين شهرا وبين يوم ١٧ من سبتمبر سنة ٦٤٢ الذى ذكره حنا ، أغفل ٢٤ يوما من المجموع الذى يقتضى أن تكون نهاية العشرين شهرا التى تم فيها الجلاء عن الإسكندرية ١١ من اكتوبر سنة ٦٤٢ لا ١٧ من سبتمبر سنة ٦٤٢

والفرق بين نهاية التسعة الأشهر وتاريخ الفتح الذى جاءت به الروايات العربية وهو مستهل المحرم سنة ٢١ ، شهرٌ . لذلك أرانى متمسكا بقولى إن التسعة الأشهر والأحد عشر شهرا ، لم تكن إلا تقديرا تقريبيا . ولا يصح الاعتماد عليها لنقض التاريخ الوارد فى الخبر المسطور .

---

(١) ستانلى لين پول تاريخ مصر ص ١٣ (ملحوظة) . وقد بحثت عن الموضع الذى ذكر فيه ابن عبد الحكم هذا القول فى كتابه فلم أعثر عليه .

والاستدراك الثانى : أن تاريخ أول نوفمبر من سنة ٦٤١ الذى ذكره حنا النقيوسى ونقضه أيضا ستانلى لين پول ، لم يقل عنه حنا إلا أنه تاريخ التوقيع على المعاهدة ، وقد تم فى بلهيب أو بابليون . ولا ضرر من أن نتساهل ونعتبره صحيحا ؛ لأن المدّة المنحصرة بينه وبين يوم ١٠ من ديسمبر سنة ٦٤١ (مستهل المحرم سنة ٢١) ، قد تكون انقضت فى انتقال عمرو الى الإسكندرية وإتمام الإجراءات التمهيدية التى تسبق التسليم وتضمن تنفيذ المعاهدة ، وخاصة اذا كان الفتح تم بالمصالحة . ويؤيد هذا الاحتمال القسم الأخير من حديث ابن جَزْءٍ الزُّبَيْدى ، لأنه صريح فى أنه كانت هناك مفاوضة بين عمرو وبين صاحب الإسكندرية ، كتب عنها عمرو لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وأقام ببلهيب ينتظر أمر عمر ، ثم جاء أمر عمر بالمصالحة على الجزية ، وبعث عمرو الى صاحب الإسكندرية يعلمه الذى كتب به أمير المؤمنين ، فأجابه بقوله : قد فعلت . ثم نظر فى أمر السبايا ووضعت الجزية ثم فتحت الإسكندرية للسلمين فدخلوها ، وانتقل عمرو الى مصر فى ذى القعدة وأخبر عمر بفتح الإسكندرية فسجد وقال : الحمد لله .

وفى أكثر الروايات أن الإسكندرية فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد[1] ، وأن أهلها كانوا يؤدّون الخراج والجزية ، على قدر ما يرى من وَلِيَهُم ، لأنهم لم يكن لهم صلح ولا ذمة .

قال الليث عن يزيد بن أبى حبيب : مصر كلها صلح إلا الإسكندرية فانها فتحت عنوة[2] .

---

(١) فتوح مصر (ليدن) ص ٨٤ . (٢) فتوح مصر (ليدن) ص ٨٤

وقال يحيى بن أيوب وخالد بن حميد : ففتح الله أرض مصر كلها بصلح غير الإسكندرية وثلاث قريات؛ سلطيس ومسيل[١] وبلهيب . ظاهرت الروم على المسلمين فى جمع كان لهم ؛ فلما ظهر عليها المسلمون استحلوهم وقالوا : هؤلاء لنا فىء مع أهل الإسكندرية ، فكتب عمرو بن العاص بذلك الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ؛ فكتب اليه عمر أن يجعل الإسكندرية وهؤلاء القريات ذمة للمسلمين ويضربون عليهم الخراج ؛ ويكون خراجهم وما صالح عليه القبط كله قوة للمسلمين ؛ لا يجعلون فيئا ولا عبيدا ففعلوا ذلك[٢] .

وقد ورد فى حديث زياد بن جزء الزبيدى أنه قال : من زعم ... أن الإسكندرية وما حولها من القرى لم يكن لها جزية ولا لأهلها عهد ، فقد والله كذب . قال القاسم : وإنما هاج هذا الحديث أن ملوك بنى أمية كانوا يكتبون الى أمراء مصر ؛ أن مصر إنما دخلت عنوة ، وإنما هم عبيدنا نزيد عليهم كيف شئنا ونصنع ما شئنا[٣] .

---

(١) ووردت فى رواية " صا " بدلا من مسيل (الخطط للقريزى ج ١ ص ١٦٦) . وذكرها ياقوت فى معجم البلدان بلفظ " مصيل " وقال : " من قرى مصر كانوا ممن أعانوا على عمرو بن العاص فسباهم وحملهم الى المدينة فردّهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه على شرط القبط ؛ " (ثامن ص ٨١) .

وهى ضمن الحوف الغربى وتنسب اليها كورة مصيل . ووردتا فى كتاب تحفة الارشاد باسم محلّى الشيخ ومصيل ؛ وقد اندثرت ومكانها اليوم يعرف بالكوم الأحمر الواقع على بعد سبعة كيلو مترات من الجنوب الغربى لبلدة العطف إحدى قرى مركز المحمودية بمديرية البحيرة . وأما صا فهى البلدة التى تعرف اليوم باسم صا الحجر بمركز كفر الزيات بمديرية الغربية .

(٢) فتوح مصر (ليدن) ص ٨٧

(٣) تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٢٢٧

بحث فى تواريخ الفتح ومراجعة أقوال الدكتور بتلر عنها :

يوافق الدكتور بتلر على أن المفاوضة حدثت وقت الفيضان ، ولكنه يجعلها فى أواخر سبتمبر و يؤخر الوقت الذى بدأ فيه الحصار، فيقول : ان حدوث المفاوضة وقت الفيضان قد اتفق فيه الرواة، وهذا الاتفاق غير مقصود ، فهو يدعو الى تصديق الخبر و يعزز صدق من ذكر من الرواة أن المفاوضة كانت بعد شهر من أوّل الحصار . وقال البعض : ان حدوثها بعد فتح الحصن . ولكن الذين يذهبون الى هذا الرأى الأخير فيهم مثل ياقوت والسيوطى يذكرون أن ذلك كان فى وقت الفيضان ؛ وهذا خطأ إذ أنه ثبت بلانزاع أن أخذ الحصن كان فى أوائل أبريل ،وهو وقت انحطاط النهر.

وزعم أن الحصن لم يفتح إلا بعد موت هرقل ، وأن حملة العرب الأخيرة عليه كانت فى يوم الجمعة السابق لعيد الفصح ، فى اليوم السادس من أبريل سنة ٦٤١ وأن خروج الروم منه كان فى يوم الاثنين وهو عيد الفصح[(١)] ؛ فيكون قد أخر تاريخ الفتح ثلاثة أشهر عما أجمع عليه المؤرّخون . وقد حمل عليهم واتهمهم بأنهم غيروا فى أخبار الفتح و بدلوا حتى خرجوا بها الى حد السخف . وقال : ان الحصن قاوم الى شهر أبريل سنة ٦٤١ ، وأن تلك الأقوال كلها وهم وتضليل وأعرب عن أسفه ، لأن كتاب حنا النقيوسى الذى نقل عنه سقطت منه محتويات الباب الخامس عشر بعد المائة[(٢)] ،

(١) فتح العرب لمصر . ص ٢٢٢ (١) .

(٢) ورد أيضا فى ذيل الصفحة ٢٠٥ من كتاب فتح العرب لمصر أن عنوان الفصل الخامس والستين من كتاب حنا هو : « كيف استولى المسلمون على مصر فى السنة الرابعة عشرة من الدورة القمرية » ولكن لم يرد وصف للاستيلاء فى ذلك الفصل ، و يقول بتلر : "وهذا مثل من مائة مثل مما يدل على نقص الكتاب وتغيير مواضع أخباره" .

وعنوانه : « كيف استولى المسلمون على مصر فى السنة الرابعة عشرة من الدورة القمرية، واستولوا على حصن بابليون فى السنة الخامسة عشرة» . ثم يقول : ان الباب السادس عشر بعد المائة من الكتاب نفسه وارد فيه أن موت هرقل كان "فى السنة الحادية والثلاثين من حكمه فى الشهر المصرى" (يكاتيت) الذى يوافق الشهر الرومانى (فبراير) فى السنة الرابعة عشرة من الدورة. وهى سنة ٣٥٧ للشهداء، وأن الباب السابع عشر بعد المائة ورد فيه أن تسليم حصن بابليون كان فى يوم الفصح (الإثنين) . وأن المقصود بالدورة القمرية، الدورة الديونيسية Dionysien، وكل منها تسعة عشر عاما، وأنها هى التى كان يؤرخ بها فى التقويم الدينى الخاص بالكنيسة، وأن السنة الرابعة عشرة من الدورة القمرية تقع ما بين ٢٣ مارس سنة ٦٤٠ و ٢٢ مارس سنة ٦٤١، وكذلك السنة الخامسة عشرة من الدورة تبدأ من ٢٣ مارس سنة ٦٤١ وتنتهى فى ٢٢ مارس سنة ٦٤٢ (١)

ويستنتج من ذلك :

(١) "أن مدينة مصر فتحت فى السنة الرابعة عشرة من سنى الدورة القمرية المنحصرة بين ٢٣ مارس سنة ٦٤٠ و بين ٢٢ مارس سنة ٦٤١". وهذا لا يعارض قول مؤرخى العرب . وإنما يؤيد أن مصر فتحت فى يوم الجمعة ، مستهل المحرم سنة ٢٠ ؛ لأنه يوافق يوم ٢٢ من ديسمبر سنة ٦٤٠ ميلادية، ويقع خلال الدورة المذكورة ولا يتجاوزها .

(٢) "أن العرب استولوا على حصن بابليون فى السنة الخامسة عشرة من سنى الدورة القمرية المنحصرة بين ٢٣ مارس سنة ٦٤١ و بين ٢٣ مارس

(١) فتح العرب لمصر ص ٤٧٢ — ٤٧٤

سنة ٦٤٢ فى يوم الإثنين (الفصح) أى فى ٩ أبريل سنة ٦٤١"، وأننا مع التجاوز عن مناقشة الدكتور بتلر فى أن أقواله مبنية على عنوان بعض أبواب من كتاب حنا النقيوسى لم يعثر على تفصيلها، نلاحظ أنه يذهب الى وجود فتحين مميزين بعضهما عن بعض : فتح مدينة مصر، وفتح الحصن، وهو ما لم يقل به أحد من مؤرّخى العرب قطعيا . ولا شك فى أنه مبنى على خطأ فى كتاب حنا النقيوسى، نشأ من وضع حصن بابليون بدلا من « حصن الإسكندرية »، لأن فتح الإسكندرية الأول كما سنذكره، كان فى يوم الجمعة أوّل جمادى الآخرة سنة ٢٠ (١٨ مايو سنة ٦٤١) ، وهناك ظاهرة قوية فى قول بتلر، تدل على أنه وهو يذكر فتح حصن بابليون فى ٩ من أبريل سنة ٦٤١ يلجأ الى مؤرّخى العرب لتأييد قوله ، فيقول وهو يتكلم عن حصن بابليون : " هذا اليوم " هو تاريخ "فتح مصر"، أو بعبارة أصح: تاريخ فتح مدينة مصر. وأوثق المؤرّخين يجعلون ذلك فى سنة ٢٠ للهجرة كما ذكره المقريزى . ومن بين هؤلاء الثقاة ابن قتيبة، وابن بطريق، وياقوت ، وأبو المحاسن، وابن كثير، والواقدى، وأبو معشر ... الخ، على أنهم لايتفقون جميعا فى قصدهم من عبارة "فتح مصر"، فبعضهم يعنى بها حصن بابليون وبعضهم يقصد بها فتح الإسكندرية، وأن الطبرى يجعل فتح بابليون فى ربيع الثانى سنة ٢٠ للهجرة (٢٠ مارس — ١٧ من أبريل سنة ٦٤١) وعلى ذلك فهو متفق كل الاتفاق على ما جاء فى كتاب حنا النقيوسى .

وانى أوافق الدكتور بتلر على قوله : أن المؤرّخين الثقاة أجمعوا على أن مصر فتحت فى سنة ٢٠ للهجرة، ولكنى مع ذلك أقول بأن هناك مغالطة مكشوفة فى كلامه لا تحتاج الى إمعان فى البحث أو تفسيرات جديدة كالتى

تقابلنا فى كل خطوة من كتابه ، لأنه ينسب فى بيانه المتقدّم الى الطبرى أنه جعـل فتح بابليون فى ربيع الثانى سنة ٢٠ للهجرة (٢٠ مارس — ١٧ من أبريل سنة ٦٤١) ، وهذا الزعم باطل وغير صحيح ، لأن الطبرى لم يقل أبدا ان مصر فتحت فى ربيع الثانى من سنة ٢٠ للهجرة ، وإنما روى عن سيف قوله : " ان مصر افتتحت والإسكندرية فى ربيـع الأول من سـنة ست عشرة " . وقد تكررت هذه الرواية فى كتابه مرتين[1] وقال فى الأولى: وأما سيف فانه زعم فيما كتب به الى السرى عن شعيب عن سيف ... الخ". فكان ايراده للرواية ، على أنها زعم لا كأمر متيقن منه . أما خبر الفتح فقـد أورده هذا المؤرخ الكبير كغيره فى حوادث سـنة ٢٠ هجرية ، وهو دليـل قاطع بأنه التاريخ المعتمد عنده .

وزيادة على ذلك جاء فى تاريخ الطبرى صريحا : " أن فتح بابليون كان سابقا على الزحف على الإسكندرية ، وأن ارتقاء الزبير رضى الله عنـه على السور وفتح الحصن كان سابقا على توقيع كتاب الصلح" . وإذن لا يبـقى مجال لقول الدكتور بتلر : ان الروم والعـرب اتفقا على أن تبقى الجيـوش حيث هى الى أن يجىء رد هرقل ، ولا سيما الحصن على أن يبقى مع الروم الى أن يقرّ هرقل الصلح[2] . لأن هذا القول لم يسند بأى رواية أو دليل مقنع . وقد سـبقه اعتراف منه قال فيـه : "وهنا ينسدل سـتار على الحوادث كما يحدث فى كثير من الأحيان فى تاريخ هذا العصر ، فلم يبق لنا إلا أن نتلمس

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ، " المطبعة الحيسنية " ج ٤ ص ٢٢٦ و ٢٣٠ وطبعـة ليدن ج ٥ (القسم الأوّل) ص ٢٥٩٢

(٢) فتح العرب لمصر ص ٢٢٩

ما كان ونتحسس أخباره من وراء ذلك الستار[١] . وقال : ونحن مضطرون للاعتماد عليهم (يعني كتاب العرب) وحدهم ، لأن كتاب حنا لا يرد فيه شيء عن ذلك[٢] . واذا كان الأمر كذلك فلم هذا التحوير والتغيير في الروايات المسندة .

ومن الغريب أنه رغم هذا الاعتراف ، يذهب الى التصرف في أخبار الوقائع بالطريقة المتبعة في الروايات والقصص ويقرر ما يخالف الأقوال المتواترة المسندة الى الرواة ، ويأتي من عنده باستنتاجات غريبة للتخطئة والتكذيب وإضعاف الثقة بهؤلاء الرواة .

على هذا السياق أفرد بابا عنوانه : « تواريخ الفتح العربي » تكلم فيه عن المراجع الكبرى اليونانية والسورية والأرمنية ، فقال عن المراجع اليونانية : انها لا قيمة لها ، وان مؤرخي السوريين والأرمن لا يفضلون اليونانيين . وقال عن العرب : انهم مثل اليونانيين في إغفال ذكر الحوادث والخلط والتناقض ، وان درس كتبهم وان لم يخل من فائدة فان بينهم خلافا عظيما . ومن الواضح أنه لا يمكن التوفيق بينهم فيه .

واستعرض كبار المؤرخين واحدا واحدا ، وذكر ما قال كل منهم عن تواريخ الفتح وناقشه وزعم أن المؤرخين حتى أقدمهم من الذين كتبوا بعد الفتح بمائتي عام وجدوا أن أخبار الفتح غير جلية ؛ وقد نسي ترتيب الحوادث فيها . وقد رأيت أن أراجع ذلك لأعلم مدى الاختلاف الذي نسبه لكل

---

(١) فتح العرب لمصر ص ٢٢٧

(٢) فتح العرب لمصر ص ٢٢٧ (١) .

منهم ، وهل هو حقيقة من الأهمية بحيث يتعذر التوفيق بينه وبين ما أورده غيره ؟

استعراض أقوال كبار المؤرخين عن تواريخ الفتح ووقائعه :

محمد بن اسحاق المتوفى فى سنة ١٥١ هجرية (٧٦٨ — ٦٩ م) — حديث مداهمة جيش عمرو فى صلاة الجمعة :

قال : انه بعد فتح الشام فى سنة سبع عشرة[١]، كتب أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه الى أبى عبيدة عامر بن الجراح ، يأمره بأن يوجه عمرو بن العاص بعسكره الى مصر . وذكر محادثة بين المقوقس وقيس ابن سعد فى أواخر شعبان ؛ ولم يعين السنة ، وقال : ان ارسطوليس بن المقوقس سم أباه فمات فى رمضان[٢] . وقد أثبت المرحوم اللواء محمد مختار باشا فى كتابه « التوفيقات الإلهامية » فى توقيعات شهر شعبان سنة ١٩ من الهجرة كما تقدم أنه : " فى أواخر هذا الشهر ، كانت مكالمة المقوقس صاحب مصر لقيس بن سعد مندوب عمرو بن العاص ، وفى أوائل رمضان من السنة المذكورة قتل أرسطوليس بن المقوقس والده وأقام نفسه بدله وأخفى الأمر من العامة[٣] " . والمتبادر أن ما ذكره المرحوم محمد مختار باشا مصدره كتاب ابن اسحاق . وقد تكون قصة قتل المقوقس مصدر الخبر الذى رواه البلاذرى بأن المقوقس مات قبل غزاة الإسكندرية[٤] .

(١) فتوح مصر وأعمالها ص ٣

(٢) فتوح مصر وأعمالها ص ٦

(٣) فتوح مصر وأعمالها ص ٢٣ والتوفيقات الإلهامية ص ١٠

(٤) فتوح البلدان ص ٢٢٣

وقال ابن اسحاق : ان عمرو بن العاص ومن معـه كانوا يصلون الجمعة فدهمهم ٤٠٠٠ مقاتل وهم ساجدون فى الركعة الثانيـة، وقتلوا منهم أربعمائة وستة وثلاثين رجلا، وسـلم عمرو مع البـاقين، ولم ينج من المهاجمين نفر واحد . وقد ذكر المرحوم محمد مختار باشا هذا الخبر فى توقيعات سـنة ١٩ أيضا . وقال : ان هـذه الواقعة حدثت فى ٢٢ رمضان من تلك السـنة [١] . وقد أثبتنا هذا الخبر على علاته وان كنا لا نميل الى تصديقه .

وذكر ابن اسحاق « قصر الشمع » وقال : سمى بذلك لأنه كان لا يخلو من الشمع [٢] . وقال : ان عمرا بعـد فتح القصر واستلامه، عمد الى كنيستهم فعملها جامعا يعـرف الى يومنا هـذا بجامع عمرو بن العـاص [٣] . وقد ذكر ابن إسحاق هذه الكنيسة فى موضع آخر، وقال ان اسمها «ديرباليس» وقال وهى الجامع اليـوم [٤] . وذكر وقائع الفتـح، وقال : انهـا وقعت مع جيش القبـــط .

وقد ذكر ابن خلكان « ابن اسحاق » فى وفيات الأعيان، قال : وكان محمـد المذكور ثبتا فى الحديث عنـد أكثر العلماء، وأما فى المغازى والسـير فلا تجهل إمامته [٥] .

---

(١) فتوح مصر وأعمالها ص ٣١ — ٣٥ والتوفيقات الالهامية ص ١٠

(٢) فتوح مصر ص ٢٦ (٣) فتوح مصر ص ٩٢

(٤) فتوح مصر ص ٢٦ و ٢٧؛ ومن المفهـوم أن هنـاك خطأ؛ لأن دير باليس محرف ولا شك عن « دير بولص »، وهو دير صغير قائم على غور بين الأطلال التى فى جنوب الحصن؛ وقد ذكره الدكتور بتلر ص ٢١٧ (٢) .

(٥) ج ١ ص ٦١٢

وقال شمس الدين السخاوى : "وأما المغازى فمن أشهرها كتاب محمد بن اسحاق ، وكان يأخذ من أهل الكتاب"[1] . وقد روى الطبرى عنه كثيرا فى تاريخه ؛ وما رواه من مصدر غير المغازى .

محمد بن عمر الواقدى (١٣٠—٢٠٧ هجرية = ٧٤٧—٨٢٣ م):

نشر مستر هنريك كتابه « فتوح مصر والإسكندرية » على حدة بليدن فى سنة ١٢٤١ من الهجرة (١٨٢٥ م) . وطبع بمصر ضمن كتاب « فتوح الشأم » للواقدى نفسه بالمطبعة الكاستلية فى سنة ١٢٨٢ ه ص ٥٧ — ٨٩

و بمراجعة ما طبع من الواقدى على كتاب فتوح مصر لابن اسحاق ظهر انهما كتاب واحد ، مع وجود تحريف فى بعض العبارات وزيادة نحو صفحة ونصف فى كتاب ابن اسحاق ، كما يتبين من مراجعة الصحف ٥٩ و ٦٨ و ٨٠ من هذا الكتاب الأخير على الصحف ٩٣ و ١٠٧ و ١٤٣ من الكتاب الأول

وفى الواقدى[2] ذكر، أن مخاطبة المقوقس لقيس بن سعد كانت فى أواخر شعبان سنة عشرين من الهجرة ، وقد زيدت كلمة « عشرين » خطأ، وهى غير موجودة فى ابن اسحاق .

ومما يلاحظ أن الواقدى يصرح فى كتابه بأنه نقل عن ابن اسحاق الأموى المعتمد عليه فى فتوح أرض مصر، لأن أصحاب السير اشتغلوا بوقائع العراق وفارس وفتوحهما ، وتركوا فتوح الشام وأرض مصر الى ما بعد، وكان

---

(١) تمييز الطيب من الخبيث ص ١٩٨ . وفى المعارف لابن قتيبة عن المعتمر ، قال ، قال أبى : لا تأخذن من ابن إسحاق شيئا فانه كذاب ، ص ٢١٥ (٢) طبع مصر ج ٢ ص ٧٠

قد ارتج عليهم شيء يسير من الوقائع فتركوه لأجل الزيادة والنقصان فيه ؛ وانما تفرد به ابن اسحاق لأنه أخذه عن مشايخ ثقات وثق بهم[1] ... باختصار .

وقد ذكره ابن خلكان فى وفيات الأعيان فقال : "كان إماما عالما له التصانيف فى المغازى وغيرها... وضعفوه فى الحديث وتكلموا فيه"[2] .

وقال السخاوى : وقد قال الشافعى : كتب الواقدى كذب[3] .

عبد الرحمن بن عبد الحكم ، ولد حوالى سنة ١٨٧ هجرية (٨٠٢—٣ م) وتوفى فى سنة ٢٥٧ (٨٧١ م) :

تضمنت رواياته بعض بيانات ساعدت على تعيين شطر من تواريخ الفتح . من ذلك ؛ قوله : ان عمرا طلب من عمر أن يأذن له بالسير الى مصر ، وعمر بالجابية فى رواية ؛ وبعد فتح الشام فى رواية أخرى .

وقوله : ان عمرا وصل الى العريش فى يوم النحر . ولما كانت سنة سبع عشرة هى التى كان فيها عمر بالجابية وتم فيها فتح الشام ، فيكون يوم النحر المذكور هو يوم ١٠ من ذى الحجة سنة ١٨ هجرية .

وقوله : وكان مكث المسلمين على باب القصر حتى فتحوه سبعة أشهر .

وقوله عن المقوقس وجماعة من أكابر الأقباط : وخرجوا من باب القصر القبلى وتركوا به جماعة يقاتلون العرب ، فلحقوا بالجزيرة (جزيرة الروضة الآن) وأمروا بقطع الجسر وذلك فى جرى النيل[4] .

---

(١) فتوح مصر وأعمالها ص ١٢ (٢) ج ١ ص ٦٤٠

(٣) تمييز الطيب من الخبيث ص ١٩٨ (٤) الخطط للقريزى ج ١ ص ٢٩٠

وقوله : فلما تم الفتح للمسلمين بعث عمرو جرائد الخيل الى القرى التى حولها فأقامت الفيوم سنة لا يعلم المسلمون بمكانها .

وقوله : وكان حصار الإسكندرية تسعة أشهر بعد موت هرقل وخمسة أشهر قبل ذلك .

وقد ذكر ابن خلكان، عبد الرحمن بن عبد الحكم فى وفيات الأعيان، فى ترجمة أبيه ، فقال : وكان لأبى محمد المذكور ولد آخر يسمى عبد الرحمن من أهل الحديث والتواريخ صنف كتاب فتوح وغيره[1] .

ابن قتيبة الدينورى (٢١٣ — ٢٧٦هـ = ٨٢٨—٨٨٩ م) :

قال : كانت واقعة بابليون سنة عشرين ؛ وأميرها عمرو بن العاص . وقال : وأما مصر ففتحت صلحا على يدى عمرو بن العاص[2] .

وذكر ابراهيم ابن مارية القبطية[3] وذكر المقوقس ، فقال : ملك الإسكندرية[4] .

البلاذرى المتوفى فى سنة ٢٧٩ هجرية (٨٩٢—٩٣ م) :

روى أن عمر كتب الى عمرو بن العاص يأمره بالشخوص الى مصر فوافاه كتابه وهو محاصر قيسارية . وقال : وقالوا : وكان مسير عمرو الى مصر فى سنة تسعة عشرة (وهى تبدأ فى ٢ يناير سنة ٦٤٠) فنزل العريش[5] .

وقال : ومضى عمرو قدما الى الفسطاط (بعد الانتهاء من أم دنين)[6] .

---

(١) ج ١ ص ٣١٢
(٢) المعارف ص ٧٩
(٣) المعارف ص ٦١ و ٦٢
(٤) الكتاب المذكور ص ٦٢
(٥) فتوح البلدان ص ٢١٤
(٦) فتوح البلدان ص ٢١٤

وقال : ولم يلبث عمرو وهو محاصر أهل الفسطاط أن ورد عليه الزبير ابن العوام[(١)] . وروى مسندا الى أسامة بن زيد عن أبيه عن جدّه : أن عمرو ابن العاص فتح مصر فى سنة عشرين ومعه الزبير . وقال : وفتح الحصن عنوة واستباح المسلمون ما فيه[(٢)] .

وروى أن عمرو بن العاص لما فتح الفسطاط وجه البعوث الى عين شمس والفيوم والأشمونين وإخميم والبشرودات ، وقرى الصعيد وتنيس ودمياط وتونة... الخ . فغلب على أرضها وصالح أهل قراها على مثل حكم الفسطاط[(٣)] . وقال : إن عمر أمر عمرا بالزحف الى الإسكندرية فى سنة إحدى وعشرين (١٠ من ديسمبر سنة ٦٤١ — ٣١ من أكتوبر سنة ٦٤٢) .

وقد زعم الدكتور بتلر : أن البلاذرى يذكر أن وقعة عين شمس وغزوة الفيوم كانتا بعد فتح حصن بابليون . وهذا القول إما أن يكون خطأ أو جىء به للمغالطة ، لأن البلاذرى لم يتعرّض فى هذا الخبر لوقعة عين شمس ، وانما قال : إن عمرا أرسل من أنابهم عنه الى جميع القرى بعد الفتح . فغلبوا على أرضها — أى وضعوا اليد عليها وصالحوا أهلها على مثل صلح بابليون — وصارت أرضها أرض خراج[(٤)] . ولم يكن ذلك إلا كإجراء تكميلى لمعاهدة الصلح التى تمت بين عمرو والمقوقس عن قبط مصر .

وروى خبرا لم يذكر قائله ، جاء فيه : أن عمرا لما انتهى الى الإسكندرية أرسل اليه المقوقس يسأله الصلح والمهادنة الى مدة فأبى عمرو وأشار المقوقس على أصحابه بالإذعان فأغلظوا له القول ، وأن عمرا فتحها بالسيف[(٥)] .

---

(١) فتوح البلدان ص ٢١٤

(٢) فتوح البلدان ص ٢١٥ و ٢٢٠

(٣) فتوح البلدان ص ٢١٨

(٤) فتوح البلدان ص ٢١٨

(٥) فتوح البلدان ص ٢٢٢

الطبرى (٢٢٤ — ٣١٠ هجرية = ٨٣٩ — ٩٢٣ م) :

دوّن خبر فتح مصر فى سنة عشرين ثم ذكر أقوال ابن اسحاق وأبى معشر والواقدى، والأخير عن ابن سعد وقد أجمعوا على أن مصر فتحت فى سنة عشرين . وقال : ان سيف زعم أنها فتحت فى سنة ست عشرة [(١)] . وروى له حديثا مسندا الى عمرو بن شعيب قال فيه : افتتحت مصر فى ربيع الأول سنة ست عشرة [(٢)] .

وذكر فتح الإسكندرية فقال : ان بعض الناس يزعم أنها فتحت فى سنة خمس وعشرين . وروى حديثا عن زياد بن جزء الزبيدى ، وكان فى جند عمرو، قال : افتتحنا الإسكندرية فى سنة احدى وعشرين أو سنة اثنتين وعشرين .

وقال : ان عمرو بن العاص خرج الى مصر بعد ما رجع عمر الى المدينة .

وروى عن سيف أنه لما كان ذو القعدة من سنة ست عشرة وضع عمر رضى الله عنه مسالح مصر على السواحل كلها . وكان داعية ذلك أن هرقل أغزى مصر والشام فى البحر ونهد لأهل حمص بنفسه، وذلك لثلاث سنين وستة أشهر من إمارة عمر رضى الله عنه .

وقد نسب الدكتور بتلر الى الطبرى أنه يذكر أن الأمر بفتح مصر بلغ عمرا فى أوائل سنة ٢٠ للهجرة (أواخر شهر ديسمبر سنة ٦٤٠) ؛ ويذكر أيضا أن فتح بابليون كان على وجه التعيين فى ربيع الثانى من السنة عينها ، وأن بين هاتين العبارتين لتناقضا، فإن من المحال أن يكون حصن بابليون

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٢٢٦
(٢) تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٢٣٠

قد فتح بعد ثلاثة أشهر من ورود الأمر الى عمرو وهو فى فلسطين ، بأن يغزو مصر . ثم أخذ الدكتور بتلر يعزز صحة التاريخ الثانى وهو ربيع الثانى سنة عشرين .

ولم يكن فى كل ذلك على صواب لأن الطبرى لم يذكر إلا ما أثبتناه ، ولم يقل إن مصر فتحت فى ربيع الثانى سنة عشرين . وقد تقدّم الكلام عن هذا التاريخ ، بمناسبة اعتماد الدكتور بتلر عليه فى نقض تاريخ الفتح الذى أجمع عليه أكثر الرواة .

ونسب الدكتور بتلر أيضا الى الطبرى أنه قال : ان الإسكندرية سلمت بعد حصار خمسة أشهر وأنه يجعل تسليم الإسكندرية يقع قبل حصار مصر أو بابليون(١) . ولم يرد فى كلام الطبرى مثل هذا .

الكندى (سنة ٢٨٣ — ٣٥٠ هجرية = ٨٩٧ — ٩٦١ م)(٢) :

لم يذكره الدكتور بتلر، وقد جاء فى رواياته أن عمرا استأذن عمر فى المضى الى مصر فى سنة تسع عشرة وأنه بلغ العريش ثم تقدّم الى الفرما وبها جموع الروم فقاتلهم وهزمهم ، ثم سار وهم يقاتلونه ويهزمهم الى بلبيس فأم دنين ثم الى الحصن ؛ وأقام محاصرا الى أن فتحه سبعة أشهر .

وقال : إن مصر فتحت فى يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين .

وقال : إن عمرا لما حاز الحصن بما فيه أجمع على السير الى الإسكندرية ، فسار اليها فى ربيع الأول سنة عشرين وحاصرها ثلاثة أشهر ثم فتحها

(١) فتح العرب لمصر ص ٢١٩

(٢) ولد فى ١٠ من ذى الحجة سنة ٢٨٣ (١٧ من يناير سنة ٨٩٧ م) وتوفى بالفسطاط فى ٣ من رمضان سنة ٣٥٠ ﻫ (١٥ من أكتوبر سنة ٩٦١ م) ؛ كما ورد فى مقدمة كتاب تاريخ مصر وولاتها باللغة الإنكليزية .

عنوة وهو الفتح الأول . وقال، ويقال : بل فتحها مستهل سنة إحدى وعشرين (١) .

الأنبا ساويرس أسقف الأشمونين « ابن المقفع » (أوائل القرن العاشر الميلادى) — تصحيح قوله عن تاريخ هبوط جيش المسلمين الى مصر وبيان تأييده للرواية العربية :

ورد فى كتابه أن أمير المؤمنين أرسل جيشا بقيادة عمرو فى سنة ٣٥٧ للشهداء ، وأن جيش المسلمين هبط الى مصر فى قوة عظيمة فى ١٢ بؤونه أى فى شهر ديسمبر الرومانى (٢) .

وقال الدكتور بتلر : اذا كان المقصود هو ديسمبر سنة ٣٥٧ للشهداء كان ذلك ديسمبر سنة ٦٤٠ وليس سنة ٦٤١ ، وقد جاء فى الديوان الشرقى : انه فى ١٢ بؤونة سنة ٣٥٧ للشهداء جاء عمرو الى مصر وفتحها . ولكن ١٢ بؤونة للشهداء توافق ٦ يونية سنة ٦٤١ ، وقال : ان تواريخ ساويرس لا تساعد على جلاء الظلمة (٣) .

وقال المقريزى : بعد أن ذكر تاريخ الفتح على المشهور، وقيل : كان فتح مصر فى ثانى عشر من بؤونه سنة سبع وخمسين وثلثمائة لدقلطيانوس . ثم قال : فعلى هذا يكون فتح مصر فى سنة تسع عشرة من الهجرة . وتحرير ذلك أن الذى بين يوم الجمعة أول يوم من ملك دقلطيانوس ، وبين يوم الخميس أول سنة الهجرة ٣٣٨ سنة فارسية و ٣٩ يوما ، فاذا ألغينا ذلك من تاريخ مصر فى ثانى عشر بؤونة سنة ٣٥٧ ، بقى ١٨ سنة و ٨ أشهر و ٣ أيام .

(١) كتاب ولاة مصر ص ٧ — ٩
(٢) فتح العرب لمصر ص ٤٦٨
(٣) فتح العرب لمصر ص ٤٦٨

وهذه سنون شمسية ، عنها من سنى القمر ١٩ سنة وشهر و ١٣ يوما ، فيكون ذلك فى ١٣ ربيع الأول سنة ٢٠ ؛ فلعل الوهم وقع فى الشهر القبطى [١] .

وقد ظهر لى أن الخبر الذى أورده المقريزى نقله محرفا ، وهو ولا شك عن مصدر قبطى . واذا تنبهنا الى أن النص الذى أورده بتلر لساويرس عن خبر الفتح مضطرب فى قوله : " إن أمير المؤمنين عمــر أرسل جيشا بقيادة عمرو فى ســنة ٣٥٧ للشهداء ، وان جيش المسلمين هبــط الى مصر فى قوة عظيمة فى ١٢ بؤونة . أى فى شهر ديسمبر الرومانى " ، لأن الشطر الأول من النص جمع بين أمرين : تاريخ فتح مصر ، وتاريخ وصــول جيش عمرو الى بابليون فى العام الذى قبله . وقد ذكرت فيه ســنة الفتح دون أن يذكر الفتح ، فترتب على ذلك وقوع التباس اذا لم يتنبه اليه يتخيل للقارئ أنه تاريخ ارسال جيش عمرو . وهــذا يخالف الواقع ، لأن إرسال الجيش الى مصر لم يتأخر كثيرا عن عودة أمير المؤمنين عمــر الى المدينة بعــد فراغه من الشام ، كما نصت عليه الروايات جميعا ؛ ولا يمكن أن يتجاوز يوم ١٠ من ذى الحجة سنة ١٨ الذى وصل فيه عمرو الى العريش ، على أى حال . وعلى ذلك يجب رد الشطر الأول الى أصله بأن يذكر الفتح فيستقيم المعنى ، ويبقى الشطر الثانى من النص كما هو بعد تقديم جملة " أى فى شهر ديسمبر الرومانى " ، الى محلها الأصلى أى فى نهاية الشطر الأول . وعندئذ يأخذ النص الأصلى وضعه الصحيح كما كان قبل أن تصل اليه يد الناسخ ويقع التحريف وهو :

" إن أمير المؤمنين عمر أرسل جيشا بقيادة عمرو فتح مصر فى سنة ٣٥٧ للشهداء أى فى شهر ديسمبر الرومانى (الموافق المحرم ســنة ٢٠) وإن جيش

---

(١) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٢٩٩

المسلمين هبـط الى مصر فى قـوة عظيمة فى ١٢ بؤونة ، أى فى ٦ يونيـه سنة ٦٤٠ " .

ويتبين من ذلك أن التاريخ الذى فتحت فيـه مصر على القول المشهور فى الروايات العربية مؤيد من جهـة أخرى بالنص القبطى الوارد فى كتاب ساويرس؛ وأن هـذا النص فى الوقت نفسـه يعين تاريخ هبوط القوات الإسلامية على بابليون .

وقد ذكرنا فيما تقدّم ، نقلا عن توقيعات المرحوم محمد مختار باشا اللواء أن مكالمة المقوقس ، كانت فى آخر شعبان سنة ١٩ من الهجرة، ويوافق ذلك اغسطس سنة ٦٤٠ .

وعلى ذلك يكون المراد من قول ساويرس ان جيش المسلمين هبط الى مصر فى قوة عظيمة ؛ هو اجتماع عمرو والزبير عند وصول المدد الى بابليون على ما ذكره الطبرى فى تاريخه .

وقـد بينا فيما تقدّم من هـذا الكتاب ، فى الكلام على وصف زحف عمرو أن المـدة التى استغرقها القتـال بين عمرو والروم من وقت مغادرته العريش الى أن وصل جنان الريحان و إقامته بها فى انتظار المدد مع احتساب الزمن الذى استلزمه عمرو بجنده الى أن اجتمع بالزبير الذى جاء على أثره مع المدد ببابليون؛ يوصلنا الى ٦ يونية سنة ٦٤٠ الذى قال ساويرس الأشمونينى إن جيش المسلمين هبط فيه الى مصر فى قوة عظيمة . وقد ورد فى الديوان الشرقى أنه فى ١٢ بؤونه سـنة ٣٥٧ للشهداء جاء عمرو الى مصر وفتحها . وهو لا يخـرج عن ملخص النص الذى ذكره ساويرس ؛ و إنمـا وقع فيه

التحريف بالجمع بين تاريخ هبـوط الجيش وفتح مصر ؛ ولا يبعد أن يكون « الديوان الشرقى » هو المصدر الذى نقل عنه المقريزى قوله المتقدّم .

وفى هذا دليل على أن هذا المؤرّخ الجليل كان فى نقله صادقا متحريا ، بعيدا عن الانحراف ، لا يفوت عليه التحريف والخطأ فى النقل .

وبذلك يسـقط اعتراض الدكتور بتلر على النص الذى نقله عن كتاب ساويرس وقوله : إن تواريخه لا تساعد على جلاء الظلمة[١] .

ابن زولاق (٣٠٦ — ٨٧ ﻫ = ٩١٨ — ١٩) .

ورد فى رفع الإصر : وذكر ابن زولاق فى تاريخـه الذى على السـنين فى حوادث سنة عشرين : فتحت مصر فى أوّل المحرم منها وولى عمر عمرو ابن العاص حربها وخراجها[٢] .

أبو صالح الأرمنى (كتب حوالى سنة ١٢٠٠ م)[٣] :

يتفق مع غيره وهم الأغلبية من المؤرّخين ، فى أنّ مصر فتحت فى مستهل المحرم من عام عشرين .

ياقوت (سنة ٥٧٤ — ٦٢٦ ﻫ = ١١٧٨ — ١٢٢٩) :

لخص خبر السير الى مصر عن الليث بن سعد ، وعبد الله بن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب ، وعبيد الله بن أبى جعفر ، وعياش بن عباس القتبانى ويقول عنهم : "وبعضهم يزيد عن بعض فى الحديث"[٤] .

---

(١) فتح العرب لمصر ص ٤٦٨ .

(٢) تاريخ مصر وولاتها وقضاتها ص ٣٠١ بذيل الصفحة رقم ٢

(٣) ورد بالصفحة الرابعة من تاريخه ما يفيد أنه كان موجودا فى سنة ٥٦٨ ﻫ هجرية الموافقة لسنة ٨٨٨ من تاريخ الشهداء (١١٧٢ م) .

(٤) معجم البلدان ج ٦ ص ٣٧٧

ولم يخرج فى ما نقله عن روايات ابن عبد الحكم والكندى، فذكر خبر استئذان عمرو فى سنة ١٨ هـ، وإنما قال: إن أول موضع قوتل فيه عمرو الفرما نحو شهرين، ثم بلبيس نحوا من الشهر ثم أم دنين نحو شهرين [١]. وفى هذا التفصيل زيادة بقدر شهرين عما ورد فى فتوح مصر لابن عبد الحكم؛ ولعل الاختلاف ناشئ عن خطأ فى نقل روايات ابن عبد الحكم.

وقد استنتج الدكتور بتلر من البيان المتقدم: أن فيه الدليل على أن القتال استمر ستة أشهر من أول الغزوة مع حساب المدة اللازمة للسير وأن هذا يوصلنا بدقة عظيمة من ١٢ ديسمبر الى ٦ يونية [٢].

نفى الخطأ والتناقض عن أقواله:

وقال بتلر ان ياقوت يقول: "إن عمرا عند ذلك أرسل يطلب الأمداد وان فتح الحصن كان فى مدة فيضان النيل". وان ذلك فى سبتمبر أو بعد ذلك بقليل. على أن ذلك الكاتب (ياقوت) يقول بعد صفحة أو قريبا من ذلك ان فتح بابليون كان فى يوم الجمعة أول المحرم من سنة ٢٠ للهجرة ٢١ من ديسمبر سنة ٦٤٠)، وهو التاريخ الذى يذكر عادة أن الإسكندرية قد فتحت فيه. وفى هذا ما فيه من التضليل [٣].

وانى لا أفهم أين هو التضليل الذى يذكره الدكتور بتلر؟ ياقوت يقول: ان المسلمين أحاطوا بالحصن وأقاموا على بابه محاصرى الروم سبعة أشهر؛ ولما رأى المقوقس أنهم قد ظفروا بالحصن لحق هو وأهل القوة بالجزيرة وقطعوا الجسر وتحصنوا هناك، والنيل حينئذ فى مده. وسأل المقوقس فى الصلح وبعث اليه عمرو عبادة ثم صالحه المقوقس فكان فتح مصر فى يوم

(١) معجم البلدان ج ٦ ص ٣٧٧ و ٣٧٨ (٢) فتح العرب لمصر ص ٤٦٨
(٣) فتح العرب لمصر ص ٤٦٩

الجمعة مستهل المحرم سنة ٢٠ للهجرة[1] . وبعد أن حاز عمرو ومن معه ما كان في الحصن أجمع على المسير الى الإسكندرية فى ربيع الأول سنة عشرين (فبراير — مارس سنة ٦٤١) .

وهذه الأقوال هى التى وردت فى روايات ابن عبد الحكم وتاريخ الفتح ولم تتغير . أما قول بتلر ان تاريخ أول المحرم سنة ٢٠ هو التاريخ الذى يذكر عادة أن الإسكندرية فتحت فيه فلا يتفق مع الواقع ، لأن سير عمرو الى الإسكندرية كان فى ربيع الأول سنة عشرين ، وقد ذكره الكندى وياقوت والمقريزى ولم يرد أبدا على صورة صحيحة فى الروايات الأصلية أن الإسكندرية فتحت فى أول المحرم سنة ٢٠ للهجرة (٢١ من ديسمبر سنة ٦٤٠) . وما قيل فيها هو : انها فتحت فى يوم الجمعة أول جمادى الآخرة سنة ٢٠ هجرية (١٨ من مايو سنة ٦٤١) وهو الفتح الأول ثم كرّ عليها عمرو مرة أخرى ، لما عاد اليها الروم وفتكوا بمن فيها من المسلمين فى مستهل المحرم سنة ٢١ وهو الفتح الثانى كما تقدم[2] .

ولم يذكر ياقوت الشهر الذى فتحت فيه هذه المرة بل اكتفى بقوله : وفتحت الإسكندرية سنة عشرين من الهجرة[3] ... بعد قتال وممانعة .

ولا يبعد أن يكون الدكتور بتلر اعتمد فى قوله على كتاب حسن المحاضرة للسيوطى فانه هو الذى انفرد ، على ما أعلم ، بذكر ذلك التاريخ خطأ كما رأيته فى النسخة التى تحت يدى المطبوعة فى سنة ١٣٢١ هـ بمصر[4] بالصفحة رقم ٦٧ س ١٠ فقد ورد فيها هذا النص : وحاصروا الإسكندرية تسعة أشهر بعد موت هرقل وخمسة قبل ذلك . وفتحت يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين .

---

(١) معجم البلدان ج ٦ ص ٣٧٩ (٢) الخطط للمقريزى ج ١ ص ١٦٥

(٣) معجم البلدان ج ١ ص ٢٤٣ (٤) بمطبعة الموسوعات .

ولكن هذا النص نقل مع تصرف فى الألفاظ وسقط منه لفظ « احدى » قبل كلمة « عشرين » ، والنص الصحيح وارد فى كتاب الخطط للقريزى هكذا : " وكان حصار الإسكندرية بعد موت هرقل تسعة أشهر وخمسة أشهر قبل ذلك ، وفتحت يوم الجمعة لمستهل المحرم سنة احدى وعشرين (١٠ من ديسمبر سنة ٦٤١) [١] وقد تقدّم ذكره . وسنعود للكلام عن النص الوارد فى السيوطى .

ومن المدهش أن الدكتور بتلر يتحرّى عن النص الواقع فيه الخطأ ويعتمد عليه ، ويترك الأصل الصحيح المنقول عنه رغم اطلاعه عليه فى خطط المقريزى وإثباته فى كتابه فى الصفحة التالية [٢] .

والأغرب أن يجعل التاريخ المذكور خطأ ، أنه هو الذى يذكر عادة أن الإسكندرية فتحت فيه .

ولا يفوتنا أن مستهل المحرم سنة ٢١ اذا أردنا به غرة الشهر كما تقدّم ، يكون يوم الاثنين لا يوم الجمعة [٣] . وقد بينا فيما تقدّم الفرق بين مستهل الشهر وغرته .

أبو الفدا (٦٧٢ — ٧٣٢ هجرية = ١٢٧٣ — ١٣٣١ م) :
ذكر فتح مصر والإسكندرية فى سنة عشرين .

الذهبى (سنة ٦٧٣ — ٧٤٨ هجرية = ١٢٧٤ — ١٣٤٧ م) .

أورد المقوقس فى التجريد قال : ولا دخل له فى الصحابة ، فما زال نصرانيا واسمه جريج وقد نقل السيوطى هذا القول فى حسن المحاضرة [٤] .

(١) الخطط للقريزى ج ١ ص ١٦٥ (٢) فتح العرب لمصر ص ٤٦٩
(٣) التوفيقات الإلهامية ص ١١ (٤) ج ١ ص ١١٧ (مطبعة الموسوعات) .

المقريزى (سنة ٧٦٩ — ٨٤٠ هجرية = ١٣٦٧ — ١٤٣٦ م)[1] .

أورد بالاختصار روايات ابن عبد الحكم والكندى وذكر تاريخ الوصول الى العريش يوم النحر والسير الى بابليون . وتنحى المقوقس عن الحصن فى جرى النيل وتاريخ فتح مصر، وقال : "اختلف الناس فيه، فقال محمد بن اسحاق وأبو معشر ومحمد بن عمر الواقدى ويزيد بن أبى حبيب وأبو عمرو الكندى : فتحت سنة عشرين . وقال سيف بن عمر : فتحت سنة ست عشرة . وقيل : فتحت سنة ست وعشرين . وقيل سنة إحدى وعشرين وقيل : سنة اثنين وعشرين". ثم قال : "والأول أصح[2] وأشهر" .

وذكر تاريخ السير الى الإسكندرية عن الكندى كما تقدم . وقال : وذكر غيره بل سار فى جمادى الآخرة من سنة ٢٠، وذكر ان ابن عبد الحكم قال : ويقال أن المقوقس إنما صالح عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية وأورد حديث يزيد بن أبى حبيب يصححه به كما بينا .

وذكر حديثا بدأه بقوله ، ويقال ؛ ورد فيه : أن هرقل مات فى سنة تسع عشرة ثم ألحقه بحديث الليث كاستدراك يصحح به القول الأول ، فقال ، وقال الليث : "مات هرقل فى سنة عشرين[3]". ولم يفهم الدكتور بتلر غرض المقريزى فزعم أنه قال : ان موت هرقل كان فى سنة ١٩ للهجرة

(١) أثبتنا التاريخ المدوّن فى ترجمته فى حسن المحاضرة للسيوطى ج ١ ص ٢٦٦ ، وذكر الدكتور بتلر أن تاريخ ولادته سنة ١٣٦٥ ؛ وفى دائرة المعارف الفرنسية ج ٢٣ ص ٢ أنه ولد فى سنة ١٣٦٠ وتوفى فى سنة ١٤٤٢ فهى تتفق فى تاريخ وفاته مع فهرس التاريخ لدار الكتب ج ٥ ص ٧ المدوّن فيه أنه توفى فى سنة ٨٤٥ هجرية .

(٢) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٢٨٨ و ٢٨٩

(٣) الخطط للمقريزى ج ١ ص ١٦٤

وان هـذا القول غير صحيح؛ وانه روى عن الليث تاريخا اخرهو سـنة ٢٠ للهجرة وهو صحيح .

وقد بينا فيما تقدم أن المقريزى أورد خبر حصار الإسكندرية وتاريخ الفتح صحيحا، وكيف أن الدكتور بتلر أغفله ونقل الخطأ عن السيوطى .

أبو المحاسن بن تغرى بردى (سـنة ٨١٣ — ٨٧٤ هجرية = ١٤١٠ — ١٤٧٠ م) .

نقل روايات ابن عبد الحكم كمن تقدمه . وذكر حديثا للذهبى لخص فيه خبر الفتح من أقوال عديدة بدليل قوله : روى خليفة عن غير واحد[1] .

وقد أورد قبله البلاذرى وغيره[2] ماتضمنه هـذا الحديث من كلام عمرو بكيفية تبين أنه لا يخرج عن ملخص لأكثر من رواية ، للاستدلال على أن فتح مصر كان عنوة .

السيوطى (المتوفى سنة ٩١١ هـ = ١٥٠٦ م)— تصحيح روايته عن تاريخ عودة عمرو الى الفسطاط واستدراك على الدكتور بتلر .

نقل السيوطى عمن تقدموه ، وأورد خلاصة وجيزة للقضاعى من قصة الفتح، جاء فيها ان عمرو بن العاص قفل الى مصر من الإسكندرية بعد افتتاحها والمقام بها فى ذى القعدة سنة عشرين (أكتوبر — نوفمبر سنة ٦٤١) . وقال الدكتور بتلر ان هـذا القول لابن قتيبة[3] ، وقد نقله السيوطى عن القضاعى (المتوفى سـنة ٤٥٤ هجرية) . وقد أخطأ فى ذلك لأن هذا القول لم يذكر

(١) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٤ (٢) فتوح البلدان ص ٢١٨ — ٢١٩ ، ياقوت ج ٦ ص ٣٨١ ؛ الخطط للمقريزى ج ١ ص ٢٩٥ ، السيوطى ج ١ ص ٧٠

(٣) ص ٢٧٦ (٢) و ٤٧٠

السيوطى ولا القضاعى انه لابن قيبة[1] . وما يخص ابن قتيبة فى حديث القضاعى لا يزيد عن معنى فسطاط عند العرب؛ أما خبر رجوع عمرو الى مصر فهو للقضاعى . وقد أورده أيضا ابن دقماق[2] بالنص الذى أثبته السيوطى على وجه التقريب . والذى أراه ان ورود سنة « عشرين » فيما نقله السيوطى عن هذين المؤلفين زيدت عفوا ، لأن المقريزى بعد أن ذكر حصار الإسكندريه قال : وفتحت « الإسكندرية » لمستهل المحرم سنة احدى وعشرين . وقال أبو عمرو الكندى : وحاصر عمرو الإسكندرية ثلاثة أشهر ثم فتحها عنوة . وقال : هو الفتح الأول؛ ويقال بل فتحها عمرو لمستهل المحرم سنة إحدى وعشرين . قال القضاعى عن الليث : أقام عمرو بالإسكندرية فى حصارها وفتحها ستة أشهر، ثم انتقل الى الفسطاط فاتخذها دارا فى ذى القعدة[3] . ولم يرد فى هذا القول ذكر لسنة عشرين، وأهمية ذلك عظيمة لأنه يبين أن القضاعى لم يقل " فى ذى القعدة سنة عشرين " .

ويبين أيضا أن أصل هذا الكلام يرجع الى الليث بن سعد والكندى ، ولم ينقل عنهما بترتيبه الأصلى وانما نقل مجزأ ، يشوبه النقص والزيادة؛ وكان فى الأصل حديثين لو فهما على حقيقتهما لزال منهما أثر التناقض . الحديث الأول للكندى قال : لما حاز المسلمون الحصن بما فيه ، أجمع عمرو على المسير الى الإسكندرية فسار اليها فى ربيع الأول سنة عشرين — وهنا ذكر حديث الفسطاط واليمامة ؛ ثم قال : وحاصر عمرو الإسكندرية ثلاثة أشهر ثم فتحها عنوة، وهو الفتح الأول . ثم قال ويقال :

---

(١) راجع حسن المحاضرة ج ١ ص ٧٢ .
(٢) الانتصار ج ٤ ص ٢ .
(٣) الخطط للقريزى ج ١ ص ١٦٥ .

بل فتحها مستهل سنة إحدى وعشرين ، ثم سار عمرو الى أنطابلس ، وهى برقة فافتتحها[١] .

والذى يفهم من هذا الحديث أن الكندى يقول : إن السير الى الإسكندرية كان فى ربيع الأول سنة عشرين، وان عمرا قبل فتحها حاصرها ثلاثة أشهر ثم فتحها عنوة ، وهو الفتح الأول؛ وان هناك قولا يذكر فيه أن عمرا افتتحها فى سنة إحدى وعشرين ثم سار الى أَنطابُلس وافتتحها . الحديث الثانى ذكره القضاعى ونصه، قال الليث : أقام عمرو بالإسكندرية فى حصارها وفتحها ستة أشهر ثم انتقل الى الفسطاط فاتخذها دارا فى ذى القعدة[٢] . وبقية الخبر يفهم من قول الليث فى موضع آخر : مات هرقل فى سنة عشرين[٣] . وكان حصار الإسكندرية بعد موت هرقل تسعة أشهر وخمسة أشهر قبل ذلك . وفتحت يوم الجمعة لمستهل المحرم سنة احدى وعشرين[٤] .

وهو يدل على أن عبارة " فى ذى القعدة سنة عشرين " من الحشو الزائد . ويبعد أن يكون من قول القضاعى، لأن ابن دقماق والمقريزى والسيوطى نقلوا عنه قوله : ولما رجع عمرو من الاسكندرية ونزل موضع الفسطاط انضمت القبائل بعضها الى بعض وتنافسوا فى المواضع فولى عمرو على الخطط معاوية بن حديج وآخرين أنزلوا الناس وفصلوا بين القبائل فى سنة إحدى وعشرين[٥] .

---

(١) كتاب ولاة مصر ص ٩ . (٢) الخطط للقريزى ج ١ ص ١٦٥ .

(٣) الكتاب السابق ج ١ ص ١٦٤ . (٤) الكتاب السابق ج ١ ص ١٦٥ .

(٥) الانتصار ج ٤ ص ٣ ؛ الخطط للقريزى ج ٢ ص ٢٩٧ ، السيوطى ج ١ ص ٧٢ والتى بعدها .

نفى الخلاف بين المراجع الكبرى العربية :

على هـذا الوجه يتبين أن تأكيد الدكتور بتلر بوجود خلاف عظيم بين المراجع العربيـة الكبرى لا أساس له من الصحة[1] . وأن الخلط الذى نسب وقوعه الى الرواة والمؤرخين وليد عمـله . ولم ينشأ عن التضليل الذى اتهم به كتاب العرب أجمعين؛ وزعم أنه أوجب حيرة المؤرخين المحدثين .

ومن الخطأ أن يتوهم شخص أنه من السهل هدم أقوال وتواريخ أجمع كبار المؤرخين على أنها وصلت اليهـم بالتواتر وأنهم تحدثوا بها كما سمعوها ، ثم الاعتماد على أقوال لا يعرف شيء عن رواتها ، معدومة الإسناد غير متوافرة فيهـا شروط النقل الصحيح؛ كما عمد اليـه الدكتور بتـلر فى تفنيد الروايات المأثورة المتواترة عن تواريخ الفتح والطعن فى رواتها ، و بينهم أئمة معروفون بعلو الإسناد وقوة النقد كالليث بن سعد ، ثم التبشير بأن نورا جديدا لم يسبق للناس عهد به أشرق من كتاب حنا النقيوسى[2] .

كتاب حنا النقيوسى :

واذا تأملت فيما جمعـه الدكتور بتلر عن حنا النقيوسى ، تجـد ما يتعلق منه بأخبار فتح مصر محصور فى الكلمات الآتية من قوله :

(١) " نجد أن ديوان حنا النقيوسى عمدتنا الأعظم يبدأ هنا بوصف حركات العرب ، مع أنه لا يذكر شيئا قبل ذلك عن أول غزو العرب . ومما يؤسف له أن ذلك الجزء الذى أغفـله يقع فيـه تاريخ حكم هرقل كله ،

---

(١) فتح العرب لمصر ص ٤٧٠ و ٤٧١ (الملحق الرابع) .

(٢) فتح العرب لمصر ص ٤٧١

من أوّل توليته الى هذه النقطة ، وأنه لمن أعظم الخسائر أن تضيع كل الصحائف التي فيها وصف حروب الفرس والاحتلال الفارسي لمصر وسنى الاضطهاد الأعظم العشر ، وأن ما بقى بعـد ذلك مختلط مشوّه الترتيب . ومن المؤكد أن بعض فصول الكتاب نقلت من موضعها ، وأن بعض الجمل قـد نقلت من مواضعها فى بعض الفصول ، وأن التكرار والحـذف فى بعض المواضع يزيد الحيرة والارتباك [١] " .

(٢) " قد وقع نقل وتشويه فى عبارة الفصل الثانى والستين من كتاب حنا يجعله غير ممكن الفهم [٢] " .

(٣) " عنوان الفصل الخامس والستين من ديوان حنا هو « كيف استولى المسلمون على مصر فى السنة الرابعـة عشرة من الدورة القمرية » . ولكن لم يرد وصف للاستيلاء فى ذلك الفصل . وهـذا مثل من مائة مثل ممـا يدل على نقص الكتاب وتغيير مواضع أخباره [٣] " .

(٤) " هـذه القصة « وقعة سمنود » ليست خالية من الشك فقـد جاءت فى كتاب حنا النقيوسى فى الفصل الرابع عشر بعد المـائة وهو مضطرب كل الاضطراب ... فالحقيقة أن ذكر الحوادث فى هـذا الفصل والفصول التي بعده من كتاب حنا مضطرب كل الاضطراب ، مقلوب رأسا على عقب ويكاد يكون إرجاع أخبارها الى ترتيب صحيح أمرا مستحيلا [٤] " .

(٥) لا نجد مثلا أوضح فى دلالته على خلط كتاب العرب من وصفهم نهاية هذا الاجتماع (يقصد ما انتهى اليه أمر المفاوضة بين عبادة والمقوقس

---

(١) فتح العرب لمصر ص ١٩٤ (١)　　(٢) فتح العرب لمصر ص ٢٠٠

(٣) فتح العرب لمصر ص ٢٠٥ (١)　　(٤) فتح العرب لمصر ص ٢٣٤

وموقف هـذا الأخير وأصحابه من جهة الصلح) . ونحن مضطرون للاعتماد عليهم وحدهم لأن كتاب حنا لا يرد فيه شيء عن ذلك[١] " .

واذا كان ما صرح به هذا هو حاله ، فما الذى بقى من كتاب جعله عمدته الأعظم لمحاجة مؤرخى العرب به وإبطال رواياتهم ، وكيف نعلل أقـواله ونعتبرها حقائق تاريخية ؟ وهى لا تخرج عن استنتاجات وظنـون وأوهام حولت الى قصة خيالية ، أغفل فيهـا ذكر المصادر والأقوال المستمدّة منها حتى تعذر تمييز المنقول عن حنا النقيوسى أوساويرس وغيرهما . .

وقد جرى فى تحرير هـذه القصة على طريقة النقل المحرّف التى اتبعها فى إيراد روايات مؤرّخى العرب ، فجاءت مشوّهة ممسوخة ، رغم المجهود الذى بذل فى سبكها . وقد وقع فيها من الخطأ والخلط ماهو أبلغ مما حاول أن ينسبه الى أكابر الرواة والمؤرّخين فنرى فيها المرقب قائدا والراهب أميرا وهكذا .

ومن الظواهر التى تنبئ عن الأسلوب الذى كتب به هـذا الكتاب أن ما كان من الأخبار فيـه إنصاف للسلف كذب ، وما خالف ذلك عزز . ولن نجد لوصف مادوّن فيه بأنه صحيح بالنظر الى الألفاظ التى انتقاها مؤلفه وكررها فيه ، وهى المفتريات والمسخ والتضليل .

ولكى يقف القارئ على قيمة كتاب حنا النقيوسى ، ننقل عن الدكتور بتلر قوله عنـه وعن مؤلفه ، تكملةً لملاحظاته التى بيناها عن هـذا الكتاب وهو بالنص الآتى :

حنا النقيوسى أسقف قبطى كتب فى مصر فى أواخر القرن السابع ، ولعله ولد حوالى زمن الفتح ، وكتابه عبارة عن مؤلف فى تاريخ العـالم . وقـد

(١) فتح العرب لمصر ص ٢٢٧ (١) .

كتب جزء منه فى الأصل باللغة القبطية وجزء آخر باليونانيــة . ويظهر أنه قد نقل الى العربية فى زمن متقدّم جدا . وعلى أساس تلك النسخة العربية وجدت ترجمة اتيوبية ، وهى النسخة الوحيدة الباقيــة من ديوان حنا وقد ترجمها زوتنبرج وحررها . وأخبار هذا الكتاب ذات قيمة عظمى اذا كان نصها واضحا غير غامض، ولم يتطرق اليه الفساد، ولكن ذلك الكتاب لا يذكر به شيء لسوء الحظ ما بين تولية هرقل وبلوغ العرب حصن بابليون ، وعلى ذلك فكل مدة الفتح الفارسى وعودة مصر الى الروم قد ضاعت منه ، وكذلك قد اختلطت أخبار آخر مدة الفتح العربى اختلاطا عظيما ، اذ هى مقلوبة رأسا على عقب لا يستطاع إقامتها ولا يكاد النقد يعيد اليها سياقها . على أنه قــد ثبتت منه بعض حقائق من الأمهات الكبرى ، ولا بد لنا من اعتبارها معالم ثابتة لا تدافع ولا يختلف فى صحتها ؛ مع أنها تخالف ما جاء فى الأخبار العربية المتأخرة عنهــا ؛ فهى على ذلك أسس متينة لمن أراد أن يبحث فى تاريخ هذا العصر . والحق أنه لم يكن فى الإمكان أن يكتب تاريخ الفتح العربى لمصر ، لولا أن عثرت البعثة البريطانية الى بلاد الحبشة على نسخة مخطوطة من كتاب حنا . وانا لنرجو أن يعثر يوما ما على نسخة قبطية أو عربية من كتاب حنا النقيوسى تكون سابقة للنسخة الأتيوبية التى وجدت . ولقد وجد الدكتور (شفر) فى متحف برلين قطعة من ست صفحات مكتوبة بلغة الصعيد وهى كما قال المستر (كروم) تتفق اتفاقا يسترعى النظر مع ما جاء فى ديوان حنا . وقد ترجم (زوتنبرج) كتاب حنا ونشره نشرة فيهــا عيوب فى بعض نواحى الترجمة وفى حسبان التواريخ ، ولا يزال أهــل البحث على شوق فى انتظار ظهور الترجمة الانجليزية التى اضطلع بها الدكتور (شارلز)[١] .

(١) فتح العرب لمصر مقدمة المؤلف ص ٢٥

ونحن نتمنى أيضا العثور على نسخة أصلية من كتاب حنا النقيوسى تكون سابقة للنسخة الأتيوبية .

والى أن يتحقق هـذا الأمل نحتفظ بالأولوية للروايات العربية ، وان كانت لا تزيد على عشرات الصحائف ، بعد أن ظهر لنا أن ما جاء به الدكتور بتلر رغم الإطالة والإفاضة فى أكثر من خمسمائة صفحة لم يغير منها شيئا ، وانها مازالت راجحة على تأكيداته التى تلاشت عند النقد والتمحيص ، بفضل حرص العرب على الصدق فى الرواية والتمييز بين الصحيح والخبيث ونقد الرجال .

المقــوقس — قــيرس

بحث الدكتور بتــلر أيضا عمن هو الشخص الذى عرف عند العرب بالمقوقس وما اسمــه وجنسه وعمله ؟ وقال : ان مؤرخى العــرب كانوا من أول الأمر فى حيرة عظيمة ودهشة بالنظر اليه ؛ وأنه لم يكن عندهم صــورة واضحــة عن لفــظ المقوقس ؛ ولم يتفقوا على الاسم الذى كان يســمى به وان من البــاحثين من جعله روميا وجمع بينه و بين قيرس كشخص واحد ، ومنهم من فرق بين الاثنين وقال : ان كلا منهما كان له عمل مستقل ومنهم من جعله قبطيا ؛ وان أمهات الكتب الشرقية ليست دقيقة ، وان مؤرخى العرب يخلطون بين الأشخاص ، ولم يميزوا بين قيرس وبنيامين وغير ذلك .

وقد خصص لهذا البحث ، الملحق الثالث من كتابه «فتح العرب لمصر» ص ٤٤٤ — ٤٦٤ ؛ واستعرض فيــه ما وقف عليه من الروايات العربيــة وغيرها ، وما ترتب على هــذه الروايات من نتائج وآراء . وانتهى الى القول بأن جميع من بحثوا فى ذلك لا يمكن وصف أقوالهم بخير من أنها جزئية وغير تامة ، وأن المقوقس هو قيرس البطرك الأمبراطورى والحاكم الأعلى بمصر .

مراجعة أقوال كبار المؤرخين عن المقوقس :

وقد رأيت أن أراجع ما نقله الدكتور بتلر عن مؤرخى العرب وأن أرده الى حقيقته، وأضم اليه ما لم يذكره مع بيان مدى تقديره لأقوالهم، وما تيسر لى من استقصاء وتصحيح لما استدركه عليهم أو نسبه اليهم مع المحافظة على ترتيبه .

حنا الأسقف القبطى لمدينة نقيوس : كان موجودا فى سنة ٧٠ — ٧١ھ (٦٩٠ م) . ذكر فى كتابه تحريض البطرك الخلقيدونى قيرس لهرقل على أتباع مذهب السنة(١) ووقائع كثيرة رأى الدكتور بتلر أنها تدل على أن هذا البطرك هو الذى اضطهد القبط وأنه كان الحاكم ببلاد مصر .

محمد بن إسحاق : لم يذكره الدكتور بتلر والذى تخلف منه كتاب فتوح مصر، وهو من المغازى . وقد ذكر فيه كتاب النبى صلى الله عليه وسلم الى المقوقس .

الواقدى : قال الدكتور بتلر : إنه يقول المقوقس بن راعيل وان هذا الاسم من الأسماء العجيبة الخيالية التى ترد فى قصص العرب قبل التاريخ لتسمية الملوك والسحرة ومن اليهم(٢) .

وقد ذكرنا فيما تقدم أن كتاب فتوح مصر المنسوب اليه ، هو كتاب ابن اسحاق .

ابن هشام (المتوفى فى سنة ٢١٨ هجرية(٣) = ٨٣٣ م) : ذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث حاطب بن أبى بلتعة الى المقوقس ملك الإسكندرية .

(١) كذا ورد فى ترجمة كتاب فتح العرب؛ ويريد بلفظ السنة «مذهب اليعاقبة» .
(٢) فتح العرب لمصر ص ٤٥٢ (٣) وقيل سنة ٢١٣ هجرية .

ابن سعد : (توفى فى سنة ٢٣٠ هـ = ٨٤٥ م) ؛ ذكر المقوقس عظيم القبط .

ابن عبد الحكم : لم يذكره الدكتور بتلر فى استعراضه بالملحق الثالث عن شخصية المقوقس مع أن رواياته هى المرجع الأصلى الذى نقل عنه كبار المؤرخين أخبار الفتح . وقد ذكر أن هرقل وجه المقوقس أميرا على مصر، وجعل اليه حربها وجباية خراجها فنزل الإسكندرية (١) . وأورد كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المقوقس؛ وقد خوطب فيه بلقب « عظيم القبط » ؛ وذكر المقوقس أيضا فى مواضع أخرى لقب فيها ملك الإسكندرية ، وصاحب الإسكندرية . وذكر أسقفا للقبط بالإسكندرية يقال له : « أبوميامين » .

وقد لاحظت فى الروايات المنقولة عن ابن عبد الحكم ، فى الخطط للقريزى، وكتابى حسن المحاضرة للسيوطى، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، وفى النسختين المطبوعتين منه بالمعهد العلمى الفرنسى فى سنة ١٩١٤، وفى ليدن فى سنة ١٩٢٠، اختلافا يتفاوت فى أهميته بالنظر الى ترتيب الأحاديث وما يتخللها من النقص والزيادة فى بعض مواضع . فقد ذكر فى بعضها المقوقس والأعيرج ، منفردين دون ذكر أبويهما . وفى البعض ذكرا معهما ، فنقرأ فى المقريزى والنجوم الزاهرة : المقوقس بن قرقب . وفى النجوم : الأعيرج جريج بن مينا . ولا نجد ذلك فى فتوح مصر مثلا . ومن البديهى أن هذا الاختلاف يرجع الى تعدد أقوال الرواة ، وطريقة النقل عنهم بالسماع والاملاء . وقد ذكرنا قول ابن عبد الحكم عن رواته :

---

(١) ص ٤٦

وبعضهم يزيد على بعض فى الحديث[1] كما نوهنا عن التحريف الذى يقع من عمل الناسخين .

ابن قتيبة الدينورى ذكر المقوقس ملك الإسكندرية .

البــلاذرى : ذكر المقوقس صاحب مصر . وروى أن المقوقس اعتزل أهل الإسكندرية حين نقضوا . وروى أيضا : أنه قد كان مات قبل هذه الغزاة[2] .

الطبرى : ذكر أبا مريم جاثليق مصر وأبا مريام الأسقف كمبعوثين من قبــل المقوقس وأرطبـون وصاحب الإسـكندرية ، والمقوقس عظيم القبط . ونسب اليه بتلر أنه جعل المقوقس أمير القبط وقائد الحصن وأنه هو ومن اتبعه كابن الأثير جعلوا بنيامين قائدا حربيـا تحت حكم المقوقس وهى ادعاءات غير صحيحة ويكفى لدحضها مراجعة أقوال الطبرى .

وقال الدكتور بتــلر : " لفظ جاثليق لا معنى له إلا بطريق وان أول من ذكره من مراجعه الطبرى ، فقــد جعلته معلوماته الفارسية يذكر ذلك اللفظ على أنه اسم كبير أساقفة مذاهب النسطوريين والأرمن ، ويكثر ذكره فى كتب سبيوس وسواه ؛ ويعرفه (Du Cange) حق المعرفة ؛ والحقيقة أن الطبرى نفسه يفسر ذلك اللفظ بأنه كبير أساقفة النصارى ؛ ولكنه يقول بعد ذلك عبارة محيرة وهى أن اسمه كان ابن مريم " .

وهى حيرة غريبة لأن الطبرى لم يقل ابن مريم . وأغرب من ذلك أن يقول الدكتور بتلر : " ان كتاب العرب كانوا يعرفون أن اسم مريم اسم يحله

(١) راجع أيضا معجم البلدان ج ٦ ص ٣٧٧
(٢) فتوح البلدان ج ص ٢٢٣

النصارى إجلالا عظيما ؛ فأخطأوا فى لفظ « ابا » فظنوا أنه اللفـظ العربى « أبو » فى حين ان نزع الجزء الأول من بنيامين وهو « بن » وخلط باللفظ العربى «ابن» ونشأ من ذلك الخلط أسماء عجيبة زادها تحريفًا خطأ النساخ فذهبوا الى تسـمية الأسقف باسم « أبو مريم » و « ابن مريم » ونستطيع الآن أن نستبعد اسم ابو مريم ، ونحن واثقون من أن ذلك الاسم لم يكن . وكذلك « اسماء » أبو مريم و « ابن مريم » و « أبو ميامين » وأن نجعـل مكان هـذه الصور الغريبة اسم « بنيامين » الذى كان كبـير أساقفة القبط فى الإسكندرية[1] " .

على أن هـذا الشرح الطويل يبـطله أن أبا مريم الراهب الذى أتعب الدكتور بتلر كل هذا التعب كان موجودا كما سبق لنا قوله ، منقولا عن الطبرى نفسه ، ثم أسلم وأصبح من النقباء وعرف باسم عبد الله بن عبد الرحمن ؛ فلم يكن ابن مريم ولا بنيامين ولا مارينوس[2] .

سعيد ابن بطريق أو (اوتيكيوس Eutychius) (٨٧٦ — ٩٣٩ م)[3]:

قال : وبعـد هرب جورج صار قيرس بطريق الإسكندرية ، وكان ما رونيا على مذهب هرقل . وقال فى موضع آخر : وكان العامل على الخراج

---

(١) فتوح العرب لمصر ص ٤٥٠ ، ٤٥١

(٢) مما تخيله بتلر ان اسم أبى مريم قد يكون محرفا عن مارينوس او ماريانوس ، وهو اسم قائد أرسله هرقل لمساعدة قيرس . قال ذلك فى رسالته The Treaty of Misr in Tabari راجع فتح العرب لمصر ص ٤٥١ وما كتبه حضرة الأسـتاذ معربه فى بطلان حجة بتلر فى تجريح مؤرخى العرب .

(٣) ورد فى فهرس محتويات دار الكتب المصرية أنه توفى فى يوم الاثنين سلخ شهر رجب سـنة ٣٢٨ هـ .

بمصر المقوقس من قبل هرقل الملك. ثم قال: وكان يعقوبيا (أى قبطيا) يكره الروم؛ ولكنه كان يخشى أن يظهر عقيدته اليعقوبية خيفة أن يقتله الروم.[١]

قال بتلر: ولم يذكر أن قيرس هو المقوقس لأنه كان يجهل هذا الأمر.[٢] وقال: ان المقوقس كان حيا فى وقت ثورة منويل؛ ولم يذكر للقوقس اسما.[٣]

الكندى: أورد النص الآتى:

" وأمير الحصن المندقور الذى يقال له الأعيرج (بياض بالاصل وعلى ما أظن، كان يملأه لفظ «واليا») . عليه من قبل المقوقس بن قرقب اليونانى، والمقوقس اذ ذاك فى طاعة هرقل ".

الأنبا ساويرس أسقف الأشمونين المعروف بابن المقفع

(أوائل القرن العاشر الميلادى): ذكر قيرس حاكما و"بطريقا"، "وهرقل والمقوقس يحكمان مصر"، و"حكم هرقل وولاية المقوقس"، "والحاكم الكافر الذى كان بطريقا وحاكما بالإسكندرية". وروى عن بنيامين بطرك القبط، قوله: "عند ما طردنى المقوقس".

القاضى أبو الفضل عياض اليحصبى السبتى (سنة ٤٧٦ — ٥٤٤ هـ = ١٠٨٣ — ١١٤٩ م):

ذكر المقوقس، صاحب مصر، فى كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى.[٤]

ابن الأثير (٥٥٥ — ٦٣٠ هـ = ١١٦٠ — ١٢٣٢ م).

قال بتلر: إنه يذكر أبا مريم وأبا مريام؛ وإن الأول كان جاثليق منفيس وخطأ هذا اللقب، والثانى أسقفا. وأن المقوقس كان يقود الجيش

---

(١) فتح العرب لمصر ص ٥١٨

(٢) الكتاب السابق ص ٥١٩

(٣) الكتاب السابق ص ٥١٩

(٤) ج ١ ص ٣٠٣ و ٣٠٤ (طبع الآستانة).

بنفسه فى واقعة عين شمس ويقول : إن المقوقس كان حاكم الإسكندرية فى وقت الحصار ثم صالح عمـرا ، ولمـا انتقض الروم بالإسكندرية كان على قيد الحياة .

وقال أيضا : ان ابن الأثير مضطرب فى ترتيب الحوادث فى أول مدة الفتح . وقد شط فى تلخيص كلام ابن الأثير ، مع أنه لم يأت بغير ما ذكره من كان قبله ، كابن عبد الحكم والطبرى .

أبو صالح الأرمنى (القرن الثانى عشر الميلادى) :

قال بتـلر : انه يذكر أن محمدا صلى الله عليه وسـلم ، بعث حاطب بن أبى بلتعة الى المقوقس حاكم الإسكندرية فى السـنة السادسة من الهجرة ؛ وإن هرقل بعد عودة مصر الى الروم استعمل عليها جريج بن مينا المقوقس ؛ ويذكر ديرا بالصعيد اختفى فيه بنيامين فى عهد الامبراطور الرومانى هرقل الخلقيدونى ، بينما كان جريج بن مينا المقـوقس حاكما على مصر ، حتى تمت السنوات العشر : وقد كان هاربا منها كما أنذره الملك .

ويقول أبو صالح : ان تلك السنوات العشر هى التى قاسى فيها المؤمنون (القبط) الاضطهاد . وروى عن كتاب الجناح أن أسـقف الروم فى مصر والإسكندرية كان اسمه قيرس .

ياقـــوت :

قال بتلر : انه يعقد الأمور تعقيدا أشد ، فهو يذكر أن حصن بابليون كان حاكمه المندقور الذى اسمه الأعيرج نائبا عن المقوقس بن قرقب اليونانى الذى كان يقـيم فى الإسكندرية ؛ وأن اسم الأعيرج جاء على ما يظهر أولا

فيه[١] . ولا أعلم أين هو التعقيد ولمـاذا يكون أشد مما قاله سواه؟ وهو لم يأت بجديد وما قاله سبقه به الكندى . وقد دفعنا عن ياقوت ما نسبه اليه بتلر من أنه كان يسمى جريج مرة ابن مينا وتارة ابن قرقب اليونانى، بالتمييز بين هذين الاسمين والبرهنة على قصـده أن كلا منهما كان المسمى به شخص غير الآخر، فى كلامنا عن أبى المحاسن[٢] .

أبو الفدا : ذكر إرسال حاطب بن أبى بلتعة الى صاحب مصر وهو (المقوقس) جريج بن متى .

المكين (المتوفى حوالى سنة ١٢٠٥ للميلاد) : ذكر المقوقس كعامل لهرقل على مصر، وأنه هو وعظماء القبط صالحوا عمرا . وقال الدكتور بتلر : إنه لم يكتب غير سطرين اثنين عن المقوقس يعنى بذلك ما ذكرناه .

ابن خلدون (٧٣٢—٨٠٦ هـ = ١٣٣٢—١٤٠٣ م) : زعم بتلر أنه يجعل المقوقس قبطيا، ولم أجده فيما حدث به عن الفتح[٣] ، ولا فى خبر إرسال الرســل الى الملوك من النبى صلى الله عليه وسلم[٤] ، وربما يكون قوله مبنيا على وصــف المقــوقس بعظـيم القبط فى كتاب النبى عليـه الصــلاة والسلام .

ابن دقماق (٧٥٠—٨٠٩ هـ = ١٣٤٩—١٤٠٧ م) : قال بالرواية عن ابن عبــد الحكم : وجه هرقل ملك الروم المقوقس أمـيرا على مصر ، وجعــل اليــه حربها وجبــاية خراجها فنزل الإسكندرية . وذكر فى زواية

(١) ص ٤٤٨ و ٤٤٩ (٢) راجع ما يأتى من كلامنا عن أبى المحاسن .

(٣) كتاب العبر ج ٢ (البقية) ص ١١٤ و ١١٥ (٤) كتاب العبر ج ٢ (البقية) ص ٣٦

المقوقس الرومى الذى كان ملكا على مصر[١] . ولم يذكر بتلر إلا أن ابن دقماق قال : المقوقس الرومى عامل هرقل .

المقريزى : ينقل عن ابن عبد الحكم وغيره، فذكر شحنة الروم المتولى على مصر، وقال : ان المقوقس كان يجهز على عمرو الجيوش، وهذا يتفق مع ابن دقماق فى قوله : جعل هرقل إليه حربها، وذكر الأعيرج واليا على الحصن، وانه كان تحت يـد المقوقس، وذكر أبو ميامين يأمر القبط بتلق عمـرو، والمقوقس وانه ابن قرقت اليونانى . وقال : قيل إن المقوقس فى انتقاض الروم (واقعـة منويل[٢]) لم يكن تحرك ولا نكث . وذكر قيرس وقال : إن هرقل أقامه بطركا للإسكندرية لمـا قدم مصر، ولم يقل انه المقوقس .

وقال بتلر : إن المقريزى يتفق مع ياقوت فى ذكر الأعيرج وفى أن المقوقس ابن قرقب أو قرقت وكان يونانيا، وأقـول : و يتفق مع ياقوت وابن عبـد الحكم والكندى فى ذكر الأعرج أو الأعيرج . وقال : إن المقريزى أخطأ فذكر فيرس بالفـاء بدل قيرس بالقاف . وليس هنالك خطأ وقع من المقريزى، وإنما هو تحريف فى النقل .

وأورد المقريزى خطاب رسـول الله صلى الله عليه وسلم الى المقوقس، وقـد لقب فيـه « عظيم القبـط » . وهو بالنص الذى أورده القسطلانى فى « المواهب اللدنية[٣] » .

أبو المحاسن : نفى ما نسب اليه من الخلط فى اسم المقوقس واسم أبيه — بيان عن التحريف الذى أصبح به لفظ مرقب اسما لأبى المقوقس وجدّه :

---

(١) الانتصار ج ٥ ص ١١٨ و ١١٩ (٢) ج ١ ص ١٦٧
(٣) ج ١ ص ٢٩٢

أورد روايات ابن عبد الحكم عن الفتح ، فذكر الأعيرج والمقوقس فى فقرتين من كتابه ؛ قال فى الفقرة الأولى : "وكان على القصر رجل من الروم يقال له الأعيرج واليا عليه وكان تحت يد المقوقس ، واسمه جريج بن مينا . وقال فى الفقرة الثانية : " ثم أحاط بالحصن وأميره يومئذ المندقور الذى يقال له الأعيرج من قبل المقوقس وهو ابن قرقب اليونانى ، وكان المقوقس ينزل الإسكندرية " .

ويظهر من هاتين الفقرتين أن المؤلف ذكر فى الفقرة الأولى والى القصر بلقبه وهو الأعيرج ثم بين اسمه واسم أبيه جريج بن مينا . ولما كرر ذكره فى الفقرة الثانية وقال : "المندقور" لم يكن بحاجة لأن يذكر اسمه واسم أبيه واكتفى بأن قال : الذى يقال له الأعيرج ؛ ثم ذكر المقوقس مع اسم أبيه وجنسيته ومكان نزوله . وهذا التوجيه هو الذى يقبله العقل . ويصحح قول بتلر : إن أبا المحاسن كان يسميه تارة ابن مينا وتارة ابن قرقب مينا وتارة ابن قرقب ، وهو تزييف لقول أبى المحاسن[1] .

هذا هو التأويل الظاهر للنصوص عن جريج بن مينا وابن قرقب ، ولكن بإمعان النظر فيها نهتدى الى أمر آخر ، وهو أن الروايات الأصلية لم يذكر فيها " ابن قرقب " كاسم لأبى المقوقس .

ولفظ قرقب يصادفنا لأول مرة فى حديث البيات الذى أورده الطبرى ؛ وقد جاء محرفا على هذه الصورة "فرقب" فى قوله : " فلم يفجأ عمرا إلا البيات من فرقب . وقد نبهنا الى أنه تحريف لكلمة مرقب .

(١) وفى السيرة النبوية نص صريح بأن جريج بن مينا غير المقوقس ؛ وهو بهذا اللفظ : « وكان المهدى له المقوقس هو المشهور . وفى كلام بعضهم أن المهدى له جريج بن مينا القبطى الذى كان على مصر من قبل هرقل . انسان العيون ج ٣ ص ٢٧٦

وكان تاريخ ولاة مصر للكندى ، على ما أعلم ، أول مؤلف سمى فيــه فى المتن ، أبو المقوقس " فرقب " . ويرجع ذلك ولا شــك الى النقل عن الطبرى بلا انتباه الى ما وقع فيه من التحريف ، فان كلمة فرقب أصبحت بفضل النساخ علما ،واو وقف التحريف عند "فرقب" لظن أن المقصود آخر غير المقوقس كما وقع للدكتور بتلر . ولكن التحريف تعدى كلمة فرقب وشمل " من " وتكون منهما " ابن قرقب " .

ولم يكن فى سـياق الكلام من هــو أقرب من المقوقس ليفهم أنه هو الذى عنى بهذا الاسم ، لأن المقوقس هو الذى كان نازلا فى الحصن لتجهيز الجيوش وصد عمرو ، وهو الذى بعث أبا مريم جاثليق مصر ومعه الأسقف أبو مريام فى أهل البيعات لمنع البلاد فى حديث البيات للطبرى .

وأقدم ماعرف من هذا التحريف مكتوبا بالكامل ، هو ماورد باحدى الحواشى بهامش النسخة الخطية الى طبع منها كتاب « فتــوح مصر » لابن عبدالحكم بليدن . المحفوظة بالمتحف البريطانى كما ذكرناه فى حينه[1] ، ونصه :

" ان المقوقس اسمه جريج بن مينــا بن قرقت " . وتدل هــذه العبارة بأســلوبها ، أنهــا كتبت كبيان تكميلى للنص الوارد فى المتن مجــرّدا عن ذكر أبى المقوقس .

وترجع تلك النسخة الخطية الى القرن السادس ، كما هو مبين فى مقدمة الناشر الانكليزية المصدّرة بها طبعة ليدن .

وعند ما وضع الكندى كتاب الولاة ، لخص خبر مسير عمرو بن العاص من أقوال رواة ابن عبد الحكم ، فقال : ثم أتى (عمرو) الى الحصن فنزل عليه

(١) راجع ص ٣٠ (٢) من كتابنا هذا .

لحاصره، وأمير الحصن يومئذ، المندقور الذى يقال له الأعرج ... عليه من قبل المقوقس بن قرقب اليونانى .

وقوله "ابن قرقب اليونانى" غير موجود فى فتوح مصر بالمتن من كتاب ابن عبد الحكم، مما يفهم منه أنه إضافة قد تكون من الكندى، ويرجح على ما أعتقد أنها من الناسخ لكتابه عن مصدر آخر غير ابن عبد الحكم، وفى وقت متأخر عن وقوع التحريف فى عبارة الطبرى .

وقد وقع هذا التحريف من عهد بعيد بدليل الحاشية التى على هامش النسخة المطبوع منها كتاب ابن عبد الحكم الذى جُمِعَ فيها بين جريج بن مينا وابن قرقت[1]، وقد تكون هى الأصل الذى سرى منه التحريف لكتاب الكندى بعمل الناسخ أيضا . لأن النسخة الأصلية التى طبع منها هذا الكتاب المحفوظة بالمتحف البريطانى أيضا ومكتوب عليها أنها أكملت بدمشق فى سنة ٦٢٤هـ (١٢٢٧ م)[2]، أعنى بعد نحو ثلاثة قرون من وفاة المؤلف، متأخرة عن تلك النسخة المخلفة من كتاب فتوح مصر .

وقد أدّى بنا هذا البحث أيضا الى أن ورود اسم جريج بن مينا سواء كان للقوقس أو للأعيرج، لا يخرج عن كونه أيضا زيادة أضيفت فى عهد متأخر لرواية ابن عبد الحكم . وهذا الاسم غير وارد فى فتوح مصر بالمتن؛ ولم يذكره الكندى فى نقله عنه، ويؤيد ذلك ورود هذا الاسم ضمن الحاشية بذيل الصفحة ٦٤ من فتوح مصر، والمتبادر أنه لم يسبق به أبو صالح فى الكتب العربية لأنه هو الذى انفرد بقوله : إن هرقل بعد عودة مصر الى الروم

(١) كما جاء فى التعليق الوارد فى ذيل الصفحة رقم ٦٤ (٩) و(١٠) من الكتاب المذكور.

(٢) كتاب ولاة مصر، المقدمة الانجليزية ص ٤٧

استعمل عليها جريج بن مينا المقوقس . ومن ذكر هذا الاسم بعده لا بد من أن يكون ناقلا عنه . وإذن لا يكون المصدر من الخلط فى الروايات العربية .

ولا محل إذن لما شغل به الدكتور بتلر نفسه فى مناقشة الدكتور ستانلى لين پول عن جريج بن مينا ، لأن الروايات العربية لم يرد فيها أنه المقوقس أو قيرس أو الحاكم الأعلى بمصر الذى تلق كتاب النبى عليه الصلاة والسلام .

وقال أن أبا المحاسن يجعل بنيامين القبطى أسقف الإسكندرية ؛ والحقيقة أنه سماه "أبو ميامين" ؛ ولم يختلف فى ذلك عن المقريزى لأن الاثنين يرويان عن ابن عبد الحكم .

السيوطى :

ذكر أقوال ابن عبد الحكم التى نقلها أبو المحاسن عن الأعيرج والمقوقس وأبو ميامين ، وبعضها من تلخيص القضاعى لخبر فتح مصر .

وقد ورد فى آخر كتاب «در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة» أن ابن منده وأبا نعيم ذكرا المقوقس فى كتابيهما فى الصحابة وابن قانع فى معجم الصحابة . وأورده الذهبى فى التجريد ، وقال : ولا مدخل له فى الصحابة وما زال نصرانيا واسمه جريج[1] كما تقدم .

ابن إياس (المتوفى سنة ٩٣٠ هجرية تقريبا = ١٥٢٣ — ٢٤ م) :

من المتأخرين وكنا على عزم أن نتجاوز عن ذكره ولكن استرعى نظرنا فيه قوله فى فقرتين ؛ جاء فى الأولى مانصه : واستمر المقوقس قائما بملك مصر

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ١١٧

نحو إحدى وثلاثين سنة ، حتى افتتح عمرو بن العاص رضى الله عنـه الديار المصرية فى سنة عشرين من الهجرة النبوية ، فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأرضاه .

وفى الفقرة الثانية ما نصـه : وكان اسمه جريج بن ميناهى (وهو يعنى المقوقس) وقد أدرك نبوّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما كانت سنة ست من الهجرة بعث اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطب بن أبى بلتعة[1] .

وقد ذكر الأستاذ ڤييت النص الأول فى بيان الألقاب التى وردت عن العرب للمقوقس .

مما تقدّم يتبين أن ما توهمه بتلر واتهم به مؤرخى العرب لم يكن بالقـدر الذى اعتقـده وأن الأشخاص الثـلاثة : المقوقس وأبو مريم والأعيرج على عكس ما ذهب اليه ثابت وجودهم وقد ذكروا باعتبار أن كلا منهم شخص مستقل عن الآخرين :

أما الأعيرج :

فلم يكن ياقوت هو الذى نقل عنه أبو المحاسن والسيوطى ذكر الأعيرج والأعرج لأن المصدر الأصلى ابن عبد الحكم والكندى ، وهـذا الأخير روى عن كبار الثقات كالليث وابن عفير ، وقد نقل عنه أيضا المقريزى .
ولا عبرة بقول سـتانلى لين پول أن أمير الحصن كان يسـمى جريج بن مينا وابن قرقب لأنه خطأ فى النقل من نوع ما وقع فيـه بتلر نفسه ، والأعرج والأعيرج ، كما هو ظاهر بالبداهة ، من الكنى التى يطلقها العرب . ولا يبعد أن إحدى الكنيتين كانت تنـاسب الشخص كأن يكون أعرج ، ولا يمكن

(١) ابن إياس ج ١ ص ٢٠

أن يكون تحريفا جراليه النقل كما زعم بتلر الذى قال أيضا : أنه قديكون شخصا آخر غير جورج الحاكم للإقليم الذى ذكره حنا النقيوسى[١]. ولا علاقة لهذا القول ببحثنا ، لأن رواة العرب لم يقولوا ان الأعيرج هو جورج حاكم الإقليم المذكور . وهو قول مبنى على الظن والتخمين وأساسه المشابهة بين اسم حاكم الإقليم ووالى الحصن .

وفيما يتعلق بأبى مريم : قد اعترض بتلر على وصفه بأنه جاثليق مصر وأنه انضم الى جيش عمرو بن العاص ، وقال : إن جاثليق لا معنى له إلا بطرك وهو اعتراض فى غير محله ،لأن الطبرى وغيره ممن ذكروا خبر أبى مريم يعتبرونه راهبا لا بطركا . والجاثليق كما ذكره صاحب « القاموس المحيط » يعنى به رئيس للنصارى فى بلاد الإسلام ، ويكون تحت يد البطريق ثم المطران تحت يده ، ثم الأسقف يكون فى كل بلد تحت يد المطران ، ثم القسيس ثم الشماس .ولو فطن بتلر الى ذلك لكفى نفسه مؤونة التسليم بوجود بطريق ثالث غير قيرس و بنيامين ، رغم جهاده الطويل فى نقض أقوال مؤرخى العرب من كل وجه ، ليثبت أن المقوقس وقيرس شخص واحد ، وأن جيش المقوقس لم يكن فيه رهبان من القبط .

وقد حاول بتلر أن يقيم الدليل على أن أبا مريم و بنيامين البطرك شخص واحد ليعود الى نفى وجوده ، بحجة أن بنيامين كان مختفيا ولم يشترك فى الوقائع ؛ وقد استند الى أنه من السهل تحريف « ابن بنيامين » الى « أبى ميامين » ثم الى « أبى مريم » وقد بينا فيما تقدّم أن هناك تحريفا

---

(١) فتح العرب لمصر ص ٤٥٠

فى اسم بنيامين حوّله الى « أبو ميامين » أما تحريف « أبى بنيـامين » الى « أبى مريم » فغير ممكن لبعد ما بين الاسمين كتابة ولفظا .

ومن المؤكد أن الطبرى لم يخطر بباله أن يجعل أبا مريم قائدا حربيا . وانمـا ذكره مع أبى مريام كراهبين ولم يسمه ابن مريم كما يزعم بتلر . ويقول : انه يلاحظ على الخبر الذى أورده الطبرى عن أبى مريم وأبى مريام أن الطبرى بينما هو يقول فى رواية ان عمرا عندما جاءه الزبير ممدّا قابله أبومريم وأبو مريام وقاتلاه ، إذا به يقول فى رواية أخرى ان عمرا والمقوقس التقيا فى عين شمس والتحم جيشاهما فى القتال[1] . وهى ملاحظة قائمة على سبب واه ، لأن الرواية الأولى ذكر فيها خبر مقابلة أبى مريم وأبى مريام لعمرو ومفاجأة المسلمين بالبيات لمـا أبى أرطبون اجابة عمرو والزبير الى ما عرضاه عقب اجتماع الاثنين ببابليون . والرواية الثـانية ذكر فيهـا مع الايجاز نزول عمرو والزبير بعين شمس (وقد قلنا ان المراد بها بابليون) ورفض القوم لمـا عرض عليهـم ، ووقوع القتال بين الطرفين قبـل إنتهاء مدّة الهدنة التى حصل عليها الراهبان ، وهى خمسة أيام ، ثم ذكر ما انتهى اليـه الأمر من ارتقاء الزبير سور الحصن وحصول الصلح . ولو تنبـه الدكتور بتلر الى ذلك وفهم قول الطبرى على حقيقته ؛ لكفى نفسه هـذه الملاحظة أيضـا ، لأن التناقض معدوم بين الروايتين .

البرهنة على أن المقوقس غير قيرس بطرك الإسكندرية :

وقد أجمع مؤرخو العرب على أن المقوقس كانت له ولاية فى الإسكندرية فاذا دعى بالأمير أو الملك أو الحاكم أو الشحنة أو المتولى على مصر ، فان كل

(١) فتح العرب لمصر ص ٥٠٥

ذلك جائز لأنه كان فى نظر العرب « عظيم القوم » ، وقد روى ابن دقماق أن هرقل وجهه أميرا على مصر ، وجعل اليه حربها وجباية خراجها[1] ، ولم يقل لا هو ولا غيره ممن رووا فتوح مصر وأخبارها ان هذا المقوقس كان بطركا أو كانت له شخصية دينية ، وقد أدرك بتلر فساد شطر من حجته ، فحاول العدول عنها فقال : " واذا يجوز لنا أن نقول ان مؤرخى العرب لم يقصدوا بنيامين بمن سموه « أبا مريم » أو «أبو مريام » بل كانوا يقصدون قائدا حربيا ، وقال : ويجوز أن يكون هذا الاسم محرفا عن اسم قائد أرسله هرقل لمساعدة قيرس ، وهو « مارينوس » أو «ماريانوس»[2] ؛ ولم يسلم بصحة الرواية العربية . وقد أثبت حضرة الأستاذ محمد فريد أبو حديد معرّب كتاب الدكتور بتلر هذا التراجع وعلق عليه بقوله : "وبذلك تبطل حجة المؤلف فى تجريح مؤرخى العرب وحمل قولهم هنا على الخلط[3]" .

ومن مزاعم الدكتور بتلر أن مؤرخى العرب جميعا لم يذكروا اسما للمقوقس حتى جاء أبو صالح فى عام ١٢٠٠ للميلاد ، وياقوت الذى كان فى عصره ، فسماه الأول جريج بن مينا والثانى جريج بن قرقب اليونانى ، وذهب الى أن هذا الاختلاف قد يكون مصدره وجود روايتين مختلفتين أو مصدرين للخبر منفصلين[4] . والحقيقة أن أبا صالح هو وحده الذى سمى المقوقس أمير الحصن جريج بن مينا ، وأما ياقوت فلم يذكر له اسما . وقد ذكر أبو المحاسن المقوقس ابن قرقب وجريج بن مينا ، فى «النجوم الزاهرة» ، فى إحدى رواياته عن ابن عبد الحكم ، وقد بينا كيف تعذر على بتلر فهم عبارة أبى المحاسن على حقيقتها ،

---

(١) عن ابن عبد الحكم ؛ الانتصار ج ٥ ص ١١٩ (٢) فتح العرب لمصر ص ٤٥١ (١) .
(٣) فتح العرب لمصر ص ٤٥١ (١) . (٤) فتح العرب لمصر ص ٤٥٢

وكيف أدت به الحيرة لأن يبحث الموضوع من نواح أخرى ، فعمد الى البلاذرى والطبرى فلم يجد فى الأول شيئا يستعين به ، ووجد الثانى على زعمه يجعل المقوقس أميرا للقبط ، وينسب اليه المفاوضة على الصلح والتسليم داخل حصن بابليون ، وأراد أن يفند ذلك فقال : ان المقوقس لم يكن فى الحصن عند فتحه ، ولم يكن قبطيا . ثم لاحظ أن البلاذرى يقول : ان المقوقس كان حاكم الإسكندرية ، مع أن سعيد ابن البطريق يقول : انه كان مراقب الأموال من قبل هرقل ، فدال بذلك على أنه لم يقف على قول ابن عبد الحكم : ان « هرقل » جعل اليه حربها وجباية خراجها .

بعد ذلك يقول : انه لم يستطع أن يجد حلا للغز المقوقس إلا فى نسخة خطية من كتاب ساويرس الأشمونيني . وذكر أقوالا لساويرس ، وبنيامين على زعم أنها تفيد أن قيرس هو المقوقس ، وأن ساويرس يذهب الى القول بذلك ، وهى الواردة فى الفقرات الآتية :

الفقرة الأولى : "استعمل هرقل قيرس بعد استعادة مصر من الفرس وجعل له ولاية الدين والحكم فى الإسكندرية" . ساويرس .

الفقرة الثانية : عشر سنين كان هرقل وقيرس يحكمان فيها مصر . بنيامين .

الفقرة الثالثة : يذكر ساويرس قيرس ويقول : "الحاكم الكافر الذى كان حاكما وبطريقا للإسكندرية ، مدة حكم الروم" .

الفقرة الرابعة : يذكر ساويرس هروب بنيامين عند قدوم قيرس لأن ملكا حذره وأن بنيامين قال : ان المقوقس طردنى وشردنى .

وقد علق على ذلك بقوله : فليس ثمة بقية من الشك فى أن ساويرس يذهب الى أن المقوقس هو قيرس ويفرق بينه وبين بنيامين .

ومن المعلوم أن مؤرخى العرب لم يقولوا مطلقا ان المقوقس هو بنيامين وانه اشترك مع عمرو أى اشتراك ؛ ولكن هو الذى يزعم ذلك وفى الوقت نفسه ينفى زعمه بقوله : ان ما ذكره الطبرى ومن اتبعه كابن الأثير عن بنيامين فانه قول سخيف ؛ فقد جعلوه قائدا حربيا تحت حكم المقوقس . وقد سعى الطبرى الى جعل خبره مقبولا لا تناقض فيه ، بجعل المقوقس أميرا للقبط ، وأنه لا يدرك علة ما يعزوه مؤرخو العرب الى بنيامين من الاشتراك فى الأمور عند الفتح[1] ، وهى حيرة أخرى أوقع فيها نفسه لأن أولئك المؤرخين لم يقولوا إن بنيامين اشترك فى أمور الفتح وإنما قالوا : انه قبيل قدوم المسلمين الى الفرما أوعز بنيامين الى القبط بتلقى عمرو كما سلف . وهو أمر مستدرك سواء كان بنيامين وقتئذ مقيما بالإسكندرية أو بالصعيد . ولم يرو فى الروايات العربية أنه قضى مدة اختفائه فى الصعيد .

ومن الغريب أن ينسب الى مؤرخى العرب أمورا لم يفكروا فيها ثم يتراجع عنها ، وقد استدرك عليه الأستاذ المحترم فريد أبو حديد غير مرة .

ولكى يقدر القارئ مبلغ المجهود الذى تكلفه ثم رجع عنه أن يطلع على كتابه ، فيرى العجب العجاب فى طريقة استنتاجه من ص ٥٠٩ — ٥٢٠

وقد حاول أن يؤيد قوله من جهة أخرى بأن حنا النقيوسى الذى كان معاصرا للفتح ذكر " الاضطهاد " الذى شهره هرقل فى بلاد مصر جميعا على

---

(١) فتح العرب لمصر ص ٤٥١

أتباع مذهب السنة[1] (القبط) . وذلك بتحريض البطريق الخلقيدونى (قيرس)[2] وأن تاريخ القبط مملوء بأقوال من هذا القبيل .

وذكر بعض وثائق قبطية وأخرى عربية قليلة العدد لها علاقة بذلك .

(الأولى) تاريخ حياة شنودة عن أصل قبطى نشره أميلينو، وكتب فى القرن السابع وفيه الخبر الآتى على صورة نبوءة : "ثم يظهر المسيخ الدجال ويمثل بين يدى ملك الروم فيجمع له ولاية الدين والدنيا وسيجىء الى مصر ويناصب فيها كبير الأساقفة بالإسكندرية العداء، ويهرب منه هذا الى أرض تيمان" . وقال : وهذا بغير شك وصف لقيرس[3] .

(الثانية) قطعة من وثيقة أخرى فى المكتبة البودلية Mss. Copt. Clar. Press نشرها أميلينو تحت عنوان « ترجمة، حياة صمويل القلمونى»[4] ، ذكر فيها شخص زار الدير باسم البطريق الدعى ، وأن هـذا البطريق فى رده على تأنيب صمويل قال له : " ... ألا تؤدى لى ما ينبغى عليك أن تؤدّيه لعظيم رجال الدين وكبير جباة المال فى أرض مصر"[5] . وفى سياق الكلام يقول كاتب الترجمة : "ولم يعد (أى البطريق) للدير بعد ذلك الى يومنا هذا" .

وعلق بتلر على هذا بقوله : وهذا يدل على أن النسخة الأصلية المخطوطة قد كتبت قبل موت قيرس فى سنة ٦٤٢ ؛ ولكون صمويل مات فى سنة ٦٣٩ ، بعد أن تنبأ بقدوم العرب بقلمون فى سنة ٦٣٩، فتكون كتابتها سابقة على الفتح .

---

(١) يريد بها حضرة المعرّب مذهب اليعاقبة .
(٢) فتح العرب لمصر ص ٤٥٤
(٣) فتح العرب لمصر ص ٤٥٤
(٤) فتح العرب لمصر ص ٤٥٤
(٥) فتح العرب لمصر ص ١٦٤ و ١٦٥ و ٤٥٤ و ٤٥٥

وفى نظره أن فى ذلك اتفاقا وثيقا مع ما جاء عن عمـــل قيرس فى كتاب ساويرس وما قاله عن المقوقس ، سعيد بن البطريق والمكين وابن دقماق والمقريزى . وأن فى هـــذه الوثيقة اسم الكاوخيوس (المقوقس) فى الصوزة الأصلية القبطية، وأنه يطلق على شخص لا شك فى أنه هو قيرس بعينه .

(الثالثة) التقويم القبطى ورد فيه : قاسى بنيامين شـــدة عظيمة على يد المقوقس فهرب الى الصعيد حيث قضى مدة عشر ســنوات كاملة ؛ وكان المقوقس رئيس مذهب خلقيدونية، وقد استعمل واليا وبطريقا على مصر. قال بتلر : ويتفق التقويم الاتيوپى مع هذا اتفاقا تاما، وقد نقله (Preira) بتمامه وفيه هذه الكلمات : والمقوقس أى (الحاكم والبطريق فى الإسكندرية وكل أرض مصر) وان النسخة الخطية من هـــذا التقويم يلوح أنها مؤرّخة فى القرن الخامس عشر، ولكنها مع ذلك ترجع الى أصل قديم جدا .

(الرابعة) كتاب منسوخ باليـــد فى باريس : منسوخات عربيـــة رقم ١٥٠ — صفحات ٢٠ — ٣١ فيه قصة عن (الأباصموئيل القلمونى) ذكر فيها المقوقس الفـاجر، وقد سمـاه على وجه التعيين (كبيرس المقوقس) وهو تحريف (كيرس المقوقس) كما لاحظه الأســتاذ الكبير جاســتون ڤييت ، والنسخة منقولة من أصل قبطى .

هـــذه هى الأدلة التى يســتند اليها فى زعمه أن قيرس والمقوقس شخص واحد أى أن المقوقس كان بطركا روميا ، ولكنى أرى أنها لا توصل بتلر الى حل اللغز الذى تحير فيه الى ما يتفق مع مقصوده وذلك للأسباب الآتية :

أوّلا : ان ما ذكره حنـا النقيوسى وهـــو أقرب من كتبوا الى تاريخ الفتح فى نظره، هو قوله : الاضطهاد الذى شهره هرقل فى بلاد مصر جميعها

على أتباع مذهب السنة (القبط) ، وذلك بتحريض البطريق الخلقيدونى (قيرس)؛ وهو قول لا يتعدّى الى غير ذكر اضطهاد قيرس للقبط ولا اعتراض عليه ، وإنما المتبادر أن هذا التحريض وقع خلال المدة المنحصرة بين قدوم هرقل الى مصر وبين سنة الفتح .

ثانيا : ان الفقرات التى اعتمد عليها من كتاب ساويرس بعضها نص فيه حقيقة على أن هرقل جعل لقيرس ولاية الدين والحكم فى الإسكندرية بل وفى مصر، ولكن هذا النص جاء فى سياق وقائع سابقة على زمن الفتح وتدور حول نشر المذهب الملكى ، ولا تشير الى أن المقوقس الذى فاوضه عمرو هو قيرس المذكور فيها ؛ وبعضها منقول عن قصة الملك الذى حذر بنيامين أو النبوءة . وليس القصد من قولنا أن نناقش فى موضوع هذه النبوءة وانما نلاحظ أن بنيامين قال : " ان المقوقس طردنى وشردنى " وهو القول الوحيد الذى انفرد فيه بذكر اسم المقوقس بين تلك الأدلة . ولا نراه كافيا لأنه من السهل أن يقال ان ساويرس الأشمونينى الذى وضع كتابه فى القرن العاشر بعد الفتح بنحو ثلاثة قرون ونصف، قد كان ولا شك ناقلا للخبر تحت تأثير سماع النبوءة ، ومن أفضى بها اليه، جرى على لسانه اسم المقوقس بدلا من قيرس فى ذلك العهد الذى كانت فيه الشهرة للمقوقس لا لقيرس . والدليل على ذلك أنه يذكر قيرس فى أقواله الأخرى ، حتى فى المنسوب منها الى بنيامين نفسه الذى أورد عنه ساويرس قوله : " عشر سنين كان هرقل وقيرس يحكمان فيها مصر " .

ومع ذلك فإن قول بنيامين : " ان المقوقس طردنى وشردنى " لا يحتم أن قيرس هو الذى طرده وشرده . ولا يفيد أن المقوقس وقيرس شخص

واحد : بل يفهم منه — وهو فى نظرى التفسير الأصوب — ان المقوقس عند قدوم قيرس اضطهد بنيامين وشرده بصفته الحاكم المتولى من قبل هرقل.

ولا تفوتنا ملاحظة أخرى وهى أن كل ما كتب عن قيرس لم ترد فيه كلمة واحدة كانت صبغتها غير دينية . واذا ذكرنا قصة البطريق الذى زار الدير، وطالب صمويل بان يؤدى له ما ينبغى عليه أن يؤديه لعظيم رجال الدين وكبير جباة المال فى أرض مصر، لا يمكن صرف هذه المطالبة إلا الى ما يجمع من الأديرة والكنائس . وكيف تكون جباية الأموال التى من نوع الضرائب من اختصاص البطرك، وهو بحكم مركزه أعظم رجال الدين فى البلد . وفى الواقع، القول نفسه ينقض بعضه بعضا، لأننا لا نفهم ما الذى كان يضطر البطرك لذكر جباية المال والتهديد بها فى تعزير صمويل العابد فى وقت كان النزاع فيه قائما على العقيدة لا على جباية المال .

لا يكفى أن يقال : ان ساويرس كتب تاريخا مستندا الى وثائق بعضها قبطى وبعضها غير قبطى كانت محفوظة فى مكتبة دير مقار وفى دير نهيا، وفى مجموعات أخرى عند أفراد الناس . وقد اعترف الدكتور بتلر بأن تاريخه : "لايخلو من أخبار دقيقة وأخرى مستحيلة" ولا عبرة بقوله : "انه ليس من العدل فى شيء أن نغفل كل الأخبار التى يوردها المؤرخون القبط بحجة أنهم لايوردون أكثرها". وقوله : "ان حوادث التاريخ قد تجيء فى الوثائق عرضا بغير قصد". وذلك لأن ما نحن بصدده لم يكتب فى عهد قيرس والمقوقس وإنما كتب بعد ثلاثة قرون ونصف من عصرهما دون إسناده الى مصادر يوثق بها، وعلى أسلوب مجرد من الدقة، لانراه فى أخبار رواة العرب التى عمد الى نقضها بهذه الطريقة الغريبة، وهى لا تخلو من الغلو كما يظهر فى قوله الآتى :

"انا لا نعلم مؤرخا واحدا من المؤرخين العرب ، يمكن أن يظهر أن تاريخه يعدل كتاب ساويرس فى أنه قائم على سلسلة غير منقطعة من الأخبار المدونة التى كتب أكثرها كتاب عاشوا فى عصرها ، فإن المؤرخين العرب يروون أخبارا عدة من العصور القديمة ، ولكنهم قلما ينقلون عن الوثائق الأصلية نصوصها أو يسندون أخبارهم اليها ؛ ومعنى هذا القول أن التاريخ القبطى قائم على أساس أقرب الى العلم وأمتن فى الدلالة ، ألا وهو أساس الوثائق المخطوطة"(١) .

وينسى أنه فى الوقت نفسه يقول عن هذا الكتاب : "حقا أنه لا يمكن فى بعض الأحوال أن نعرف الكاتب الحقيقى لخبر من أخبار ذلك الديوان ، وسبب ذلك أن التراجم والوثائق الأخرى التى أدخلت فيه قد كتبها كتاب مختلفون فى مدة حياة البطارقة المتعاقبين أو بعد موتهم بقليل(٢) .

فكيف تكون اذن الأخبار التى ترجع الى مصادر من هذا القبيل محل ثقة وتكون كتب التاريخ العربية لا تعدل كتابا حشرت فيه أقوال لا يعلم من هو حاشرها . ولكن الدكتور بتلر له العذر لأنه على ما يظهر لم يبدأ بالبحث عن الطريقة التى كان الرواة يروون بها أخبارهم ويميزون بين الخبيث منها والطيب ؛ حتى وصلت الينا سليمة لا يتعدى الاختلاف فيما بينها تحريف لفظ أو اسم أو تاريخ أو سقوط عبارة مما يسهل تداركه بفضل تعدد الرواة — والتشديد فى المحافظة على النصوص بالرواية المسندة والتدوين لا بالاستبداد والتشيع لفكرة طارئة أو ميل ، كما فعل فى كتابة تاريخ الفتح

---

(١) فتح العرب لمصر ص ٥١٥

(٢) فتح العرب لمصر ص ٥١٤

بالتجائه الى الظنون والتأويل والتقديم والتأخير . فتغيير المعنى فى الأقوال وتحويل أسماء أشخاص الى أشخاص، وأسماء أماكن الى أشخاص توضع لهم أسماء ويشركون فى الوقائع والحوادث التاريخية كما مر علينا . حتى جاء كتابه هذا على أسلوب لا يفهم منه ما هو الأصل الذى نقل عنه وما الذى جاء به الاستنتاج .

ولقد كان الدكتور ستانلى لين پول محقا لما أعرب عن تردده فى قبول تلك النصوص التى اعتبرها بتلر أدلة وقال[1] :

" ... فاذا ذهبنا الى أن ترجمة هذه النصوص صحيحة دقيقة (يريد كتاب ساويرس)، وتقويم حياة القديسين وحياة (صمويل القلمونى)، واذا قلنا ان هذه النسخ المخطوطة وأكثرها متأخر العهد، منقولة نقلا صحيحا عن الوثائق الأصلية الأولى التى يعتمد عليها . وليس لى أن أبدى فى هذا الأمر رأيا، اذا سلمنا بذلك كله خرجنا على أن هذه النصوص مجتمعة تدل على أن قيرس والمقوقس كانا فى نظر هؤلاء الكتاب شخصا واحدا . وهذا رأى لا يكاد ينازع فيه أحد، غير أن لدينا سؤالا واحدا وهو : هل كان هؤلاء ممن يعتمد على أقوالهم ؟

وقال : وإنا اذا لم يكن لدينا غير هذه النصوص القبطية الاتيوبية، لكان من المحتمل أن نقول : "إن البرهان قائم على أن المقوقس هو قيرس، ولكنا اذا نظرنا الى سلسلة كتب المؤرخين من العرب ... واذا رأينا أن هذه السلسلة لا يوجد فى أى منها أقل إشارة الى أن المقوقس هو قيرس . اذا رأينا

---

(١) فتح العرب لمصر ص ٥٠٠ و ٥٠١

ذلك لم يسعنا إلا أن نرى دليلهم قاطعا ولو أنه دليل سلبي ، إذ كيف لا يذكر واحد من هؤلاء المؤرخين أن المقوقس كان قسيسا بله رئيس أساقفة ... " .

وقد أجاب على ذلك الدكتور بتلر ، فقال : ان الدليل السلبي المتخذ من سكوت مؤرخي العرب عن بيان معنى المقوقس له قيمة كبرى فى البرهان على أنهم لا يملكون إلا الشك والخلط ، وأنهم فى ذكرهم لأخباره يبدون أكبر الاضطراب والتناقض . وخالف ستانلي لين پول فى قول جاء فيه : « ان مؤرخى العرب يذكرون أن المقوقس صالح العرب ؛ وأن ذلك يمكن تفسيره بأن المقوقس كان حاكما تابعا قام بمصالحة العرب وأن قيرس البطريق والحاكم الأعلى أقر ما قام به تابعه وبعث بذلك الى الامبراطور » .

أقول : ومن الغريب أن يؤاخذ الدكتور بتلر رواة العرب ومؤرخيهم ويتحداهم ، لأنهم لم يبينوا معنى « المقوقس » ولا يوجه هذه المؤاخذة لأصحاب تلك الوثائق الأصلية التى ذكرها أولئك الكتاب الذين كتبوا حياة البطارقة ، فان العرب لم يقولوا وحدهم « المقوقس » بل كان هذا اللقب متداولا عند أهل مصر وقتئذ ، بدليل وروده فى قول بنيامين بطرك اليعاقبة : "ان المقوقس طردنى وشردنى" . كما جاء فى كتاب ساويرس .

ولقد أطال فى رده على الأستاذ ستانلي واتهم العرب بالشك والخلط ، ناسيا أن تفسيره هو نفسه للنصوص الأصلية لا يمكن وصفه بخير من أنه محاولات عقيمة لتوجيه هذه النصوص نحو الغرض الذى يبتغيه ، وقد ذهب فى ذلك الى مدى بعيد ، مع أن الحقيقة لم يكن من المتعذر ادراكها ، إذا توفر الإخلاص واعتدل البحث .

إن وجود قيرس بطركا بالإسكندرية يعطيه السلطة التامة على الأمور الدينية فى البلاد كلها ، ويجعله متحكما فى أموال الكنائس والديور ، ووجود المقوقس معه كحاكم من قبل ملك الروم فى آن واحد ، جائز ولا يتعذر ، لأن تاريخ البطاركة لم يخل من مثل ذلك : فقد روى المقريزى فى الباب الذى خصصه فى خططه تحت عنوان : « ذكر دخول قبط مصر فى دين النصرانية » ، وهو من أظرف ما كتب فى الموضوع مع الإيجاز والبعد عن الحشو ما نصه : إن ملك الروم كتب الى متولى الإسكندرية أن يعرض على بطرك اليعاقبة تاوداسيوس أمانة المجمع الخلقيدونى ، فان لم يقبلها أخرجه . فعرض عليه ذلك فلم يقبله ، فأخرجه وأقام بعده بولص التنيسى فلم يقبله أهل الإسكندرية[1] .

ولما جاء عمرو الى مصر كان مثل هذا المتولى موجودا ، وقد ذكرنا فيما تقدم نقلا عن المقريزى أن الحصن المعروف بقصر الشمع ، كان ينزل به شحنة الروم المتولى على مصر من قبل القياصرة ملوك الروم عند مسيره من مدينة الإسكندرية ، ويقيم فيه ما شاء ثم يعود الى دار الإمارة ومنزل الملك فى الإسكندرية ، وهو ما كان يجريه كما تقدم ، المقوقس لا قيرس الذى لم يقل أحد من مؤرخى العرب ان ولاية الحرب كانت له ، كما أنهم لم يقولوا عن المقوقس انه كان بطركا . وقد قال الدكتور بتلر إن المقوقس ، لم يكن من القبط ، ولم يكن فى الحصن عند فتحه ، وإنما كان[2] به عند ابتداء الحصار[3] . وهو على أى حال إقرار صريح بما ورد عن وجوده بالحصن لتجهيز الجيوش ضد عمرو .

(١) الخطط ج ٢ ص ٤٩٠ (٢) فتح العرب لمصر الملحق الثالث ص ٤٥٣
(٣) فتح العرب لمصر ص ٢١٩

وهـذا الرأى الذى أبديه، وهو قصر اختصاص بطرك الإسكندرية على كل ما له علاقة بالكنيسة من الشئون الدينية وأموال الكنائس والأديرة، والتمييز بينه وبين اختصاص المتولى من قبل القياصرة هو الحل الوحيد؛ بل هو الأمر الذى كان واقعا. وهل يعقل أنه عند زحف المسلمين على البلاد، ووجودها فى تلك الظروف الحرجة الدقيقة التى كانت تهددها ويعلم بخطورتها هرقل نفسه، وقد حاربه المسلمون فى الشام واضطروه الى مغادرتها، أن يترك ولاية الحرب لأحد رجال الدين الذى كانت أوقاته كلها تشغلها الخصومات المذهبية؛ وقد فهمنا من قول بتلر أن هرقل أراد حمل الناس على ما أراد "من توحيد المذاهب فى الديانة المسيحية" بالشدة والضغط، فجاء بقيرس ليحمل القبط بعسفه واضطهاده على الخروج من مذهبهم جبرا واضطرارا .

ويبعد جدا أن من تكون هذه مأموريته، يعهد اليه بولاية الحرب، مع أنه لم تكن له سابقة فى مثل هـذا العمل كما يدل عليه قول بتلر نفسه : أن هرقل نقل قيرس من ولاية الدين فى فاسيس ببلاد القوقاز[(١)] .

ويستند بتلر الى أن جمع السلطة العليا فى أمور الدين والدنيا معا فى شخص واحد لم يكن بدعة جديدة . وذكر على سبيل المثال حادثة وقعت فى القرن السادس، وهى أن جستنيان (يوسطيانوس) الامبراطور عرض على تيودوسيوس (تاوادسيوس) أن يكون بطريق الإسكندرية وحاكم مصر معا، اذا هو قبل كتاب ليو ومذهبه الدينى[(٢)] .

---

(١) فتح العرب لمصر، الملحق الثالث ص ٤٦٢

(٢) فتح العرب لمصر، الملحق السابع ص ٥١٠

ولكن هذا الدليل أيضا ينقصه النص على أن ولاية تيودوسيوس تشمل قيادة الحرب والشحنة، على أنه هو نفسه أورد عن نيقفوروس خبرا يؤيد ما قلناه من أن الأمبراطرة كانوا يولون بجانب البطرك من يقوم بأعمال الشحنة والحرب ونصه : "أن نيقفوروس يذكر أن هرقل بعث الى الإسكندرية ماريانوس وهو قائد حربى، ليشترك مع قيرس بطرك الإسكندرية فى الاستقرار على خطة يسيران عليها مع العرب" ومن البديهى أن قوله يشترك، لا يفيد اشتراك قيرس فى قيادة الحرب؛ لأن هذا الاشتراك فى نظرى لا يتعدّى ما قام به أبو مريام وزميله بجانب أرطبون بعد وقعة أم دنين كما تقدّم . ويؤيده قول نيقفوروس : إن هرقل أمر مريانوس أن يشترك مع قيرس فى الاحتيال فى أمر العرب خاصة . ولا محل لتفسير بتلر أن هذا الأمر ينص على أن قيرس كان له أمر الدنيا[1] .

على أن كل هذا لم يرد فيه ما ينفى قول مؤرّخى العرب (رواية يزيد ابن أبى حبيب) أنه لما انتقض الروم فى وقعة منويل الخصى "لم يكن المقوقس تحرك ولا نكث" ، يعنى أنه لم يشترك فى وقائع الإسكندرية، ولم يكن هو الحاكم ولا المصالح .

ومن غريب التخريج ما نقلته السيدة المحترمة مدام ديفونشير فى كتابها « مصر الإسلامية »، عن الدكتور بتلر، وهو أن لفظ المقوقس الغامض قد يكون معناه القوقازى[2] .

---

(١) فتح العرب لمصر ص ٥١٦ و ٥١٧

(٢) ص ١٣ طبع باريس سنة ١٩٢٦

ويقرب منه قول المرحوم الأستاذ الإسكندرى فى « تاريخ مصر[1] » :
وفى المقريزى أنه يسمى المقوقس بن قرقط، ولعله محرف عن سيروس لأن حرف C ينطق به فى العربية ق كثيرا ؛ ويلاحظ أن المقريزى ذكر قرقت بالتاء لا بالطاء . ويغلب على الظن أن قول الإسكندرى منقول عن أصل أفرنكى . وقد ورد هذا اللفظ أيضا بالطاء فى البحر الزاخر[2] . وورد فيه أن حاكم مصر فى وقت فتح مصر من قبل الروم، كان يوحنا بن قرقط اليونانى؛ وهو من الكتب الحديثة وقد تسرب اليه التحريف فى النقل أو الترجمة .

---

(١) بهامشه ص ١٧٧ ج ١، الطبعة الأولى .

(٢) ملك هرقل Héraclius من سنة ٦١٠ الى سنة ٦٤١م . (دائرة المعارف الكبرى الفرنسية المجلد ١٩ ص ١١٣٣) .

كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
الى المقوقس

عدم الاتفاق على النص :

ذكره محمد بن إسحاق فى فتوح مصر، وأورده بنص مختلف عما ذكره بعد ذلك ابن عبد الحكم فى فتوح مصر، والقسطلانى فى المواهب اللدنية، والمقريزى فى المواعظ والاعتبار، ولم يخاطب فيه المقوقس بلقب «عظيم القبط» كما أثبته هؤلاء، وإنما لقب بصاحب مصر والإسكندرية .

والنص الذى أورده ابن عبد الحكم والقسطلانى والمقريزى للكتاب هو نفسه الذى كتب به رسول الله صلى الله عليه وسلم الى قيصر [1] .

ولا يوجد بين كتبه عليه الصلاة والسلام الى الملوك كتابان غيرهما بلفظ واحد . ويلاحظ أن لفظ «عظيم» الذى لقب به المقوقس فى هذين الكتابين كتب به أيضا عليه السلام لغيره ؛ فقد كتب به الى كسرى وقيصر . وقال القسطلانى : لم يقل صلى الله عليه وسلم الى هرقل ملك الروم، لأنه معزول بحكم الإسلام ولم يخله من الإكرام لمصلحة التأليف .

---

(١) كتب اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آخر سنة ست من الهجرة (٦٢٨ م) بعد أن رجع من الحديبية كما قاله الواقدى ؛ الخطط للمقريزى ج ١ ص ٢٩ ؛ القسطلانى ج ١ قال : وكان سنة ست «اتفاقا»، ص ٢٩٠

وفى النص الذى أورده القسطلانى هـذه العبارة : "فإن توليت فعليك إثم القبط" . ولم ترد فى ابن عبد الحكم والمقريزى والسيوطى ، و يقابلها فى كتاب قيصر : "فإن توليت فعليك إثم الأريسيين" .

الجزم بأن ارسال كتاب الى المقوقس صحيح :

ولاحظ الدكتور بتلر أن أملينو يذهب إلى أن خبر بعث النبي محمد صلى الله عليه وسلم الى المقوقس كتابا ، فى عام سنة ٦ هجرية (٦٢٧ م) ، غير حقيقى . واستدرك على ذلك بقوله : "فليس ثمت ما يبرر تكذيب خبر بعث النبي للرسول الى مصر ، اذ أنه خبر قد قام عليه من الدليل ما قام على أى خبر مصدّق من أخبار تاريخ الإسلام"[(١)] .

وعلق حضرة الأستاذ محمد فريد أبو حديد معرّب كتاب الدكتور بتلر على ذلك بقوله : " لسنا ندرى مقدار هـذه الحجة من الصدق ، مع ما يزعم (الدكتور بتـلر) من وجود كتاب بعثه النبي صلى الله عليـه وسلم الى « عظيم القبط » ، وفيـه يسمى بلفظ « المقوقس » اذ لم يتعرّض المؤلف لذكر نص هذا الكتاب ، ثم قال : "وقد راسلنا المؤلف فى هـذا الأمر وعرضنا عليه أن النبي أرسل رسوله الى حاكم مصر فى ذلك الوقت ، وهو « جورج » ولقبه بذلك اللقب ، ولم نجد منه رفضا لذلك الرأى . والظاهر على ذلك أن المقوقس كان لقبا يطلق على كل من يحكم مصر من قبل الروم"[(٢)] .

أما من جهـة قول الدكتور بتلر : إنه لا يوجد ما يبرر تكذيب إرسال الكتاب الى المقوقس فهو فى محله ، بحكم أن مكاتبته عليه السلام الى الملوك

(١) فتح العرب لمصر ص ٤٥٩ (٢) فتح العرب لمصر ص ٤٥٩ (١) و (١ ً) .

ولغيرهم داعيا الى الله عز وجل أمر مقطوع بصحته ؛ فإن هـذه الكتب وإن لم تذكر كلها بنصها فى الصحيحين، فقد ذكر فيهما ما أرسل الى كسرى وقيصر[١] . وروى أن كتاب قيصر قرئ بحضور أبى سفيان ونفر من قريش :

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله الى هِرَقْل[١] عظيم الروم . سلامٌ على من اتبع الهُدى . أما بعد، فإنى أدعوك بداعية الإسلام، أَسْلِمْ تَسْلَمْ ، وأَسْلِمْ[٢] ، يُؤتِكَ الله أجرك مرتين ؛ فإن توليت فعليك إثم الأَرِيسِيِّينَ ، ويا أهل الكتاب تعالَوْا الى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم أن لا نعبُدَ إلّا اللهَ ولا نُشْرِكَ به شيئا ولا يتخِذَ بعضُنا بعضا أربابا من دون الله فان تولَّوْا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون » . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل هذا الكتاب الى قَيْصر مع دِحْيَة بن خليفة الكلبى[٣] .

(١) فى صبح الأعشى ج ٦ ص ٣٧٧ ، ان ماثبت فى الصحيحين "من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم"، وقـد أوردنا فى المتن النص الوارد فى البخارى طبع الميمنية بمصر ج ٢ ص ١٠٠ . وقد ورد فيه أيضا فى ص ٥ وفى صبح الأعشى « بدعاية » بدلا من « بداعية » .

(٢) فى صبح الأعشى للقلقشندى ج ٦ ص ٣٧٧ : «أسلم» غير مسبوقة بواو. وفى الفصل الذى أورد فيـه صاحب الشفاء، جوامع الكلم والحكم المأثورة عن النبى صلى الله عليـه وسلم ممـا لا يوازى ولا يبارى بلاغة ذكر منها قوله : « أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين » . (ج ١ ص ٦٠ طبع الآستانة سنة ١٢٩٠) .

(٣) المواهب ج ١ ص ٢٩٠ ، وقد أشار الدكتور بتلر الى ذلك والى مقتل الرسول الذى بعثه النبى صلى الله عليـه وسلم فى موتة . والتبس الأمر على حضرة الأستاذ معرب كتابه فيما يتعلق بهذا الرسول، فقال : لا يمكن أن يكون المقصود هو «دحية الكلبى» فانه عاد الى النبى عليه الصلاة والسلام بعد أن أدّى رسالته الى قيصر . ولكن لعله يقصـد أنه أغار عليـه قوم وهو فى الطريق فسلبوا ما معه، وقد يكونون قتلوا أحدا ممن كان فى صحبته .

والصحيح فى ذلك أن رسول النبى صلى الله عليه وسلم الذى أشار اليه الدكتور بتلر، هو الحارث ابن عمير الأزدى . وكان النبى عليه الصلاة والسلام أرسله بكتاب الى ملك بصرى فى جمادى الأولى سنة ثمان ، فلما نزل موتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى فقتله . قال القسطلانى ولم يقتل ═

وذكر فى غير الصحيحين ما بعث من هـذه الكتب، بعضها بنصه وبعضها اكتفى بالاشارة اليه .

واذا كان الدكتور بتلر لم يأت بنص كتاب المقوقس ، فقد يكون استغنى عنه لشهرته وتداوله فى كثير من كتب الحديث والتاريخ والسير .

أما أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم كتب الى حاكم مصر، فى ذلك الوقت ؛ وهو « جورج » فإن هـذا الاسم لم ينص عليه . لا فى الكتاب نفسه ولا فى الروايات الأصلية المدونة عنه . وكل ما وقفت عليه أن الذهبي بمناسبة ذكر المقوقس فى كتاب ابن منده وأبى نعيم فى الصحابة، قال عنه فى التجريد: لا مدخل له فى الصحابة،فمازال نصرانيا واسمه جريج.[1] كما أن الحلبي فى « سيرة الأمين المأمون » المعروفة « بالسيرة الحلبية » قال: والمقوقس لقب، وهو لغة، المطول للبناء[2] واسمه "جريج بن مينا"[3]، وهى أقوال متأخرة ، وقد يكون أصلها قول ابى صالح . وقد بينا فى كلامنا عن أبى المحاسن رأينا فى اسم « جريج بن مينا » ولا داعى لذكره هنا .

واذا كان هناك ما ينتقد بسبب الغموض الذى كان محيطا بهـذا الاسم فإنه لا يتعدى عدم الدقة فى النقل والنسخ .

= لرسول الله صلى الله عليه وسلم رسول غيره . فتح العرب لمصر ص ١٢٧ و ١٢٨ والمواهب اللدنية ج ١ ص ١٨٧) .

قال القسطلانى : موتة بضم الميم وسكون الواو بغير همز لأكثر الرواة، وبه جزم المبرد؛ وجزم ثعلب والجوهرى وابن فارس بالهمز. وحكى غيرهم الوجهين . وهى من عمل البلقاء بالشام دون دمشق .

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ١١٧ (٢) وعند العامة الى وقتنا تطلق كلمة المقوقس بلفظ (المتوأز) على الشيء اذا علا ولم يكن ثابتا ؛ فيقال للبيت اذا علا وتعرض للسقوط ، أنه متوأز . (٣) ثالث ص ٢٧٥

وقـد أغفل ابن هشام، فى السيرة ، فى كلامه عن كتاب النبي صلى الله عليـه وسلم الى المقوقس ، ذكر نصه ؛ وهـو الذى جمع السيرة النبوية من المغازى والسيرة لابن اسحاق وهذبها ولخصها . ولم يدونه ابن سعد فى طبقاته .

وكذلك فعل الطبرى فى تاريخه ، مع أنه ذكر كتاب المقوقس فى مواضع[1] ، فروى عن محمـد بن عمر أن النبي صـلى الله عليـه وسلم بعث الى المقوقس فى ذى الحجة سنة ست ، ثلاثة نفر مصطحبين حاطب بن أبي بلتعة . وذكر عن ابن اسحاق ، المقوقس مع لقب صاحب الإسكندرية ، وأنه أهدى الى رسـول الله صلى عليـه وسلم أربع جوار منهن مارية أم ابنـه ابراهيم . ولم يذكر نص الكتاب فى الروايتين .

ويخطر بفكرى أن هـذا الإغفال قد يكون مقصودا لاختلاف النص عند ابن اسحاق عن غيره .

الكلام على المخطوط الذى عثر عليه وقيل انه الكتاب الشريف :

منذ عدة سنين أهدى الىّ حضرة الأستاذ محمد بك على سعودى صورة فتوغرافية من كتاب النبي صلى الله عليه وسلم الى المقوقس من رسمه ، مطبوعة طبعا جميلا على ورق مصقول ؛ وبجانبها نص الكتاب ، مرقوم بقلم نسخ بديع . وقد وردت بها جملة . " فإن توليت فعليك إثم كل القبط " ، وفيها كلمـة " كل " زائدة عما فى جميـع النصوص التى وقفت عليهـا ، وكلمة وأسلم الثانيـة الواردة فى النص المثبت فى فتوح مصر لابن عبد الحكم ، كما سيأتى ، ناقصة .

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ٣ ص ٨٤ و ٨٥ و ٩١

وكانت عندى من قبل صورة أخرى فتوغرافية من هذا الكتاب نفسه أهديت الىَّ فى بعض زياراتى للإسكندرية من رسم المغفور له الأستاذ الكبير سليمان زهدى افندى وقد كتب عليها ما يأتى :

صورة الكتاب الذى بعثه النبي صلى الله عليه وسلم مختوما بخاتمه الشريف الى المقوقس عظيم القبط بمصر، مع حاطب بن أبى بلتعة، فى السنة السابعة من الهجرة ؛ وفى سنة ١٢٧٥ عثر أحد الفرنساويين على نفس الكتاب فى كتب قبطية اشتراها من بعض رهبان القبط بدير ببلدة إخميم بجهة صعيد مصر، فتوجه به الى السلطان عبد المجيد خان فأمر بحفظه بدار الآثار النبوية بالآستانة ، وفيه آثار القدم كما هو مشاهد . ونقل هذا محمد على سعودى بالفتوغرافية سنة ١٣١٦ من صورة منقولة عن الأصل ، وحررنا غيرها بقلم محمد طاهر الأزميرى، لما كان فيه من التغير، سنة ١٣٢٨ .

فتوغرافية سليمان زهدى بالإسكندرية ١٤ صفر سنة ١٣٢٨

ومن المقابلة تبين أن النص واحد فى الصورتين ، ولوجود الأصل بدار الآثار النبوية بالآستانة ، اكتفيت بالاعتماد على المدوّن فيهما ؛ وهو النص القائمة عليه الشكوك . وفى الملاحظات التى ذكرتها ما يكفى للنظر الى هذا الكتاب بحيرة وتردّد مع تغلب الشك .

محاضرة عن المخطوط الذى عثر عليه — أقوال بعض العلماء والمستشرقين عنه — الشبهات الدالة على بطلانه :

وفى أثناء كتابة ما تقدّم زارنى الأستاذ الفاضل محمد شريف حافظ سكرتير لجنة حفظ الآثار العربية ، وأطلعنى على نص محاضرة باللغة الإنجليزية للأستاذ محمد حميد الله من حيدر آباد ؛ ألقاها بكلية سان چون بأكسفورد فى ظهر يوم ١١ مايو سنة ١٩٣٩ ؛ عن بعض كتابات عربية منقوشة على الحجر بجبل سلع بالمدينة المنورة ، ترجع الى أوائل سنى الهجرة . وكانت زيارته للمدينة فى فبراير من تلك السنة . وقد ذكر فى هذه المحاضرة ضمنا كتابى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المقوقس والمنذر بن ساوى ، فقال عن الكتاب الأوّل[1] : إن أصل الكتاب كما هو معروف عثر عليه بطريق الصدفة فى دير على مقربة من إخميم بالوجه القبلى بمصر ، والذى وجده بارتيليميه[2] المستشرق الفرنسى ، وحكاية ذلك : أنه وجد فى الدير مخطوطا غلافه يتكون من أوراق ملصقة الواحدة على الأخرى بجانبى قطعة من الجلد ، وتشتمل الأوراق على

---

(١) نشر الأستاذ محمد حميد الله مع هذه المحاضرة صورتين فتوغرافيتين من كتاب المقوقس ، الأولى من رسم نقل من الأصل المحفوظ بالآستانة نشر بالجريدة الأسيوية فى سنة ١٨٥٤ وهو غير متقن ، والأخرى من تصوير حضرة محمد على بك سعودى كالنسخة التى تفضل باهدائها الىّ .

(٢) Barthélemy .

عدة مكاتبات باللغة القبطية ، فدفعه الفضول لأن يفصل الأوراق بعضها عن بعض فوجد مرقوما على الجلد الذى بوسطها كتابة عربية قرئت فيما بعد واتضح انها كتاب محمد صلى الله عليه وسلم الى المقوقس .

وقد ذكر المرحوم حفنى بك ناصف ، هذا الخبر الذى أورده الدكتور محمد حميد الله ، فى كتابه تاريخ الأدب أو حياة اللغة العربية مع زيادة طفيفة ، جاء فيها ان الباحثين لما عثروا على الكتابين المرسلين الى المقوقس والمنذر ابن ساوى ، أخذوا صورتيهما بالتصوير الشمسى وطبعوهما : وأنهما محفوظتان فى الآستانة وفينا ، فى الأولى كتاب المقوقس ، بدار الآثار النبوية ، وفى الثانية كتاب المنذر ، وأن العثور عليهما كان فى زمن المرحوم سعيد باشا والى مصر ، وسمع السلطان عبد المجيد بحديث كتاب المقوقس فاستقدم العالم الذى اكتشفه وعرضت النسخة على العلماء ، فقرروا أنها بعينها كتاب النبى صلى الله عليه وسلم الى المقوقس فاشتراها منه بمال عظيم [١] .

وقال الأستاذ محمد حميد الله : وفى دائرة المعارف الإسلامية فى ترجمة المقوقس كشف مطول ذكر فيه واضعه أسماء العلماء الذين فحصوا هذه الكتابة ثم قرروا عدم صحتها .

قال المحاضر : وأعترف أنى شعرت بخيبة أمل لما راجعت أقوالهم .

(أولا) بيكر (Becker) له سطر واحد فى مقدمة ما كتبه [٢] ، قال فيه : يحتمل أن هذا المخطوط صفحة من مذكرة عن بعض الأحاديث [٣] ، والمتبادر

(١) راجع نهاية الأرب ج ١٠ ص ٨١ (١) .

(٢) Papyrus Schott Reinhardt (I, 3, n. 3).

(٣) Traditionszettel.

أنه قال ذلك، ولم يرحتى صورة فتوغرافية من الكتابة الأصلية ، لأن مفكرات الأحاديث لم تجر العادة بأن تبصم بختم فى آخرها .

(ثانيا) أملينو[١]، لم يأت بما يستند اليه فى ملاحظته التى أوردها عن هذا الكتاب بأكثر من قوله : وليس فى وسعى أن أقول إن هذا المخطوط له أي قيمة تاريخية ، لأنى أنظر اليه بعين الريبة ؛ ومن الدور المهم الذى قام به المقوقس يفهم لماذا وضعت له هذه الأسطورة ، ولم يذكر سببا آخر .

(ثالثا) كراباتشك[٢] ، وعد أن يضع نبذة خاصة فى الموضوع ، ولكنه فيما أعلم لم يتمكن من ذلك، وكل ما كتبه رغم هذا الوعد أن هذا المخطوط مكتوب بقلم لا يرجع فى القدم الى عهد الهجرة .

(رابعا) جورجى زيدان، جرأ أن ينكر فى سنة ١٩٠٤[٣] خبر نشر الخطاب فى الجريدة الأسيوية فى سنة ١٨٥٤، ولا أدرى إذا كان كتب شيئا آخر عن هذا الموضوع بعد ما أكد له البروفسور مارجوليوث الخبر بخطاب .

(خامسا) كايتانى، لم يذكر شيئا عن خبر المخطوط، ولكنه استنكر أن يبعث أحد البطاركة جاريتين مسيحيتين لعربى لا يدين بالمسيحية (يريد النبي عليه أفضل الصلاة والسلام[٤]) . وأخذ يلغط بكلام مبهم عن صعوبة الاهتداء الى معرفة شخصية المقوقس .

---

(١) Amélineau (J. A., 1888, II, p. 392.) .

(٢) Beiträge zur Geschichte der Mazjaditen, Leipzig 1874, p. 34-35.

(٣) الهلال بالقاهرة سنة ١٩٠٤

(٤) Annali dell' Islam, anno 6. .

(سادساً) الأستاذ جاستون ڤييت، ذكر فى تعليقه على ما ورد فى خطط المقريزى عن هذا الكتاب اعتراضين :

(الأول) إن كتاب المقوقس، فيما خلا عنوان المرسل اليه، ينطبق كلمة فكلمة على نص الكتابين اللذين زعم بأنهما أرسلا من النبي صلى الله عليه وسلم الى النجاشى وهرقل .

(الثانى) إنّ هذا الكتاب رغم ما هو معروف عن بيعه الى السلطان عبد المجيد الأول، يوجد خطاب مماثل له عند أحد أعيان القاهرة .

ولم يزد شيئا على ذلك فيما يتعلق بهذا الخطاب الأخير .

ثم قال الأستاذ محمد حميد الله : أما عن الاعتراض الأول ، وهو اتحاد النص فى الكتب الثلاثة أليس فى وسعى أن أقول : إن هذه الكتب حررت فى يوم واحد وأرسلت الى الملوك وكلهم مسيحيون ووجهت فيها اليهم الدعوة الى الإسلام بنص واحد ؛ وليس من الممتنع حتى فى مكاتبات القرن العشرين، إرسال كتب متشابهة النص على هذه الصورة .

(سابعاً) نولدك[1]، قال : لا يوجد ما يدعو الى الشك فى هذا الكتاب الوارد نصه فى كثير من الكتب المعدودة من أحسن المراجع العربية .

قال ذلك فى الطبعة الأولى من Geschichte des Quran, (1860, p, 140) ؛ ولكن فى الطبعة الثانية منه[2]، اعترض عليه شڤالى Schwally بثلاثة أمور :

---

(١) Nöldeke .

(٢) سنة ١٨٦٠ (ص: ١٩٠ رقم ٣) .

الأمر الأول : أن الختم بالطينة Tonsiegel هو الذى كان متداولا فى ذلك العهد . أما الختم بالحبر فلم يكن معروفا .

ولم يذكر المصدر الذى نقل عنه هذا القول . وقد جرت العادة أن يستعمل الختم بالطينة فى الغلافات لا فى ختم الكتب من الداخل . وقد ذكر ابن عساكر أن النبي صلى الله عليه وسلم ختم بالطينة مرة واحدة لأن ختمه لم يكن معه فى معاهدة الأكيدر ، (كما أورده ابن حجر فى الإصابة ، انظر : وهب بن الأكيدر) وهذا هو النص الوحيد ، ومع ذلك أخشى أن يكون وروده بهذا النص عن تحريف وقع من الناشر فى قراءة النسخة الأصلية من كتاب ابن حجر ؛ لأن الخبر نفسه وارد فى كنز العمال [١] ، عن ابن عساكر أيضا وتقرأه «ختمه بظفره» (وهى عادة قديمة [٢] كانت متبعة عند الأمم السامية ، خصوصا فى الحيرة مهد الأكيدر) لا «ختمه بطينة» كما هو وارد فى الطبقات المطبوعة لابن حجر ، والشبه متوفر بين اللفظين كتابة . ونجد فيما بعد فى جغرافيا ابن رستة ص ١٩٢ ، وفى لطائف المعارف للثعالبي من رواية الكتانى ، أن أول من استعمل ختما بالطينة بين المسلمين أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه . يضاف الى ذلك أن ما ذكره ابن حجر وارد فى الطبقات لابن سعد [٣] ، وفى المغازى للواقدى [٤] ، وفى الكتابين ختمه بظفره .

---

(١) رقم ٥٦٦٠ و ٥٦٦١ و ٥٧٠٤

(٢) ذكره Meissner, Babylonien und Assyrien, I, 179. وكذلك Krückmann, Ch. Edwards وغيرهم .

(٣) المجلد الثانى ج ١ ص ١٢٠

(٤) النسخة الخطية بالمتحف البريطانى ص ٢٣١ ، حرف أ (a) .

ا قال الأستاذ محمد حميد الله : ومما يؤسف له أن مختصر تاريخ دمشق[1] لابن عساكر المشتمل على معاهدة الأكيدر، لم يذكر فيه الختم بالمرّة[2] .

(١) (المجلد الأول ص ١١٥) .

(٢) ورد في الحديث الشريف : أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يكتب الى بعض العجم ، فقيل له : يا رسول الله انهم لا يقرءون كتابا غير مختوم ، فأمر أن يتخذ له خاتم ، فاتخذ له خاتم من فضة ختم به ؛ وكتب الى من أراد أن يكتب له من الأعاجم ، ونقش عليه محمد رسول الله ثلاثة أسطر وكان الخاتم في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى قبضه الله تعالى ؛ ثم تختم به أبو بكر رضي الله عنه حتى قبض ، ثم تختم به عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى قتل ، ثم تختم به عثمان رضي الله عنه ، فبينما هو ذات يوم على بئر أريس من بئار المدينة اذ عبث بالخاتم فسقط من يده ، فنزح كل ما كان في البئر من الماء فلم يوجد ، فلما يئس منه أمر أن يصاغ له خاتم مثله و ينقش عليه «محمد رسول الله» ففعل ذلك وتختم به . قال القلقشندي هكذا أورده صاحب «ذخيرة الكتاب» و بعضه في الصحيح .

وقال القلقشندي أيضا : وقد اختلف في أول من اتخذ الخاتم ، فروى محمد بن عمر المدائني في كتاب « القلم والدواة » بسنده الى ابن عمر رضي الله عنه أنه قال : لم يكن أبو بكر ولا عمر يلبسون خواتم ولا يطبعون كتابا ، حتى كتب زياد بن أبي سفيان الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه : انك تكتب الينا بأشياء ليست لها طوابع ، فاتخذ عند ذلك عمر طابعا يطبع به ويختم الكتاب ، ولم يكن قبل يختم ، قال ومقتضى ذلك أن يكون أول من اتخذ الختم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ و يكون لبسه خاتم النبي صلى الله عليه وسلم لغير الختم . وذكر الطبري في تاريخه أن أول من اتخذ ذلك معاوية بن أبي سفيان في خلافته .

وقال : ومن كلام عمر رضي الله عنه : " طينة خير من ظنة " يعني أن ختم الكتاب بطينة خير من ظنة تقع في الكتاب بالنظر فيه أو زيادة أو نقص . والظنة التهمة . ومن كلام غيره : "اختم تسلم" ؛ ومن كلام غيره : "إن طينت و إلا وقعت" ؛ يعني إن طينت الكتاب و إلا وقعت في المحذور . و يقال أن في ختم الكتاب تعظيما للمكتوب اليه ... ولم تزل كتب العرب منشورة حتى كتب عمرو بن هند الصحيفة الى المتلمس ، فقرأها ولم يوصلها . فختمت العرب الكتب من حينئذ . صبح الأعشى ج ٦ ص ٣٥٢ — ٣٥٥

والمتبادر أن ختم الكتب كان ممكنا باستعمال المادة التي يكتب بها . وفي التاريخ القديم أن الختم في مصر وفي غيرها من بلاد المشرق عامة كان متداولا منذ القدم في المخابرات التجارية والسياسية حتى لا يتسرب مضمونها . قيل و يرجع ذلك الى بعض أوهام دينية . وعلى توابيت الموتى صور للعبودتين ايزيس ونفتيس تطبعان الأرض بخاتم . وقد ذكر ذلك في دائرة المعارف الفرنسية ج ٨ ص ٦٦٥ ؛ ولكن العلماء الاخصائيين في التاريخ القديم ينكرون تأويل ذلك بالختم على الأرض لأنه لا معنى له وأنه من الرموز التي لم ينته البحث في أمرها . وما زالت بصمة الخاتم من العهد القديم تستعمل كإمضاء عند الذين يكتبون وعند الأميين .

الأمر الثـانى : أن الكتاب إذا كان رسميا يجب أن يدون فيـه اسم كاتبه وحامله .

وهنا ردّ الأستاذ محمد حميـد الله على ذلك بقوله مداعبا : إنى أخشى أن (شفالى) ، وهو يقول ذلك ، كان يفكر فى أنظمة القرن العشرين أو على الأقل فى وزارة الخارجية للامبراطورية البيزنطية، أما وزارة الخارجية العربية فى عهد النبي عليه الصلاة والسلام، فالمعروف أنه حتى بعد مضى ست سنوات من هجرته عليـه السلام الى المدينـة ، ولأول مرة فى تاريخ العـرب كانت المساعدة التى طلبت من هـذه الوزارة، إرسـال خطاب الى ملك أجنبى؛ وقد دعا الأمر الى شيء غير قليـل من الأخذ والرد، الى أن رأى النبي عليه الصلاة والسلام لزوم عمل ختم له نقش عليه اسمه .

الأمر الثـالث : من المحتمل أن الكتب فى تلك الأيام لم تكن تكتب بالقلم الكوفى ، كما هو وارد فى الكتاب الأصلى المزعوم .

قال الأستاذ محمد حميد الله : ولست بحاجة لتضييع الوقت فى مناقشة قول كهذا ؛ قائله غير واثق منه .

وقال : وفى الواقع إن هذا الكتاب يحتاج لأن يفحصه اخصائيون قبل البت فى أمره نهائيا .

أما فيما يتعلق بالكتاب الثانى المرسل الى المنذر بن ساوى ، أمير البحرين الفارسى ، فلا يوجد غير مذكرة قصيرة لفليسشر (Fleischer)[١] ، وقد وصفها (شفالى) بأنها تنفى صحة الكتاب بالمرة .

---

(١) المباشر لطبع ZDMG التى أدمجها فيما بعد فى Kleinere Schriften .

والمعلوم عن هذا الكتاب، أن فليسشر وصله خطاب من الملحق للسفارة الألمانية بالآستانة يقول فيه : إن بعض الإيطاليين أحضر إليه من دمشق مخطوطا معروضا للبيع وأرسل مع الخطاب صورة فتوغرافية من المخطوط الأصلى منقولة بالرسم . وقد نشرها فليسشر(١) مع تعليق عليه بدأه بقوله : يظهر أن الايطالى صاحب المخطوط أراد أن يتحقق إذا كانت الفرخة التى أنتجت البيضة الذهب لمن باع خطاب المقوقس ، ما زالت على قيد الحياة؟

وما قاله بعد ذلك يتلخص فيما يأتى :

(١) ان المعروف عن النبي عليه الصلاة والسلام، أنه أرسل كتابا الى المنذر لم يتخلف نصه فى أى كتاب من كتب التاريخ .

(٢) ان بضعة سطور من أول الكتاب تشتمل على اسم المرسل والمرسل إليه واضحة مقروءة، وما بقى بعد ذلك ما هو إلا سطور تقليد لكتابة عربية .

(٣) ان الشطر الأخير به بعض كلمات عربية يمكن قراءتها؛ وإنما بها غلطات ظاهرة لا يمكن نسبتها إلى كاتب عربى .

وعلق الأستاذ حميد الله على ذلك بقوله :

(أولا) إن القول بأن نص الكتاب غير وارد فى المصادر العربية يرجع الى نقص فى البحث ، لأن السهيلى وابن طولون والقلقشندى وابن القيم الجوزى وآخرين ذكروا النص بالكامل . وقد أورده من المتقدمين ابن سعد ، ولدينا مصادر عديدة يتفق ما هو مدوّن فيها مع نص الكتاب الأصلى الموجود .

(١) فى Z.D.M.G. .

(ثانيا) الاعتراض الثانى يكفينا أن نتركه على جانب لأن مجرد التمعن فيه قليلا يمكننا من تلاوته كلمة كلمة الى الآخر، وما قيل عنه أنه تقليد مظهره كتابة عربية لا معنى له، ما دام فى الإمكان قراءة جمل فصيحة منه؛ وهو دليل على أن ما بقى بعد هذه الجمل لا يتعذر قراءته وقد قرئ .

وبعد أن بين الأستاذ حميد الله الخطأ الظاهر فى التهجئة ودلل على أنه يرجع إلى عدم إجادة رسم الحروف، تكلم عن هذه الحروف حرفا حرفا وذكر قول فليسشر فيها، ثم قال : وإنى أكرر أن ما قمت به من النقد يجب ألا يؤخذ كدليل، على أنى أعتقد صحة الكتاب، لأنى لم أقصد إلا أنه يدعو الى استئناف البحث فى أمره، فإن ما كتب عنه لم يتحرر للآن من شكوك خطيرة؛ وليس من العسير توضيح النقط التى تناولها الاعتراض فيما كتب عن ذلك .

مما تقدّم تتبين أهمية هذه المحاضرة النفيسة التى عنى بها الأستاذ محمد حميد الله . وقد اكتفينا بأن نقلنا عنها ما له علاقة ببحثنا .

وقد استرعى نظرى فى هذا البيان عدّة أمور :

منها : نسب عند ذكر كتاب النجاشى الى جناب الأستاذ جاستون ڤييت أنه يقول : إن هذا الكتاب يتفق فى نصه مع كتابى النبى عليه الصلاة والسلام الى قيصر والمقوقس . وهو عين ما قلناه، إلا فيما يتعلق بكتاب النجاشى .

ولما راجعت أقوال الأستاذ جاستون ڤييت، رأيته فى تعليقاته بكتاب المواعظ والاعتبار (الخطط) للقريزى، طبع المعهد العلمى الفرنسى [1] يقول : إن نص خطاب المقوقس الوارد فى هذا الكتاب مطابق تماما لنص

(١) المجلد الأول ص ١٢١

كتاب هرقل ، ثم عاد فقال : إنه و إن قال أوّلا ان الكتب التى أرسلت من النبىّ عليه الصلاة والسلام إلى الملوك كانت كلها بنص واحد، فإنه اطلع بعد ذلك على « ديوان الانشاء » فوجد أن الكتب التى أرسلت إلى هرقل والمقوقس وكسرى والنجاشى يختلف بعضها عن بعض فى نصه اختلافا تاما ، وأورد الفقرة الخاصة بذلك للدلالة ، وهى : "وكتب إلى المقوقس بمصر على يد حاطب بن أبى بلتعة اللخمى : بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المقوقس بمصر ، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، فإن الله أرسلنى رسولا ، وأنزل علىّ كتابا قرآنا مبينا ، وأمرنى بالإعذار والإنذار ومقاتلة الكفار حتى يدينوا بدينى و يدخل الناس فى ملتى، فإن أنت أطعت سعدت وإن أنت أبيت شقيت والسلام" . وهو نص مأخوذ فى الأصل عن ابن اسحاق مخالف للدوّن فى المخطوط الذى عثر عليه وسنأتى به كاملا .

والمتبادر أن الأستاذ محمد حميد الله لم يقرأ ما كتبه الأستاذ ڤييت كله؛ لأنه ذكر حضرة الأستاذ محمد على سعودى بك وقال : إن الأصل قد يكون موجودا عنده . وحقيقة الأمر أنه لا يوجد خطاب آخر كالذى وجده بارتيليميه ، و إنما الموجود عند حضرة محمد على سعودى بك صورة منقولة عن الأصل المحفوظ بالآستانة ، كما روى الأستاذ محمد حميد الله حكايته فى محاضرته .

و يغلب على ظنى أن الأستاذ ڤييت لما كتب تعليقاته ، كان مسافرا ولم يكن عالما بأن الأصل بالآستانة .

وقد بينا فيما تقدم ان اتفـاق النص بين كتبه عليه الصلاة والسلام الى الملوك، من واقع الروايات الموجودة، هو فقط فى كتابى قيصر والمقوقس؛ وقد وقفنا على نص كتاب هرقل كما ورد فى صحيح البخارى .

وقد دوّنه الطبرى فى تاريخ الأمم والملوك بالنص الآتى :

" بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم، السلام على من اتبع الهدى . أما بعـد، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن تتول فإن إثم الأكارين عليك" يعنى تحمّاً له[1] .

وورد بنص آخر، قال عنه القلقشندى : وذكر أبو عبيـد فى « كتاب الأموال » : أن كتابه صلى الله عليه وسلم الى هرقل كان فيه :

" من محمد رسول الله الى صاحب الروم، إنى أدعوك الى الإسلام فإن أسلمتَ فلك ما للسلمين وعليك ما عليهم، وإن لم تدخل فى الإسلام فاعْطِ الجزية فإن الله تعـالى يقول : قاتِلُوا الَّذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يُحَـرِّمون ما حرم اللهُ ورسولُهُ ولا يَدِينُون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يُعْطُوا الجـزية عن يد وهم صاغِرُونَ . وإلا فلا تَحُـل بين الفلاحين وبين الإسلام أن يدخلوا فيه أو يُعْطُوا الجـزية "؛ قال : وأراد بالفلاحين أهـل مملكته، لأن العجم عند العرب كلهم فلاحون لأنهم أهل زرع وحرث .

ثم قال القلقشندى : " وفى مسند البَزَّار أنه صلى الله عليه وسلم كتب اليه : « من محمد رسول الله الى قَيْصَرَ صاحب الروم[2] " .

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ح ٣ ص ٨٧

(٢) ج ٦ ص ٣٧٧ وقال القلقشـندى، إن الذى كتب اليـه : « قيصر، وقيل نائبـه بالشام » ؛ ج ٦ ص ٣٧٦

أما كتابه صلى الله عليه وسلم الى المقوقس ، فلم يذكر فى الصحيحين نصه . وهو فيما ذكر ابن عبد الحكم :

" من محمد رسول الله الى المُقَوْقِس عظيم القبط ، سلامٌ على من اتبعَ الهُدى . أما بعدُ ، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام فأسلِم تَسْلَمْ ، وأَسْلِمْ يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فعليك إثمُ القبط . يا أهل الكتاب تعالَوْا الى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم ألّا نعبدَ إلا اللهَ ولا نشركَ به شيئا ولا يتخذ بعضُنا بعضًا أربابا من دون الله فإن تَوَلَّوْا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون " .

وقد نقلناه عن صبح الأعشى للقلقشندى بلفظه منقولا عن ابن عبد الحكم[1] ، ولكن النسخة المطبوعة بليدن من فتوح مصر لابن عبد الحكم ، لا يحتوى فيها كتاب النبي عليه السلام الى المقوقس على عبارة ، " فإن توليت فعليك إثم القبط " .

وإذا أثبتنا هذه العبارة باعتبار أنها أصلية ، يكون النص واحدا فى كتابى قيصر والمقوقس ، ويقابل لفظ « القبط » فى كتاب المقوقس[2] كلمة « الأريسيين » فى كتاب قيصر .

أما كتاب النجاشى ، فهو فيما ذكره ابن إسحاق ونقله القلقشندى : " من محمدٍ رسول الله الى النجاشيّ ملك الحبشة ، إنى أحمد اليك اللهَ الملكَ القدّوسَ السلامَ المؤمنَ المهيمنَ ، وأشهدُ أن عيسى بن مريمَ البتولِ ، الطيبةِ الحصينةِ ، حملتهُ من رُوحهِ ونفخهِ كما خلق آدم بيده ، وإنى أدعوك الى الله وحده لا شريك له ، وأن تتبعَني وتُؤْمِنَ بالذى جاءنى فإنى رسولُ الله ،

(١) ج ٦ ص ٣٧٨

(٢) الكلام هنا عن كتاب المقوقس المدوّن نصه فى المخطوط لا المنقول عن ابن اسحاق .

وإنى أدعوكَ وجنودَكَ الى الله عز وجل . وقد بلَّغتُ ونصحتُ فاقبَلوا نصحى، وقد بعثت اليكُم ٱبن عمى جعفراً ومعه نفرٌ من المسلمين، والسلام على من ٱتبع الهدى" [1] .

وهو نص واضح يخالف ما جاء فى كتابى قيصر والمقوقس ولا يتفق معهما كما زعم فى القول المنسوب للأستاذ جاستون ڤييت، بل يخالف أيضا النص الذى أورده أبو عبيد فى « كتاب الأموال » .

قال القسطلانى فى المواهب [2] : وهذا النجاشى هو أصحمة الذى هاجر اليه المسلمون فى رجب سنة خمس من النبوة، وكتب اليه ... مع عمرو بن أمية الضمرى سنة ست من الهجرة فآمن به ... وتوفى فى رجب سنة تسع، ونعاه النبي صلى الله عليه وسلم يوم توفى وصلى عليه بالمدينة .

وأما النجاشى الذى ولى بعده وكتب له النبي صلى الله عليه وسلم يدعوه الى الإسلام ، فكان كافرا ولم يعرف إسلامه ولا اسمه . وقد خلط بعضهم ولم يميز بينهما . وفى صحيح مسلم : أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب الى النجاشى وليس بالذى صلى عليه .

وقد ذكر ابن اسحاق أن كتاب النبي صلى الله عليه وسلم الى المقوقس كان بخط أبى بكر الصديق رضى الله عنه وأن فيه :

" من محمد رسول الله الى صاحب مصر .

أما بعد، فإن الله أرسلنى رسولا وأنزل على قرءانا ، وأمرنى بالإعذار والإنذار ومقاتلة الكفار حتى يَدينُوا بدينى ويدخلَ الناسُ فى ملتى ،

---

(١) صبح الأعشى ج ٦ ص ٣٧٩ (٢) ج ١ ص ٢٩٢

وقد دعوتك الى الإقرار بوحدانيته ، فإن فعلت سعدت و إن أبيت شقيت والســلام " .

ونقل الواقدى هــذا النص عن ابن اسحاق ، وقــد أورده القلقشندى فى صبح الأعشى ، وقال : ذكره الواقدى[1] .

على هــذا الوجه انتهى الأمر الى أن كتابى هرقل والمقوقس وحدهما وردا بنص واحد . وهذا لا يؤثر فى اعتراض الأستاذ جاستون ڤييت المبنى على اتحــاد النصوص ، لأنه رغم ما أبداه حضرة الدكتور محمد حميــد الله ، مازال هــذا الاعتراض فى نظرى قائمــا يقو يه الشك المترتب على رواية نص مغاير لكل من كتابى هرقل والمقوقس ، ثم سكوت البخارى ومسلم وغيرهما من أئمة رجال الحديث وأصحاب السير المتقدمين عن إثبات نص كتاب المقوقس .

ولا يكفى الاستناد الى احتمال أن الكتابين حررا فى وقت واحد و إمكان إرسال عدّة كتب بنص واحد . ومهما يكن لهذه الاعتبارات من الوجاهة نجــد ما يحول دون قبولها ؛ وهو تقــدّم ابن إسحاق بالنص الذى أورده . وقد نشره القلقشندى مع النص الذى ذكره ابن عبد الحكم .

ومن ذلك عبارة : "وإن توليت فعليك إثم القبط" ، فقد وردت فى بعض الروايات وأغفلت فى البعض الآخر ثم ظهرت فى المخطوط الذى وجد بالدير ، وقد زيد فيها لفظ "كل" ، فصارت "و إن توليت فعليك إثم كل القبط" على أن كتاب هرقل الموجود فيه هــذه العبارة مع كلمة الأريسيين بدلا من القبط لم يرد فيه لفظ "كل" .

(١) سادس ص ٣٧٨

كذلك الختم المبصوم به كتابه عليه الصلاة والسلام، الى المنذر بن ساوى كما هو ظاهر فى الصورة الفتوغرافية المدونة فى المحاضرة يختلف خطه اختلافا ظاهرا عن الختم الموقع به على كتابه الى المقوقس .

تعليقات أوردها جناب الأستاذ ڤييت على المقوقس ومازية :

وقد ذكر الأستاذ جاستون ڤييت فى تعليقاته أن المقوقس الذى وصله كتاب النبى صلى الله عليه وسلم ، قد يكون شخصا آخر غير المقوقس الذى ورد ذكره فى حديث فتح مصر[1]، وأن القول بأن الاثنين شخص واحد يعترضه إشكال ظاهر . ثم قال : إن ابن إياس يقول عن مصدر لم نقف عليه[2] : واستمر المقوقس قائما بملك مصر نحو إحدى وثلاثين سنة حتى افتتح عمرو بن العاص رضى الله عنه الديار المصرية وانتهى فى سنة عشرين من الهجرة النبوية (٦٤٠ م)، وإن هذه المدة ترجع به إلى سنة ٦٠٩ ميلادية، فيكون هو الذى وصله كتاب النبى عليه الصلاة والسلام وعمل معاهدة الصلح مع عمرو بن العاص .

قال : وهناك ثلاثة آراء أبديت بصدد ذلك .

الرأى الأول، لمسيو كازانوڤا[3] : " إن المقوقس هو بنيامين البطرك، وهو الثامن والثلاثون من البطاركة اليعاقبة (٦٢٢ — ٦٦١ م) وإنه فى وقت الفتح استغل سلامة نية العرب وأوهمهم أنه المقوقس ".

الرأى الثانى، للدكتور بتلر[4] : "إن المقوقس هو قيرس البطرك الملكانى؛ وبما أن قيرس أقيم بطركا فى سنة ٦٣٠، فلا يكون هو المقوقس الذى وصله الكتاب النبوى فى سنة ٦٢٨ " .

---

(١) الخطط بولاق ج ١ ص ٢٨٩ (٢) ص ٢٠

(٣) Description de l'Égypte, M.I.F. III, p. 114, n. 2.

(٤) The arab conquest of Egypt, appendix C.

الرأى الثالث، لمسيو أملينو[١] : "إن المقوقس شخص آخر غير قيرس الذى انتزع مكانه، وغير بنيامين الذى ناله اضطهاده" .

وقال الأستاذ ڤييت : " إن مسيو كازانوڤا جمع فى كلمته كل ما ورد من أسماء المقوقس، وإنه يكتفى بأن يذكر منها الألقاب التى أطلقها عليه مؤرخو العرب" . ولما كانت لا تخرج عما أوردناه فى البيانات المتقدمة فقد تجاوزنا عنها .

وقال إن ابن إياس يقول : إن المقوقس أحد ملوك القبط[٢] . وفى فتوح البهنسا قيل[٣] : إنه "كان يدفع الجزية لقيصر ملك الروم" وفى الكندى : "كان فى طاعة هرقل[٤]" . وفى تاريخ "البربر : كان[٥] حاكم الإسكندرية وبرقة ومصر، وكان هرقل يأخذ منه الجزية" . وان ڤانسلب Vansleb ذكره[٦] ثلاث مرات باسم حنا (جان) المقرقس والمقوقس والمكوكس وأنه من عظماء الأقباط وكان حاكم مصر القديمة أو وزير هرقل، وأنه فى السنا كسير[٧] القبطى الذى ذكره أميلينو، رئيس المذهب الخلقيدونى وكان وزيرا وبطركا على مصر، وفى الوثيقتين اللتين نشرهما أميلينو[٨] أن Kaukhios (المقوقس) كان بطركا على مصر . وفى تاريخ بطاركة الإسكندرية لساويرس الأشمونينى[٩] :

(١) Fragments Coptes. 7. A. 1888, II, p. 406.

(٢) ج ١ ص ٢٩ ؛ مروج الذهب ج ٢ ص ٤١٢

(٣) ص ١٤٤ (٤) تاريخ الولاة ص ٨

(٥) ج ١ ص ٢٠٨ De Slane, Histoire des Berbères I, p. 208.

(٦) Relation d'Égypte, p. 66, 127, 287.

(٧) J. A. 1888, II, p. 406.

(٨) J. A. 1888, II, p. 363-378.

(٩) Fasc. IV de la Patrol. or., p. 489.

أقام هرقل قيرس حاكما و بطركا ، و بعد هروب بنيامين انتقلت السلطة اليه .

وقال : ان هذا النص يقرب من قول ابن دقماق عن ابن عبد الحكم ؛ وجه هرقل ملك الروم المقوقس أميرا على مصر ، وجعل اليه حربها وجباية خراجها ، فنزل الإسكندرية[1] .

وانتقل الأستاذ ڤييت الى القول : اننا اذا راعينا هذه النصوص و بوجه خاص النص الذى أورده ساويرس الأشمونينى ، نجد أن ألقاب المقوقس كلها لا يمكن تطبيقها إلا على قيرس البطرك ، لا على بنيامين الذى كان فارًا من المقوقس . وفى الوثيقة القبطية الأولى ، يقول القديس أبا صمويل[2] وهو يخاطب الكاوخيوس : " ان البر فى طاعة الله وطاعة وليه البطريق بنيامين وليس فى طاعتك والدخول فى مذهبك الشيطانى " . وفى المقريزى : "لما بلغ المقوقس قدوم عمرو بن العاص الى مصر ، توجه الى موضع الفسطاط ، فكان يجهز على عمرو الجيوش ، وكان أول موضع قوتل فيه الفرما . قاتلته الروم قتالا شديدا نحوا من شهر ثم فتح الله عليه . وكان بالإسكندرية أسقف للقبط يقال له أبو ميامين ، فلما بلغه قدوم عمرو الى مصر كتب الى القبط يعلمهم أنه لا يكون للروم دولة وأن ملكهم قد انقطع و يأمرهم بتلق عمرو[3] وقد تقدّم هذا الخبر .

وذكر الأستاذ ڤييت فقرة للسيوطى[4] من ترجمة بيلين ، جاء فيها أن المغيرة (ابن شعبة) قدم على المقوقس وعلى أسقف من القبط يسمى أبو ميامين

---

(١) ج ٥ ص ١١٩ . (٢) ص ٣٦٨ ، راجع أيضا فتح العرب لمصر ص ١٦٥ .
(٣) الخطط ج ١ ص ٢٨٩ . (٤) J. A. 1854. II, p. 517.

وعلق على ذلك بأن النسخ الأخرى المطبوعة من السيوطى والنسختين الخطيتين الموجودتين بالقاهرة[1] لم يرد فيها اسم الأسقف[2] .

ثم قال : و بين الشخصين (يعنى الذى وصله كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والآخر الذى عمل المعاهدة مع عمرو) : بعد فتح بابليون ، كان الثانى ولا شك هو الذى قام بالدور التاريخى الأهم ، المقطوع به وهو الواقع . وكان اعتماد بيلين على نسخة خطية محفوظة بمكتبته ، و يغلب على الظن أن هذا الشخص هو الذى كان يعرف عند العرب بالمقوقس ، ولما تكرر ذكر المقوقس فيما بعد فى الروايات غلب على الاسم الذى كان يعرف به حتى نسى ، وكان من السهل أن يعتبره مؤرخو المسلمين عنوان وظيفة ، وصاروا يلقبون به من كان فى نظرهم الحاكم على مصر فى أول القرن السابع الميلادى .

وقد ذكره ابن الزيات فى الكواكب[3] كأحد الرؤساء ، فقال "اننا وصلنا الى مصر ومنتظرون ما تأمرنا به فى مقوقسها وفى فتحها " ، وقد جاء ذلك على وجه أوضح فى القاموس ، وفى تاج العروس ونصه : المقوقس لقب من ملكهما (مصر والإسكندرية) : فكان فى نظر مؤلفيهما يعادل ملك مصر .

ونقل كوسين دى برسيفال (Caussin de Perceval)[4] من تاريخ الخميس : "كان حاكم مصر القبطى جريج[5] بن متى المعروف عند مؤرخى العرب بالمقوقس ، وهو لقب حاكم الإسكندرية كما أن قيصر لقب ملوك الروم" .

---

(١) راجع ص ٤٣ تاريخ نمرة ٨٢ و ٨٤ باب « كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

(٢) راجع السيوطى ج ١ ص ٦٢

(٣) ص ٨

(٤) Essai, III, p. 192.

(٥) فى الأصل جريح بالحاء المهملة .

وفى ديوان الإنشاء[1] : " كان كل من ولى مصر يسمى المقوقس وأن المقوقس الذى كاتبه النبي صلى الله عليه وسلم يسمى جُريج بن مينا بن قرقب من القبط من ذرية خام بن نوح " .

قال الأستاذ ڤيت : ولم يكن إذن مستغربا أن يطلق هـذا اللقب فيما بعد على من وصله كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن العلاقات بين محمد ومصر تحوم حولها شكوك كثيرة . فلقد كان من اللازم أن يجعل للفتح الإسلامى صبغة شرعية ، فلما رفض المقوقس حاكم البلد أن يعتنق الإسلام أصبح الجهاد مشروعا ، ولم يأت اكتشاف بارتيليميه فى سنة ١٨٥٠ لخطاب النبي عليه السلام بشيء جديد يترتب عليه أى تعديل فى هذا القول ، لأن الظاهر على هذا الكتاب أنه كتاب مزيف .

وذكر هنا الأستاذ ڤيت ما قاله نولدك ، وشڤالى ، مع اعتراضه الذى تقدم على الكتاب ثم قال : وقد نقل الينا التاريخ الإسلامى لذلك العصر على صورة لا يمكن تصديقها مطلقا ، وفى نظره أن ما قيل بحصوله من الاتصال بين النبي ومصر اخترعه رواة الحديث من أهل مصر . وقال : ان هناك مجموعة من الأحاديث تدعو المسلمين أن يعاملوا القبط بالحسنى ، وان حديث حاطب بن أبى بلتعة من حيث التفصيل يذكره بحكايات ألف ليلة وليلة . وكذلك وصف وصول حاطب والمقوقس فى مجلس مشرف على البحر ، وإشارته اليه بالكتاب وهو بين اصبعيه[2] وغير ذلك الى ما قاله الواقدى[3] . ثم قال : وبصرف النظر عن نص الكتاب وما بينه وبين ما كتب به الى

(١) Paris, 4439. f. 10 ro. (٢) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٢٠٩ .

(٣) فتوح الشام ج ٢ ص ٥٩ — ٦٣

هرقل من التماثل[١]، يكفى النظر الى الأسلوب الغريب الذى اتبع فى محادثة المقوقس وحاطب ومقارنتها بمحادثة هرقل وأبى سفيان . وفيهما يتبين الغرض من هذه الأحاديث : وهو اعتراف هرقل والمقوقس بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقول هرقل ان محمدا مذكور فى التوراة والإنجيل .

ثم قال : وفى وصف هدية المقوقس وهى البغلة والحمار والعسل والثياب ومارية وأختها أو أختيها من دقة الوصف ما يثير الابتسام؛ فقد عنى فيه حتى بذكر اسم البغلة والحمار .

ولا يبعد أن مارية القبطية أم إبراهيم لم يكن لها وجود، وإبراهيم لم يعش طويلا ؛ والمدة القصيرة التى عاشها اتخذت وسيلة لتأليف القبط؛ وكذلك مارية . وقد دأب رجال الحديث من المسلمين على إظهار محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم محتفظا بتقاليد أنبياء بنى إسرائيل ؛ وروى حديث جاء فيه : صاهر الى القبط من الأنبياء ثلاثة : إبراهيم ويوسف ورسول الله عليهم الصلاة والسلام[٢] .

ثم قال : وفى نظرى وهو شىء طبيعى، أنه لم يكن هنالك شخص يسمى المقوقس فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وان هذا الشخص لم يوجد إلا فى عهد الفتح؛ فهو إذن قيرس البطرك وقد اتفق عليه الجميع[٣] . ولا معنى إذن للبحث عن الشخص الذى يذكره العرب بقولهم المقوقس، فى عصر النبى عليه السلام، ويعدّه بعضهم من الصحابة . وقد اضطر مسيو كازانوفا[٤]،

(١) راجع البخارى ج ١ ص ٥ ، وج ٢ ص ٩٩ و ١٠٠

(٢) السيوطى ج ١ ص ٦

(٣) راجع كازانوفا، Description de l'Égypte, p. 116, n, 5.

(٤) الكتاب السابق : ص ١٤ رقم ٢

فى الجدول الذى وضعه بأسماء المقوقس العربية، أن يقترر أن جريج قد يكون اسم البطرك الملكانى الذى خلفه قيرس . وهذا ينقض القول بأن المقوقس هو بنيامين، ومع ذلك فإن بنيامين كان يكتب دائما أبو ميامين [(١)] .

وأشار الأستاذ ڤييت الى الأقوال التى أثارها لفظ « المقوقس » من حيث معناه . ونكتفى بأن نوجه النظر الى ما ورد عن ذلك فى كتاب فتح العرب لمصر للدكتور بتلر بالملحق الثالث ، والى ما كتبه الأستاذ ڤييت فى تعليقاته التى نحن بصددها [(٢)] .

وذكر بعد ذلك الأستاذ ڤييت أقارب المقوقس الذين وردوا فى الروايات العربية وهم الهاموك من أخواله ، وكان على دمياط لما قدم المسلمون الى أرض مصر [(٣)] ، وقد ذكره الواقدى باسم الهاميراك ، وقتل ابنه فى الحرب واستأمن هو للمسلمين ، ولحق ابنه شطا بالمسلمين ومعه عدة من أصحابه ، وقد أسلم وخرج الى البرلس [(٤)] والدميرة [(٥)] وأشموم طناح [(٦)] ، فحشد أهل تلك النواحى وقدم بهم مددا للمسلمين وسار بهم لفتح تنيس [(٧)] ، وقاتل حتى قتل ، ودفن فى مكانه المعروف به خارج دمياط .

---

(١) راجع على الخصوص ، الخطط للمقريزى ج ١ ص ٢٨٩

(٢) راجع الأصل الفرنسى بالحاشية ص ١٢٢ من المواعظ والاعتبار طبع المعهد العلمى الفرنسى

(٣) المقريزى ج ١ ص ٢١٣ و ٢٢٦ ، وابن اياس ج ١ ص ٢٣

(٤) البرلس ثغر قديم على شاطئ البحر الأبيض المتوسط تنسب اليها بحيرة البرلس الواقعة فى شمال الدلتا بمصر ومكانها اليوم بلدة البرج إحدى قرى مركز بيلا بمديرية الغربية .

(٥) الدميره هى التى تعرف باسم دميره إحدى قرى مركز طلخا بمديرية الغربية .

(٦) أشموم طناح هى التى تعرف باسم أشمون الرمان إحدى قرى مركز دكرنس بمديرية الدقهلية .

(٧) تنيس هى إحدى المدن الصناعية القديمة الشهيرة بالمنسوجات وقد اندثرت ومكانها اليوم تل تنيس الواقع فى جزيرة صغيرة ببحيرة المنزلة وعلى بعد تسعة كيلو مترات فى الجنوب الغربى لمدينة بور سعيد .

وقال الواقدى : كان للهاميراك اثنا عشر ولدا أكبرهم يسمى هزبر[١] .

وذكر فى كتاب «الدر المكنوز» . الذى ترجمه المرحوم أحمد كمال باشا إلى اللغة العربية ، أخ للقوقس كان ملكا بمصر واسمه أندراوس[٢] . ومن المشهور عند العوام أن المقوقس كانت له ابنة دفنت بالقرافة اسمها «لولية بنت المقوقس» .

وقد ذكرها الأستاذ ڤان برشم فى مذكراته[٣] ، ووصف الأستاذ كريسول البقية الباقية من القبر المعروف بهذا الاسم ، وهو بسفح المقطم تحت جامع الجيوشى فقال : انها كاسمها تستهوى النظر[٤] .

وذكر الأستاذ ڤييت أرسطوليس بن المقوقس الذى قال ابن اسحاق : (فى الأصل الواقدى) انه قتل أباه . وذكر ولده الآخر بولس[٥] ، وما قاله ابن الزيات عن قبر ابن أخى المقوقس الذى أسلم ، وكان مهندسا وبنى جامع عمرو[٦] . وذكر أيضا ما روى فى ابن عبد الحكم[٧] ، عن امرأة المقوقس وأنها حولت بعض ضواحى الإسكندرية الى بحيرة ، وكانت كروما ؛ لأن سكانها أبوا أن يدفعوا لها الخراج نقدا ، وكان من عادتهم أن يدفعوه خمرا وما حكى عن أرمانوسة ابنته التى كانت مخطوبة لقسطنطين بن هرقل ، وأسرت فى بلبيس ثم أعيدت لأبيها[٨] .

---

(١) فتوح مصر ص ١٢٦ (٢) ص ١٦١ ؛ المتن ص ١٢٢ :

(٣) Van Berchem, Notes d'Archéologie Arabe, J. A. 1891, I. p. 486, note.

(٤) A Brief Chronology of Muhammadan Monuments of Egypt to A. D. 1517, p. 58 et 59.

(٥) ص ١٢٣ . فى الواقدى (٦) الكواكب ص ١٤٣

(٧) Paris, 1687, p. 10. (٨) الخطط ج ١ ص ١٨٣ ؛ الواقدى ص ١٩ و ٢٠

وذكر قول ابن دقماق فى الانتصار فى بيانه عن الخطط بمصر القديمة : كوم المقوقس وحمام المقوقس ، كما ذكر دار المقوقز الواردة فى كتاب « الدر المكنوز » للرحوم أحمد كمال باشا .

ملاحظة المؤلف على تعليقات الأستاذ ڤييت :

هنا ينتهى بنا البحث الى أن جناب الأستاذ جاستون ڤييت يرى أن الشخص الذى وصله كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هو غير المقوقس الذى كان موجودا فى وقت الفتح .

وقد فهمت من بيانه أن الألقاب التى جمعها الأستاذ كازانوڤا من الروايات العربية وغيرها ، كانت فى مقدمة ما بنى عليه هذا الرأى ، لأنه لم يكن موجودا وقتئذ من يمكن تطبيقها عليه سوى قيرس البطرك الملكانى ، وهو لم يتول بطركيته إلا فى سنة ٦٣٠م . وقد تبدو هذه الحجة وجيهة ؛ ولكن اذا دققنا النظر نجدها تستلزم أن يكون بينها من أقوال العرب ما يدل على أن المقوقس كان بطركا حتى يقال انه قيرس .

وقد أجمعت النصوص على أن ولاية المقوقس كانت مالية حربية ليس إلا ، فهى إذن بعيدة عن كل صبغة دينية . ولا يكفى الظن والتخمين لمنح شخص صفة لم تكن له . ومن الغريب أن يذكر قيرس البطرك أيضا ولا يقرن باسمه لقب المقوقس . وقد كان هذا يكفى على ما أظن للتفريق بين شخص المقوقس و بين قيرس ، و يغنى عن الشرح والتأويل الواردين فى كتاب الدكتور بتلر ؛ خصوصا وقد وردت فى أقوال الرواة من مؤرخى العرب هذه النصوص الصريحة :

(١) وأقيم بعده البطرك على اليعاقبة بنيامين، فعمر الدير الذى يقال له دير أبو بشاى ودير سيدة أبو بشاى ، وهما فى وادى هبيب .[1]

(٢) ثم قدم هرقل فقتل الفرس بمصر، وأقام قيرس بطرك الإسكندرية وكان منانيا .

(٣) وجه هرقل المقوقس أميرا على مصر، وجعل اليه حربها وجباية خراجها فنزل الإسكندرية .[3]

(٤) ليس فيه (موضع الفسطاط) من البناء والعمارة سوى حصن يعرف اليوم بعضه بقصر الشمع و بالمعلقة، ينزل به شحنة الروم المتولى على مصر، من قبل القياصرة ملوك الروم عند مسيره من مدينة الإسكندرية[4] و يقيم فيه ما شاء، ثم يعود الى دار الإمارة ومنزل الملك من الإسكندرية .

(٥) فأقام هناك المقوقس، وصار يجهز على عمرو الجيوش .[5]

(٦) فلقيهم هنالك أبو مريم جاثليق مصر ومعه الأسقف فى أهل البيعات . بعثه المقوقس لمنع بلادهم .[6]

وهذه النصوص رغم تنوع الظروف التى تربطها، متصلة اتصالا وثيقا بالوقائع، منسجمة بها انسجاما تاما، لاتطلب شرحا يؤيده التكلف فى تفسير الوثائق وانتحال الأسباب، خالية من التردد الذى يثير الشكوك .

(١) الخطط للقريزى ج ٢ ص ٤٩١ وأما وادى هبيب فهو الذى يعرف اليوم باسم وادى النطرون الواقع فى الصحراء القبلية الغربية ، بمديرية البحيرة . وتمر بالقرب منه الطريق الصحراوية الموصلة من القاهرة الى الإسكندرية . وأقرب محطة على السكة الحديدية لهذا الوادى هى محطة الخطاطبة بمركز كوم حمادة بمديرية البحيرة .

(٢) الخطط للقريزى ص ٤٩١

(٣) ابن عبد الحكم (ليدن) ص ٤٦

(٤) الخطط للقريزى ج ١ ص ٢٨٦

(٥) ابن عبد الحكم (ليدن) ص ٥٨

(٦) الطبرى ج ٤ ص ٢٢٨

وقد أبدينا رأينا فى كثير من الآراء والحجج التى أثيرت بجانب ذلك فيما تقدم من هذه البحوث، ونرجو أن نكون وفينا القول حقه .

بقى علينا أن نبدى رأينا فى قول الأستاذ مسيو جاستون ڤييت ، انه لم يكن هناك من يسمى المقوقس فى أيام النبي عليه الصلاة والسلام، وان المقوقس لم يوجد إلا فى عهد الفتح، وان مارية القبطية لم يكن لها وجود لأن اتصال النبي بالمقوقس مشكوك فيه . فنقول :

أما وقد ظهر بطلان القول بأن المقوقس هو قيرس رغم إجماع من بهرهم الدكتور بتلر بأقواله، فلننظر فى روايتين :

الرواية الأولى للبلاذري[1] ، جاء فيها : ان المقوقس قد كان مات قبل غزاة الإسكندرية لما انتقض الروم فى عهد قسطنطين . وفى هذا القول لم يذكر اسم قائله ، والمتبادر انه محمد بن اسحاق لأنه قال : إن أرسطوليس ابن المقوقس قتل أباه فى رمضان سنة ١٩ هجرية، وأقام نفسه بدله وأخفى الأمر عن العامة . وقد نقل عنه المرحوم محمد مختار باشا اللواء هذا الخبر وأورده فى توقيعات سنة ١٩ هجرية[2] .

والرواية الثانية للبلاذرى أيضا ، قيل فيها : ان المقوقس بقى الى ذلك الوقت (يعنى وقت انتقاض الروم) واعتزل أهل الإسكندرية حين انتقضوا ، فاقره عمرو ومن معه على أمرهم الأول[3] .

وقال يزيد بن حبيب : " ولم يكن المقوقس تحرك ولا نكث[4] " .

والرواية الثانية فى رأيى هى الراجحة لسببين :

(١) البلاذرى ص ٢٢٣ (٢) كتاب التوفيقات الإلهامية ص ١١

(٣) البلاذرى ص ٢٢٣ (٤) الخطط للمقريزى ج ١ ص ١٦٧

(الأول) ان جميع الرواة كانوا يذكرون مقوقسا واحدا، ولا يشيرون الى ما زعم عن موته الى آخر الفتح .

(الثانى) توفر الثقة فى روايات البلاذرى وسواها عن كتب المغازى وهذا كافٍ .

أما نفى وجود مارية القبطية وخبر اتصال النبي عليه الصلاة والسلام بالمقوقس ، فسببه وان لم يبين صريحا فى هذه التعليقات ، فإنه يرجع على ما يظهر الى تعارضه مع القول بأن المقوقس هو قيرس . لأن قيرس أقيم بطركا بمصر فى سنة ٦٣١ ميلادية، بعد إرسال الكتاب الى المقوقس بعدّة سنين، ومن ثم وجب نفى الأمرين معا .

لكن لو فرض قيام الدليل — من أقوال الرواة والمؤرخين — على أنّ قيرس هو المقوقس، فإن ذلك ما كان يترتب عليه نفى وجود مارية، وإنكار الحقيقة الثابته فى كتب الحديث والسير والتاريخ .

لا يكفى القول بأن التاريخ الإسلامى عن ذلك العهد نقل إلينا على شكل لا يمكن تصديقه كلية . ومن غير شك أن المقصود بذلك العهد، عهد النبي عليه الصلاة والسلام قبل غيره ؛ وهو ما لا يمكن التسليم به لأن التاريخ المرتبط بعهده صلى الله عليه وسلم قائم على ماحفظ من آثاره، وأقوال الصحابة ونقل عنهم بالدقة والأمانة ؛ وان لم يدوّن بالكتابة . قال الحافظ بن حجر[1] فى المقدّمة : ولم تكن « الآثار » فى عصر الصحابة وكبار تابعيهم مدوّنة ولا مرتبة لأمرين ؛ أحدهما : انهم كانوا فى ابتداء الحال قد نهوا

(١) جلال الدين السيوطى، شرح الموطأ ج ١ ص ٥

عن ذلك كما ثبت فى صحيح مسلم ، خشية أن يختلط بعض ذلك بالقرآن العظيم . والثانى : سعة حفظهم وسيلان أذهانهم ولأن أكثرهم كانوا لا يعرفون الكتابة ؛ ثم حدث فى أواخر عصر التابعين تدوين الآثار ، وتبويب الأخبار لما انتشر العلماء فى الأمصار وكثر الابتداع من الخوارج والروافض ومنكرى الأقدار .

وقال الهروى : لم يكن الصحابة ولا التابعون يكتبون الأحاديث وإنما كانوا يؤدّونها لفظا ويأخذونها حفظا ، إلا كتاب الصدقات والشيء اليسير الذى يقف عليه الباحث بعد الاستقصاء ، حتى خيف عليه الدروس وأسرع فى العلماء الموت ، فأمر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أبا بكر الحزمى فيما كتب اليه : أن أنظر ما كان من سنة أو حديث عمر فاكتبه .

وروى مالك والبخارى فى كتابيهما مثل ذلك[1] .

وقد بذلت فى ذلك جهود عظيمة ، ووضعت المدوّنات الصحيحة تحيط بها كل الضمانات الى أقصى ما يتصوّره العقل ، ويقال : إن أوّل ما صنف فى الإسلام كتاب ابن جريج فى الآثار وتبعه غيره . ثم وضع الإمام مالك كتاب الموطأ .

وقد قال : إنه ألفه فى أربعين سنة ، ثم كتاب البخارى فمسلم فالترمذى وما تلا ذلك كما هو مشهور .

ومن ثم يتبين أن ما يرجع الى هذه المدوّنات لا يمكن أن يقاس به غيره ولا المناقشة فيه إلا مع الاحتياط الشديد .

---

(١) جلال الدين السيوطى ، شرح الموطأ ج ١ ص ٥

وبما كان من قبيل السير والمغازى ، يجب التدقيق فى النقل عنه ولو اشتهر، خشية من عدم توفر العدالة أحيانا فى وضعها وفى النقل عنها، و بينها ما هو فى أكثر مصادره غير موثوق به ، كمغازى الواقدى . وقد تقدم قول الشافعى فيها وحسب العالم أن يعلم ما تضمنته التصانيف التى من هذا القبيل من الروايات، ويقف عليها ولا يتخذها أساسا للبحث إلا اذا اتفقت عليها العلماء وكبار المؤرخين ودرجوها فى تصانيفهم . ومن المؤلفات التى من هذا النوع مغازى محمد بن اسحاق . قالوا : وكان يأخذ من أهل الكتاب . وكتب الواقدى وموسى بن عقبة « المغازى » . وقد قال الشافعى فى الأول : كتب الواقدى كذب . وقال فى الثانى : ليس فى المغازى أصح من مغازى موسى بن عقبة [1] .

وقد مر علينا من تعليقات الأستاذ فييت ، قوله : إن علاقات النبى صلى الله عليه وسلم بمصر، ظاهر عليها أن المحدثين من أهل مصر اختلقوها، وإن هنالك طائفة من الأحاديث تدعو المسلمين الى معاملة القبط بالحسنى . ولا يخفى ما فى إطلاق هذا القول من شبهات لأنه لا ينطبق على الواقع ؛ فقد توجد بعض أحاديث ينطبق عليها هذا القول ، ولكن يوجد أيضا الصحيح وهو ما نوصى بالتدقيق فيه قبل الحكم عليه .

والأحاديث التى يقصدها الأستاذ فييت على ما أظن ، هى ما أورده السيوطى وغيره فى كتبهم و يكاد كلها يكون إسناده معروفا، ثابتا صدوره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل فتح مصر ، فكيف يكون من وضع رجال الحديث فى مصر، وهى لم تفتح إلا فى عهد عمر؟ وقد ذكرها السيوطى

(١) شرح الموطأ ج ١ ص ٥

تحت عنوان «ذكر الأحاديث التي ورد فيها ذكر مصر» فى كتابه «حسن المحاضرة» . ولا يخفى ما للسيوطى من مقام بين أعلام المحدثين وتصانيفه فى علم الحديث معروفة .

ومما قاله الأستاذ ڤيت : إن حديث حاطب بن أبى بلتعة من حيث التفصيل يذكر بحكايات ألف ليلة وليلة — إلى قوله : يكفى النظر الى الأسلوب الغريب الذى اتبع فى محادثة المقوقس وحاطب ومقارنة ذلك بمحادثة هرقل وأبى سفيان فيتبين الغرض من هذه الأحاديث، وهو اعتراف هرقل والمقوقس بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وقول هرقل ان محمدا مذكور فى التوراة والإنجيل .

أما وجه الغرابة فى محادثة أبى سفيان فانى لا أدركه، فقد طالعت هذه المحادثة مرارا ولم يخطر بفكرى مطلقا أن المراد بها وبخبر المقوقس، الدعاية بالاستناد إلى اعتراف من قيصر والمقوقس .

وكيف يعتبر قولهما اعترافا ولم يسلما ؟

واذا كان هناك موضع ضعيف فى هذه المحادثة فلا يكون فى جانب أبى سفيان وإنما فى جانب هرقل، لأن محاورته تنم عن نفاق ومداهنة .

أما أبو سفيان فقد نقل ما جرى على لسان المترجم .

وقد ورد فى مسند أحمد : أن هرقل كتب من تبوك الى النبيّ صلى الله عليه وسلم : انى مسلم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : كذب، هو على نصرانيته (١) .

(١) المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٢٦

وفى كتاب الأموال لأبى عبيـد ، بسند صحيح من مرسل بكر بن عبد الله ، نحوه ولفظه فقال : كذب عدو الله ، ليس بمسلم [١] .

وهـذا الحديث دليـل قاطع على أن خبر محادثة قيصر لا يؤيد الأستاذ ڤيت بل يعارض قوله . " انه وضع للدعاية باعتراف قيصر بنبوة محمد" [٢] .

وكذلك الرد الذى أجاب به المقوقس على كتاب النبى صلى الله عليه وسلم صريح فى أن المقوقس لم يعترف بنبوة محمد عليـه السلام ، وانمـا قال : إنه كان يظن أن النبى المبشر به يخرج بالشام وهذا نصه ، كما هو وارد فى رواية ابن عبد الحكم :

لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط . سلام عليك . أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو اليه . وقد علمت أن نبيا قد بقى وكنت أظن انه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك و بعثت إليك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم وكسوة وأهديت اليك بغلة لتركبها والسلام عليك .

قال القسطلانى : ولم يزد على هذا ولم يسـلم [٣] . وزاد هـذا الأخير أن فى أول الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم . وذكر الواقدى أن فى كتابه اليه : « باسمك اللهم ، من المقوقس الى محمد» . وما ورد بنص مغاير يظهر لى أنه هو الذى أوجد

(١) المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٢٦

(٢) ومن قبيل تعليق الاستاذ ڤيت ، قول الدكتور بتلر : « ان بعض مؤرخى العرب خلق من ذلك قصة منمقة سخيفة عجيبة يذكر بها إسلام هرقل ولم يكن شىء أبعد من ذلك الأمر عنه . وماذا عسى كان يدفعه الى تصديق ما أتى به زعيم عربى لم يعرفه ؟ وذلك فى حين كان ملكا سـيد الكتائب الكثيرة التى حركتها الحـرب فأصبحت ضارية صـعبة المراس » (فتح العـرب لمصر ، ص ١٢٨) . وهو كلام نترك للقارئ تقديره .

(٣) المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٩٣

عند الأستاذ ڤييت فكرة الدعاية بنبوة محمد وقد تجاوزت عن ذكره اكتفاءً بالإشارة الى أنه مما ورد فى المغازى[1] .

اعتراض جروهمان :

وبعد أن كتبت ما تقدم وقفت على اعتراض آخر أبداه الأستاذ . ا . جروهمان فى دائرة المعارف الإسلامية فى الترجمة التى كتبها عن المقوقس[2]، وقد قال فيها : أن الألقاب التى أطلقها العرب على المقوقس تعنى حاكم مصر الحقيق ؛ وأنه من الصعب التسليم بوجوده فى سنة ست لأن مصر وقتئذ كانت السيادة فيها للفرس ؛ ولذلك لا يسعنى إلا أن أوافق على أن خبر بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم بكتاب الى المقوقس، حديث خرافة .

وهذا القول لا يحتاج لمناقشة طويلة ، لأن المعلوم عن سير الفرس الى مصر، من قول الدكتور بتلر نفسه، أنه كان فى خريف سنة ٦١٦ وأنهم فتحوا مصر والإسكندرية بين ربيع سنة ٦١٧ وآخرها ؛ وأن إخضاع مصر جميعها كان فى سنة ٦١٨ واستمر احتلال الفرس بها مدّة عشر سنوات انتهت بإخلائها فى أوائل سنة ٦٢٧ ، ومن ثم يكون هذا التاريخ سابقا على قيام حاطب بن أبى بلتعة، بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المقوقس فى آخر سنة ٦ هجرية، بعد عمرة الحديبية وكانت فى ذى القعدة من تلك السنة (آخر أبريل سنة ٦٢٨ م)؛ وقد عاد حاطب من مصر بهدية المقوقس فى سنة ٧ من الهجرة أى بين ١١ مايو سنة ٦٢٨ وأوّل أبريل سنة ٦٢٩ م، بعد أن استعادت الروم مصر من الفرس .

---

(١) صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٦٧

(٢) المجلد الثالث، ص ٧٦١ — ٧٦٤

وأشار جروهمان أيضا الى الصعوبة القائمة من اغفال العرب تلقيب المقوقس بالبطرك ، فقال : لم يكن هناك ما يدعو العرب الى ذكر وظيفته الدينية لأن عمله الإدارى هو الذى كان يهمهم . ثم قال : ومع ذلك هناك ما يشير الى وظيفته الدينية؛ وهو التماسه من عمرو أثناء المفاوضة على تسليم الإسكندرية أن يأمر به اذا مات فيدفن فى يحنس (كنيسة القديس يوحنا).

وهذا القول نترك تقديره للقارئ .

ولم يفت جروهمان الكلام على اسم جد المقوقس، فذكر فرقب وتفضيل كزاباتشك له على قرقب . وذكر قرقوب وفرقو بيوس وقرقر الى نهاية هذا المعجم الجديد الذى يرجع الى كتاب فتح العرب فضل تدوينه .

ولنا العزاء فى ذلك "المرقب" الذى ما زال حفيده رغم المجهود العظيم الذى بذله كل أولئك العلماء الأفاضل، الى الآن، حائرا فى لحده مجهول الأب واللقب !

إبراهيم بن النبى صلى الله عليه وسلم :

وقد ورد فى البخارى ذكر إبراهيم بن النبى عليه الصلاة والسلام، وقد ولد فى ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة ، وقيل ولد بالعالية، ذكره الزبير بن بكار مصنف كتاب «أنساب قريش» المتوفى فى سنة ٢٥٦، كما ذكر فى السير النبوية الموثوق بها[1] .

وفى حديث أنس بن مالك أنه صلى الله عليه وسلم قال : "ولد لى الليلة غلام سميته باسم أبى إبراهيم" . قال الزبير بن بكار : وتنافست الأنصار فيمن

(١) قال ابن سعد : ولدت مارية بالمدينة إبراهيم فى ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة فمات وهو ابن ثمانية عشر شهرا . ج ٣ (القسم الأول) ص ٣ .

توضيع إبراهيم عليه السلام، فانهم أحبوا أن يفرغوا مارية له عليه الصلاة والسلام . و يؤخذ من الروايات الواردة عن ذلك أنه أعطى أولا أم بردة ثم أعطى أم سيف لإرضاعه . وتوفى وله سبعون يوما فيما ذكره أبو داود ، فى ربيع الأول يوم الثلاثاء لعشر خلون منه . وقيل : بلغ ستة عشر شهرا وثمانية أيام ؛ وقيل سنة وعشرة أشهر وستة أيام[1] . وقد روى الشيخان خبر وفاته . وذكره ابن قتيبة فقال : وكانت أمه مارية هدية المقوقس[2] .

وقد نقل الأستاذ فييت فى تعليقاته[3]، ما ذكر فى بعض كتب التاريخ : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى ابنه ابراهيم : "لو عاش كان نبيا وما استرق من القبط أحدا أبدا" .

وجاء فى حديث أنس بن مالك أنه قال : "لو بقى (يعنى إبراهيم بن النبى صلى الله عليه وسلم) لكان نبيا . ولكن لم يبق لأن نبيكم آخر الأنبياء"، أخرجه أبو عمر . قال الطبرى : وهذا إنما يقوله أنس عن توقيف يخص إبراهيم و إلا فلا يلزم أن يكون ابن النبى نبيا بدليل ابن نوح عليه الصلاة والسلام . وقال النووى فى «تهذيب الأسماء واللغات» : وإنما ماروى عن بعض المتقدمين لو عاش إبراهيم لكان نبيا فباطل، وجسارة على الكلام على المغيبات ومجازفة وهجوم على عظيم . وقال القسطلانى : قال شيخنا فى كتاب « المقاصد الحسنة »، ونحوه قول ابن عبد البر فى تمهيده : لا أدرى ما هذا ؟ فقد ولد نوح غير نبى، ولو لم يلد الا نبيا، لكان كل أحد نبيا لأنهم من ولد نوح[4] .

(١) المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٥٩

(٢) المعارف ص ٦٢

(٣) المواعظ والاعتبار، طبع المعهد العلمى الفرنسى ج ١ ص ١٢٩ (١٥) .

(٤) المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٦٠

مارية القبطية :

أما خبر إهداء مارية القبطية ، الى النبي صلى الله عليه وسلم فقد اتفق عليه جميع من كتبوا السيرة الشريفة بالتفصيل ، ومنهم ابن قتيبة وابن سعد والطبرى وابن الأثير والقسطلانى وغيرهم .

فقال ابن سعد ، بعد أن ذكر قبول رسول الله صلى الله عليه وسلم هدية المقوقس : وأخذ الجاريتين : مارية أم ابراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأختها سيرين ، وبغلة بيضاء لم يكن فى العرب يومئذ غيرها وهى " دُلْدُلَ " . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ضَنَّ الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه[1] » .

ونورد هنا ملخص ما ذكره عنها أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، فى المنتخب من كتاب ذيل المذيل من تاريخ الصحابة والتابعين[2] ، مسندا الى عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة ، وابن عمر وعبد الرحمن بن حسان ابن ثابت ، قال : بعث المقوقس صاحب الإسكندرية مع حاطب بن أبى بلتعة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة ٧ من الهجرة (٦٢٨ — ٢٩ م) بمارية[3] وأختها سيرين ، وألف مثقال من ذهب وعشرين ثوبا لينا ، وبغلته دُلْدُل ، وحماره عفير ويقال يعفور ، ومعهم خصى يقال له مابور ، شيخ كبير كان

(١) الطبقات الكبرى ج ١ ص ٨٦ ؛ نهاية الأرب ج ١٠ ص ٨١

(٢) بذيل تاريخ الأمم والملوك للطبرى ؛ وهو الجزء الثالث عشر ص ٨٠ و ٨١

(٣) راجع تاريخ الأمم والملوك ج ٣ ص ٨٥ و ١٧٩

أخا مارية[1] . وكانت مارية من حفن[2] من كورة أنصنا[3] . وأسلمت مارية وأختها . وأقام الخصى على دينه حتى أسلم فى المدينة . وكانت مارية بيضاء جميلة . وأنزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعالية فى المال الذى يقال له «مشربة أم ابراهيم» ؛ وضرب عليها الحجاب . ووضعت هناك وقبلتها سلمى مولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . و بشر أبو رافع زوج سلمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بإبراهيم ، فوهب له عبدا . وذلك فى ذى الحجة من سنة ٨ .

ووهب النبىّ صلى الله عليه وسلم سيرين لحسان بن ثابت ، فولدت عبد الرحمن بن حسان . وقد روى عنها أنها قالت : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لما حضر ابراهيم ، وأنا أصيح وأختى ما ينهانا عن الصياح ؛ وغسله الفضل بن العباس ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم والعباس جالسان ؛ ثم رأيته على شفير القبر ومعه العباس الى جنبه ؛ ونزل فى حفرته الفضل وأسامة بن زيد . وكسفت الشمس يومئذ ، فقال الناس : كسفت لموت ابراهيم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تكسف لموت أحد ولا لحياته" ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجة فى القبر ، فأمر بها

---

(١) راجع تاريخ الأمم والملوك ج ٣ ص ١٨٢

(٢) حفن كانت من كورة أنصنا بصعيد مصر واسمها المصرى القديم هبنو ثم حرفه العرب الى حفن ومحلها اليوم أطلال بلدة هبنو الواقعة شرقى النيل بحوض الكوم الأحمر بأراضى ناحية المطاهرة البحرية بمركز المنيا بمديرية المنيا بمصر .

(٣) كورة أنصنا — الكورة معناها القسم وهو ما يسمى الآن "المركز" فى اصطلاح التقسيم الادارى فى مصر . وأما أنصنا فكانت مدينة قديمة على الشاطىء الشرقى للنيل ، وقاعدة للكورة المسماة بها أنشأها الامبراطور أدريان محل مدينة مصرية قديمة كانت تسمى Bésa وسماها باسم غلامه Antinous فعرفت باسم Antinoé ، ثم سماها العرب أنصنا وقد اندثرت ، ومكانها اليوم حوض أنصلا بأراضى ناحية الشيخ عبادة بمركز ملوى بمديرية أسيوط بمصر .

تسدّ.. فقيل للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال أما انها لا تضر ولا تنفع ولكنها تقر عين الحي، وان العبد اذا عمل عملا أحب الله عز وجل أن يتقنه ،

وكان أبو بكر ينفق على مارية حتى توفي، ثم صار عمر ينفق عليها حتى توفيت في خلافته . وتوفيت مارية في المحرم سنة ١٦ من الهجرة ، فرؤى عمر يحشر الناس لشهودها، وصلى عليها عمر وقبرها بالبقيع .

وقال ابن قتيبة : "وماتت بعد النبي صلى الله عليه وسلم بخمس سنين"(١) . وكانت وفاته عليه الصلاة والسلام، يوم ١٢ من ربيع الأول ، سنة احدى عشرة(٢) .

ويلاحظ هنا أن تاريخ وفاة مارية الذى أورده الطبرى فى ذيل المذيل وهو من قول ابن عمر الواقدى يختلف عن الوارد فى تاريخ الأمم والملوك حيث أثبته الطبرى عن الواقدى نفسه ، فى حوادث سنة ١٧ فى المحرم . والتاريخ الأول هو الذى يتفق مع رواية ابن قتيبة لأن نهاية الخمس سنوات التى تلى وفاة النبي عليه الصلاة والسلام تنتهى فى سنة ١٦ فيكون ما ورد فى ذيل المذيل أصح على ما يظهر ويقرب من ذلك قول ابن عبد الحكم : وكانت وفاة مارية فى المحرم سنة خمس عشرة(٣) .

وفى المواهب للقسطلانى : أن المقوقس أهدى للنبي صلى الله عليه وسلم مع مارية ألف مثقال ذهبا وعشرين ثوبا لينا من قباطى مصر، وبغلة شهباء وهى دلدل، وحمارا أشهب وهو عفير، ويقال : يعفور، وعسلا من عسل بنها، فأعجب النبي صلى الله عليه وسلم بالعسل ودعا فى عسل بنها بالبركة .

(١) المعارف ص ٦٢ (٢) المعارف ص ٧٢ ؛ التوفيقات الإلهامية ص ٦

(٣) فتوح مصر، ص ٥٣

قال ابن الأثير : وبنها بكسر الباء وسكون النون قرية من قرى مصر ، بارك النبي صلى الله عليه وسلم فى عسلها ؛ والناس اليوم يفتحون الباء .

وقد قال الأستاذ ڤييت : وفى وصف هدية المقوقس وهى البغلة والحمار والعسل والثياب ومارية وأختها أو أختاها من الدقة مايثير الابتسام ، فقد عنى فيه الى حد أن ذكر اسم البغلة والحمار .

ولكن :

ألم يكن فى جلال محمد رسول الله، وما كان له فى قلوب أصحابه من المحبة والإخلاص، مايجعلهم لا يهملون قليلا ولا كثيرا مما عرف عنه أو كان تابعا له إلا أحصوه ودونوه بكل دقة وعناية ؛ وهو ما لم يصل الى مثله غيره، منذ عهد آدم الى الآن .

اعتراض كايتانى والرد عليه :

بقيت كلمة أحب جلاءها ، وهى استنكار كايتانى أن يبعث أحد البطاركة جاريتين مسيحيتين لعربى لا يدين بالمسيحية .

وقد يرى غير الواقفين على ما كان جاريا فى ذلك الوقت ، أن هذا الاعتراض قائم . ولكن اقتناعهم لا يبطئ إذا درسوا ما كان عليه الرقيق فى ذلك العهد، وعلموا بأى عين كان ينظر اليهم وكيف كانوا يعاملون، وقد بلغ الاضطهاد الدينى أشده كما مر علينا فى صدر هذا المؤلف .

ومن العبث أن يعتمد على الظن والتخمين لإبطال ما ورد فى كتب الحديث الصحيحة والسير عن مارية القبطية، بعد أن تبين نقص المعلومات عن شخصية المقوقس وعلاقته بأهل مصر من حيث الجنسية والمذهب الدينى . وقد ثبت أنه لم يكن البطرك اليعقوبى، لأن هذا البطرك كان بنيامين الذى

عاد الى كرسى بطـركيته عقب الفتح ، ولم يكن قيرس البطـرك الملكى لأنه لم يتصل بالنبى عليه الصلاة والسلام، ولم يجئ مصر إلا فى سـنة ٦٣١م أى بعد مدّة من وصـول حاطب بن أبى بلتعة الى المقوقس فى سـنة ٦٢٧م .
وقد خوطب المقوقس فى كتاب النبى صلى الله عليه وسلم بلفظ «عظيم القبط» لا لأنه كان معتنقا مذهب القبط أهل مصر، ولكن لكى تعطى (فى الخطاب صيغة الإكرام لمصلحة التأليف) . كما بينـه القسطلانى بمناسبة توجيه هـذا النعت نفسه منه عليـه الصلاة والسلام الى قيصر فى كتابه اليـه كما تقدّم .
وبحكم ولاية المقـوقس على مصر من قبـل هرقل ، لا يسهل التسليم بأن المقوقس كان من اليعاقبة الذين تنتمى اليهم مارية القبطية . وقد استخلص أملينـو فى تحقيقاته أنه كان فى أوّل الأمر على المـذهب الملكى . ومن ثم لم تكن الحصانة المذهبية متوفرة لمـارية كعامة أهل مصر من اليعاقبـة . قال المقريزى : "ويقال لهم القبط وأنسابهم مختلطة لا يكاد يتميز منهم القبطى من الحبشى من النوبى من الإسرائيلى الأصل من غيره . وكلهم يعاقبـة ؛ فمنهم كتاب المملكة ؛ ومنهم التجار والباعة ؛ ومنهم الأساقفة والقسوس ونحوهم ؛ ومنهم أهل الفلاحة والزراعة؛ ومنهم أهل الخدمة والمهنة . وبينهـم وبين الملكية أهل الدولة من العداوة ما يمنع مناكحتهم ، ويوجب قتل بعضهم بعضا . ويبلغ عددهم عشرات آلاف كثيرة جدا ؛ فإنهم فى الحقيقة أهل أرض مصر أعلاها وأسفلهـا[1]" .

ويرجع هذا العداء، الى عهـد افتراق النصارى الى يعقوبية وملكية . وقد قرأنا فيما استشهد به الدكتور بتـلر، قول ساويرس عن قيرس «الحاكم الكافر» ، أى أنه فى نظره من غير دينه .

(١) الخطط ج ٢ ص ٤٩٢

ولا فائدة إذا من التعلل بأن اليعاقبة والملكية تابعون جميعا للدين المسيحي، لأن وجود الاضطهاد بتلك الشدة بين المذهبين أدى الى إنحلال تلك الرابطة وقد تجلى ذلك فى معاملة البطرك بنيامين وأخيـه به وما وقع لهما لا يقاس به إهداء مارية .

وهناك قصة توقفنا على مدى ما كان يذهب اليه الأكليروس فى معاملة خصومهم فى نظر علماء القرن التاسع عشر . وقد رواها الطبيب أوتيكيوس سـعيد بن بطريق وكان بطريرك الإسكندرية ومن أهـل فسطاط مصر، ونقلها عنه مارسل المؤرخ المعروف[1] .

وتتلخص هذه القصة فى أن عبيد الله بن المهدى ، فى ولايته على مصر، أهدى الى أخيه الخليفة هرون الرشيد جارية قبطية رائعة الجمال ، فلم تلبث أن أصبحت ذات مكانة عظيمة لدى الخليفة ، ثم مرضت بغتة وعجز أطباء القصر عن علاجها ومعرفة دائها فطلبت طبيبا من مصر لأنهم أدرى بما تشكو منـه . وكتب الخليفة لأخيـه ، فبعث اليـه بالبطرك الملكى وكانت شهرته فى الطب لا يدانيه فيها آخر . وكانت البطاركة وقتئذ تمارس الطب . وأعقب وصوله شفاء المحظية وكافأه الرشيد بأن أمر بأن تعاد الى الملكية كافة الحقوق التى جردهم منها اليعاقبة منذ توقيع المعاهدة مع عمرو بن العاص .

والذى يهمنا من هذه القصة هو تعليق مارسل عليها ، فقد ذيلها بقوله : ومن المؤكد أن هذه القصة لو كانت صحيحة ، لمـا دلت إلا على إحدى طرق التحايل التى كان يدبرها بمهـارة الإكليروس الذين كانت لهم الولاية فى ذلك الوقت ، وكانوا يعتبرون جميع الوسائل حلالا ومشروعة ، حتى بإهداء محظية للخليفة فى سبيل تعزيز سلطتهم وإذلال خصومهم .

---

(١) مصر منذ فتح العرب لمصر ص ٤٧

٨ – رأى آخر للدكتور محمد حميد الله :

بعد الانتهاء من كتابة ما تقدم وطبعه، تفضل جناب الأستاذ ڤييت بأن أعارنى رسالة نشرها حضرة الدكتور محمد حميد الله عن المخابرات السياسية، فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام، والخلفاء الراشدين (١) . وهى رسالة قيمة لها علاقة بكتاب النبى عليه الصلاة والسلام وتعليقات الأستاذ ڤييت .

وقد استرعى نظرى فيها رأى أبداه مؤلفها على اعتقاد أن المقوقس والبطرك بنيامين شخص واحد . وقد رأيت تلخيصه إتماما للفائدة . قال : من المحتمل أن النبى صلى الله عليه وسلم لما بعث بكتابه إلى المقوقس، كان عالما بالموقف السياسى بمصر وقتئذ، وما كان فيها من الانشقاق المذهبى، وحالة البطرك وخوفه من هرقل، وافتقاره إلى عضد قوى من غير أهل البلاد يستميله وينتفع بمعاونته .

ولم يكن منتظرا أن يعتنق حبر من الأحبار دينا لا يعرف عنه شيئا، خصوصا إذا كان ظهوره قريب العهد .

وقد أهدى هذا البطرك إلى النبى عليه الصلاة والسلام، جاريتين مسيحيتين وهو لا يدرى شيئا عن الاسلام، لأنه بحكم اعتقاده بطبيعة واحدة بالمسيح لم يكن من المتيسر له لما أعلن النبى دعوته إلى التوحيد وعدم الشرك بالله أن يفهم منها أكثر مما تضمنه كتابه، فلم تكن الدعوة الإسلامية فى نظره إلا نزعة من الهرطقة المسيحية تدعو إلى مذهب جديد .

---

(١) Documents sur la Diplomatie Musulmane à l'époque du Prophète et des Khalifes Orthodoxes. Paris, 1935, p. 64-67.

هـذه الصورة الجديدة من التأويل التي تخيلها الدكتور محمد حميد الله يمكن أن تكون محلا للنظر، لولا ما ورد فيها من تعليق رسالة النبي عليه السلام الى المقوقس على علمه بالحالة السياسية، وسوء حال البطرك ، لأن ذلك لم يكن بأية حال سبب الدعوة التي لم يختص بها المقوقس وحده، بل شملت غيره من الملوك ككسرى وقيصر وغيرهما .

ومما يعترض التسليم بهذا الرأى أن بنيامين لم يكن هو المقوقس، فقد تقدم من أمره وحكاية اختفائه الى انتهاء عمرو من فتح مصر ما فيه البرهان التام على ذلك .

وقد تناول بحث الدكتور محمد حميد الله شخصية مارية ، وسيرين ، فقال : ان الروايات كلها أجمعت على ذكر مارية . وأما سيرين فانها وردت فيها باسم سيرين أو شيرين . وفى رواية ذكرها ابن عبد الحكم : « كان اسم أخت مارية قيسر، وقيل بل كان اسمها سيرين وقيل حنة . وذهب الى تفضيل الرواية الأخيرة على زعم أن سيرين من الأسماء الفارسية، وأن البطرك إذا أهدى جارية ، فإنما تكون مسيحية بل قبطية . ثم قال : ويجوز أنها فارسية حجزت بمصر بعد جلاء الفرس عنها واعتنقت الدين المسيحى .

وقد أغفل فى كلامه ما ورد فى الروايات عن كونها أخت مارية وأن اسم أبيها شمعون (١) مما يرجح معه أنهما من أصل إسرائيلى ممن أسروا فى حروب الفرس واكتسب الجنسية القبطية بالإقامة فى مصر .

ولا يخفى أن مارية وسيرين وشمعون من الأسماء المتداولة الى الآن عند الإسرائيليين ولا يوجد بين أقباط مصر من اسمه شمعون .

(١) القسطلانى ، المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٧٤

وفى سياق كلامه يذكر الدكتور محمـد حميد الله الاعتراض الذى نفى به الأستاذ ڤييت ارسال كتاب من النبي عليه السلام الى المقوقس، مستشهدا بأن بطرك الاسكندرية لم يكن مرخصا بتبادل كتب من هذا القبيل .

وقد ردّ الأستاذ محمد حميد الله على ذلك بقوله : أنه لم يقف على المصادر التى يرجع اليها الأستاذ ڤييت ، وأن فترة الانتقال بين جلاء الفرس عن مصر وعودة الحكم فيهـا الى الروم، إذا روعى فيها مسلك البطرك بنيامين حيال البيزنطيين، تكون كافية لتبرير مخالفة هذا البطرك لحكومته .

وأتبع الدكتور محمد حميد الله ذلك بحديث المخطوط الذى عثر عليه فى دير أخميم منقولا عن المجلة الأسيوية[1] ؛ وهو لا يزيد عما تقدّم فى كلامنا عن هذا المخطوط؛ وانما جاء فيه أيضا : أن مسيو بارتيليميه سمع من بعض الأقباط أن محمدا صلى الله عليه وسلم أرسل الى المقوقس أربع نسخ من كتابه ، وأنه قول لم يرد فى روايات المـؤرّخين . ومن رأيه أنه لم يكن هنـاك ما يدعو الى ذلك لأنه على فرض ضـياع الكتاب من حامله ، كان من السهل تبليغ مضمونه شفهيا . وقيل له إن الصور المزعومة حفظت منها واحدة فى الكنيسة البطريركية بالقاهرة (كنيسة انبا مرقص) ، وأنه لم يتمكن من تحقيق هذا القول . وقيـل له إنه موجود عندهم كتاب آخر أرسـله المقوقس ردّا على كتاب النبي عليـه الصلاة والسلام . وقد عقب الدكتور محمد حميد الله على ما ذكر بأن العثور على هـذا المخطوط فى الدير ، فى تلك الظروف الخاصة، يؤيد صحته لأنه فى الواقع لا ينص على أى امتياز يستدعى تزويره .

---

(١) Journal Asiatique, 1854, p. 483—8 .

ومن الغريب أن يأتي استنتاج الدكتور محمد حميد الله على هذا الوجه، مع أن ما قيل عن النسخ الأربع من الكتاب والرد الذى قيل أنه أرسل الى النبي عليه السلام، لا يدع مجالا للشك فى أن هذا المخطوط مزيف .

وهى سخافات لا تفوت الناقد البصير .

وقد يكون مصدر القول بتعدد النسخ ما جاء فى تاريخ الأمم والملوك للطبرى[1]، فى حوادث سنة ست هجرية : « وفيها بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الرسل ، فبعث فى ذي الحجة ستة نفر، ثلاثة مصطحبين حاطب ابن أبي بلتعة ... » .

الخلاصة :

نخلص مما تقدم الى أن المقوقس لم يكن بطركا ، فليس هو قيرس ولا بنيامين وما زال اسمه مجهولا ؛ فليس هو المقوقس بن قرقب ولا جريج ابن مينا بن قرقب ، ولا غير ذلك، مما رأيناه فى معجم كتاب الدكتور بتلر ومصادره .

أما من جهة مركزه فان المأخوذ من جميع الروايات المتواترة عنه ، أنه كان عظيما فى البلاد، من أسرة متوطنة فيها ؛ بدليل ما هو ثابت من وجود قرابة له بين أهلها، ثم تولى شئون مصر من قبل هرقل بحكم مركزه، ويرجح جدا أنه كان روميا متمصرا مخلصا لمصر وأهلها ؛ وأنه هو الذى تلقى كتاب النبي عليه الصلاة والسلام، وعقد الصلح مع عمرو بن العاص، ثم اعتزل شئون البلاد بعد المعاهدة، وقال لعمرو : " لا تبذل للروم ما بذلت لى

---

(١) جـ ٣ ص ٨٤

فانى قد نصحت لهم فاستغشونى، ولا تنقض القبط فان النقض لم يأت من قبلهم ، و إن تأمر بى اذا مت فادفنى فى يحنس[1] ؛ وأن لقب المقوقس كان خاصا به دون غيره،لا أنه كان لقبا لكل من يحكم مصر . ودليله عدم وجود نصوص عند المسلمين وغيرهم تعطى سواه هـذا اللقب؛ وأنه كان موجودا عند ما نقض الروم الصلح بالإسكندرية فلم ينكث ولم يتحرك ؛ وأن حاكم الإسكندرية الذى تولى من بعده أعماله وفاوض عمرا عن فتح الإسكندرية — وليس هو قيرس — لم يلقب بالمقوقس فيما رواه الطبرى بل دعى حاكم الإسكندرية ؛وان هذا الحاكم لم يكن روميا بدليل قوله فى مفاوضته لعمرو : " انى قـد كنت أخرج الجزية الى من هو أبغض الى منكم معشر العرب، لفارس والروم " .

(١) وقد نقل الدكتور بتلر عن المقريزى (ج ١ ص ٢٩٣) بدلا من يحنس "جسر الإسكندرية" وهو كما يتبادر تحريف للفظ " يحنس " مرجعه النقل من الأصل الذى أخذ عنه المقريزى .

الفسطاط

تخطيط المسجد، فالمدينة :

لما رجع عمرو الى بابليون بعد فتح الإسكندرية نزل بجوار الحصن، موضع فسطاطه، واتخذه فى ذى القعدة سنة ٢١، دارا وسكنها المسلمون، وأصبحت القاعدة الأولى للديار المصرية، ونسبت الى عمرو فقيل : «فسطاط عمرو» . واختط عمرو بهذه المدينة مسجدا ولم يكن بها غيره الى أن أنشئت العسكر . وهو الجامع الذى يقال له جامع عمرو بن العاص . وقد أفردنا له البحث الثانى من هذه السلسلة لأهميته .

وقد تداولت عن السبب فى تسمية عاصمة مصر الأولى بالفسطاط رواية ظريفة، قيل : ان عمرا لما عزم على السير الى الإسكندرية أمر أن ينزع فسطاطه، فاذا فيه يمامة قد فرخت، فقال : لقد تحرمت بجوارنا . وأمر بالفسطاط فأقر كما هو . فلما قفل المسلمون من الإسكندرية، قالوا : أين تنزل؟ قالوا : الفسطاط . فغلب عليه ذلك .

وأذن عمرو للقبائل أن تختط حول الجامع[1]، فانضمت القبائل بعضها الى بعض وتنافسوا فى المواضع، فولى عمرو على الخطط معاوية بن حديج[2]، وآخرين أنزلوا الناس وفصلوا بين القبائل[3] .

(١) الخطط للقريزى ج ١ ص ٢٨٦؛ وعبارة المقريزى بهذا النص « واختطت قبائل العرب من حوله » .

(٢) حديج بضم الحاء المهملة . راجع الحاشية رقم ٢ ص ١٢ من كتاب الولاة للكندى .

(٣) الخطط ج ١ ص ٢٩٧

ومن سياق الخبر على هـذا الترتيب ، يفهم أن تخطيط المسجد الجامع كان سابقا على توزيع الخطط كما حدث فى الكوفة ، فقد روى الطبرى أن " أول شىء خط بالكوفة وبنى حين عزموا على البناء المسجد" وكان المسلمون يعملون ذلك اقتـداء برسول الله صـلى الله عليه وسـلم، فى بنـاء المسجدين المباركين بقبا والمدينة .

وصارت الخطة وهى كل محلة دنت منازلها تعـرف بالقبيلة، أو الجماعة التى اختطتها، أو بصاحبها الذى أختطها .

قال ابن زولاق : " وفرق عمرو بين الروم والفرس وجعلهم فى طرفى البلد، فأسكن الروم الحمراوات ، وبهم سميت الحمر الحمراء ، وأسكن الفرس بنى وائل وراشدة وبساتين بنى وائل، ولهم الى اليوم مسجد يعـرف بمسجد الفارسيين وأسكن القبط القصر، وأسكن العرب الخطط[1] " .

واتخذ عمرو لنفسـه دارا فى شرقى المسجد الجـامع ، فسميت دار عمرو الكبرى وكان بين يدى بابه فضاء لموقف دواب الجند . وكان مدخله إليها من بابها القبلى فى زقاق عرف بزقاق القناديل .

وقد ذكر الكندى هذا الزقاق وقال : انما وسم بزقاق القناديل لأنه كان منـازل الأشراف، وكان على أبوابهم القناديل . وقيل : انمـا قيل له زقاق القناديل لأنه كان برسمه قنديل يوقد على باب عمرو .

واتخذ عبـد الله بن عمرو داره بملاصقة دار أبيه . وعرفت بدار عمرو الصغرى .

واتخذ الزبير بن العوام داره فى غربى هذه الدار .

(١) كتاب فضائل مصر وأخبارها ؛ النسخة الخطية المحفوظة بدار الكتب المصرية رقم ٣٥٩١ « تاريخ » .

ولم يتخذ عمرو للإمارة دارا مخصوصة بل نزل بداره ، ولم يزل كل أمير بعده ينزل بالدار التى يكون بها سكنه الى زمن معاوية .

وعمرت الفسطاط وقد قصدها الناس من كل جانب ، وكثرت فيها الدور يزاحم بعضها البعض حول الجامع ، وعلى مقربة من قصر الشمع ؛ ومن ذلك دور كثيرة كانت موزعة فى السهل من النيل فى الغرب حتى عين الصيرة فى الشرق ، ومن جبل يشكر فى الشمال حتى الشرف فى الجنوب .

وكانت دورها تتخللها دور كثيرة لجماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولم تكن الخطط كلها للسكنى بل كان بينها ما خصص للتعليم ، كخطة عبد الرحمن بن ملجم ، فإنها أعطيت له بأمر أمير المؤمنين عمر ، يتخذها منزلا ليعلم الناس القرآن . وكان عبد الرحمن قد قرأ على معاذ بن جبل باليمن ، ثم انتقل الى مذهب الخوارج . وهو الذى قتل على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

الحمامات بالفسطاط :

وبنيت فى الفسطاط حمامات . وأول حمام منها بناه عمرو بن العاص ، ورآه الروم فاستحقروه ، وقالوا : يصلح للفار ، فصار يسمى حمام الفار .

وكانت حمامات الروم ديماسات كبارا ، واسعة ، ثلاث طبقات يدخل من الأولى الى الثانية ثم الى الثالثة .

ولبث المسلمون لا ينتشرون فى القرى الى ما بعد عصر الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين . ولذلك لم يؤسسوا فى القرى والدساكر مساجد .

وكانوا فى كل مكان يلتزمون القصد والاعتدال فى عيشتهم ، لأنهم كانوا منصرفين الى الجهاد والفتح . ولقد استؤذن عمر رضى الله عنه ، عند اختطاط البصرة والكوفة فى البنيان ، فقال : " افعلوا ولا يزيدن أحد على ثلاثة أبيات ، ولا تطاولوا فى البناء ، والزموا السنة تلزمكم الدولة " ، ذكر ذلك ابن خلدون وغيره ، وقالوا : وعهد عمر الى الوفد الذى استأذنه ألا يرفعوا بنيانا فوق القدر . ولما قالوا : وما القدر ؟ قال : ما لا يقربكم من السرف ولا يخرجكم عن القصد .

لذلك لم يكن البنيان منيعا ولا مرتفعا ، ولا تزيد البيوت عن طبقة واحدة فى الارتفاع .

ذكر أن خارجة بن حذافة ، ابتنى غرفة وكتب عنها الى عمر ، فأمر عمرا بأن يدخلها وينصب فيها سريرا ، ويقيم عليه رجلا ليس بالطويل ولا بالقصير ، فان اطلع من كواها هدمها ، ففعل ذلك عمرو ولم يبلغ الكوى فأقرها ، وهى أول غرفة بنيت بالفسطاط (١) .

وبنى عثمان بن قيس السهمى دارا لضيافة الناس ، فكانت أول ما بنى من دور الضيافة بمصر (٢) .

مدينة الجيزة — المسجد الأعظم بها :

وكان عمرو بن العاص لما نزل الفسطاط ، جعل طائفة من جيشه بالجيزة خوفا من عدو يغشاهم من تلك الناحية . ولما استقر به المقام أمر الذين خلفهم بالجيزة أن ينضموا اليه ، فكرهوا ذلك وقالوا : هذا مقدم

(١) ابن دقماق ، الانتصار ، بولاق ج ٤ ص ٦٠

(٢) ابن دقماق ، الانتصار ، بولاق ج ٤ ص ٦

قدمناه فى سبيل الله عز وجل وأقمنا به، ما كنا بالذى نرغب عنــه ونحن به منــذ أشهر . ولمــا كتب عمرو الى عمر بن الخطاب بذلك . أمر بأن يبنى عليهم حصنا من فىء المسلمين؛ فكرهوا ذلك وقالوا : لا حصن أحصن لنا من سيوفنا . وكرهت ذلك همدان ويافع، فأقرع عمرو بن العاص بينهم فوقعت القرعة على يافع، فبنى فيهم الحصن فى سنة إحدى وعشرين، وفرغ من بنائه فى سنة اثنتين وعشرين وأمرهم عمرو بالخطط بهــا [1] .

وكانت الجمعة تجمــع فى مسجد همــدان، وهو مسجد مراحق بن عامر ابن بكيل . وكان موضعه برحا، وقد عرف بالمسجد الأعظم، وكان الحصن ملاصق مسجد همدان .

وعلى عهــد ابن دقماق لم يكن لذلك أثر [2] .

تجديد الخليج :

وكان بحاشــية الفسطاط خليج قديم يعرف باسم « أمنيس تراجانوس [3] » يصب فى بحر القلزم، وقد مضى عليــه زمن طويل مردوما، فجاء أمر أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه بتجديده فحفره عمرو، فى ســنة ٢٣ ، وفرغ منــه فى ســتة أشهر . وجرت فيــه السفن ووصلت الى الحجاز فى الشهر السابع [4] ، وانتفع به فى نقل الطعام لأهل الحرمين، وسمى « خليج أمير المؤمنين » .

(١) الخطط للقريزى ج ١ ص ٢٠٦

(٢) الانتصار ج ٤ ص ١٢٦ و ١٢٨

(٣) قال الأستاذ كازانوفا : يظهر أن الخليج حفر محل خليج تراجان القديم (Augusti-amnis) الذى ينسب اليه إقليم أوجستى أمنيكا (Augustamnica) ويقال أن أرون (Aron) حفره منذ أوائل الفتح . راجع المجلد الأول من (Essai de reconstitution topographique de la ville d'al-Foustât ou Misr, p. XXVII.

(٤) ذكره الكندى فى كتاب «الجند العربى» ؛ راجع صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٠٢

وقيل : ان حفره كان عام الرمادة وهى سنة ست عشرة أو ثمانية عشرة ، وهو قول القضاعى . وهذا القول يرجع حفره الى تاريخ سابق على فتح العرب لمصر على القول المشهور ، وهو سنة عشرين .

وقد تقدّم ما قيل عن سنة الفتح من رواية سيف وغيره .

وخالف الدكتور بتلر الكندى ، فقال أن سنة ٢٣ تبـدأ فى نوفمبر سنة ٦٤٣ ؛ وقد مات عمر فى ذى الحجة منها ، وكانت السفن المصرية تأتى وقتئذ الى بلاد العرب تحمـل البضائع إليها ؛ ولا يعقل أن هـذا الخليج كله يحفر ويجهز لسير السفن فى أقل من سنة . وقال وقد يكون عمل فى الشتاء الذى قبله ، أى سنة (٦٤٢ — ٣) . وقال ان هـذا التاريخ غير محتمل فقد كان عمرو عند ذلك مشغولا فى فتح بنطابوليس الى آخر ما ذكره بذيل الصفحة رقم ٢٩٩ (١) ؛ وانتهى الى القول بأنه قد يكون تم فى شتاء (٦٤٣–٤) واستعمل فى فيضان سنة ٦٤٤ لأول مرة . ولكن ألم يكن فى وسع عمرو أن يعهد بهذا العمل الى غيره من ذوى المعرفة من بين أصحابه عقب صدور أمر عمر إليه و يتفرغ هو وجنده لأعماله ، وهو ما كان متبعا فى عصر الفتح . وقد مر علينا أن منذ مسـيره الى الإسكندرية كان معه من أهل مصر من يقوم باصلاح الطرق والجسور وغيره .

أما عام الرمادة ، فقال عنه الطبرى : انه سنة ثمانى عشرة[1] ، وروى عنه خبرا جاء فيه ، أن عمر كتب الى أمراء الأمصار يستغيثهم لأهل المدينة ومن حولهـا ويستمدّهم ، فكان أوّل من قدم عليـه أبو عبيدة بن الجراح وتتابع الناس واستغنى أهل الحجاز وأحيوا مع أول الحيا . ثم قال : وقالوا بإسنادهم

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٢٢٢

(يعنى بإسناد من نقل عنهم) : وجاء كتاب عمرو بن العاص ، جواب كتاب عمر فى الاستغاثة : أن البحر الشامى حفر لمبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم حفيرا فصب فى بحر المغرب فسدّه الروم والقبط فإن أحببت أن يقوم سعر الطعام بالمدينة كسعره بمصر حفرت له نهرا وبنيت له قناطر فكتب اليه عمر أن افعل وعجل ذلك ؛ فقال له أهل مصر : خراجك زاج وأميرك راض وان تم هذا انكسر الخراج . فكتب الى عمر فرد عليه : اعمل فيه وعجل ، أخرب الله مصر فى عمران المدينة وصلاحها ؛ فعالجه عمرو وهو بالقلزم ، فكان سعر المدينة كسعر مصر ولم يزد ذلك مصر إلا رخاء .

وهذا الخبر ليس فيه ما يحتم أن كتاب عمر الى عمرو فى الاستغاثة صدر منه فى آن واحد مع كتبه الى أمراء الأمصار فى سنة ١٨ ، والمرجح أنه كان بعد ذلك ، بحكم فصل الطبرى الخبر الى قسمين وتصدير القسم الثانى وهو الخاص بمصر بقوله : وقالوا بإسنادهم الخ ، لأنه تعقيب لا يمكن أن يقصد به غير تكميل الجزء الأول بخبر مرتبط به ، ولا مانع من أن يكون وقوعه فى وقت آخر ويؤيده قول الرواة فى القسم الأوّل من الخبر بعد أن ذكروا قدوم أبى عبيد على عمر : « وتتابع الناس » .

وما زال الخليج ينتفع به فى هذا الغرض حتى زمن عمر بن عبد العزيز ، ثم أهملته الولاة وترك ، فغلب عليه الرمل وانقطع ، وصار منتهاه الى ذنب التمساح من ناحية بطحاء القلزم . وقيل : أن أبا جعفر المنصور أمر بسدّه حين خرج عليه محمد بن عبد الله بن حسن بالمدينة ليقطع عنه الطعام[1] .

وفى الطبرى : "حتى حبس عنهم البحر بعد مقتل عثمان رضى الله عنه" .

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٢٢٤ و ٢٢٥ ، الكامل ج ٢ ص ٢٧٤

وذكر محمد رمزى بك فى تعليقاته على كتاب النجوم الزاهرة ، أن فم الخليج وقت فتح العرب لمصر كان واقعا بشارع الخليج المصرى، فى حذاء مدخل شارع بنى الأزرق بأرض جنينة لاظ الواقعة فى الجهة الغربيـة من جامع السيـدة زينب بالقـاهرة ، لأن النيـل فى ذلك الوقت كان يجرى فى المكان الذى فيه اليوم شارع بنى الأزرق وما فى امتداده جنوبا الى قصر الشمع وما فى امتداده شمالا الى قرية أم دنين، ثم يسير الخليج قليلا الى الشرق ثم ينعطف الى الشمال حتى نهاية المدينة، ثم يمر فى الأراضى الزراعية الى أن يلتقى بالترعة الإسماعيلية عند العباسة بمديرية الشرقية، ثم يسير الخليج شرقا ثم الى مدينة الإسماعيلية . ومنها الى السويس حيث البحر الأحمر وفى سنة ١٨٩٩ تم ردم الجزء الواقع من الخليج المصرى داخل مدينـة القاهرة وحل محـله الآن شارع الخليج المصرى .

وقد أغفل فى كتب التاريخ والخطط توضيح المـادة التى كانت تستعمل فى البنـاء ، هل هى اللبن أو الآجر ؟ وورد بصورة مجملة ، أن المسلمين لمـا سكنوا القرى والأمصار بنوا بالمدر واللبن .

ولم تكن بالإسكندرية خطط ، وإنما كانت أخائذ ، من أخذ منزلا نزل فيه هو وبنو أبيه وكان عمـرو عند فتحها رأى بيوتها وبناءها مفروغا منهـا وهم أن يسكنها ، وقال : مساكن قـد كفيناها ؛ ولكن عمـر كتب اليـه كما كتب الى غيره من أمرائه ، لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلا يحول المـاء بينى و بينهم شتاء ولا صيفا [١] .

---

(١) الخطط للمقريزى ج ١ ص ١٦٧

فكان المسلمون يسكنون هـذه البيوت فى رباطهم، فاذا قفلوا سكنها الروم وعليهم مرمتها ، لأنها كانت لغـيرهم من الروم الذين غادروا البـلاد عقب الفتح .

عزل عمرو بن العاص عن مصر وعودته واليا على الإسكندرية — واقعة منويل الخصى :

وفى ٢٦ من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين هجرية (٦٤٣ — ٤ م)؛ توفى عمر رضى الله عنـه وبايع المسلمون أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه، فوفد عليه عمرو بن العاص وسأله عزل عبـد الله بن سعد بن أبى سرح العامرى عن الصعيد؛ وكان عمر ولاه عليه قبـل موته، فامتنع عثمان وعقد لعبد الله على مصر كلها .

وانتقضت الروم فى سنة خمس وعشرين هجرية (٦٤٥ — ٦م)، وقد طمعوا فى مصر على عهد قسطنطين بن هرقل (قنسطان الثانى Constant)، وقدموا فى المراكب وعليهـم منويل الخصى حتى أرسـوا بالإسكندرية ، وأجابهم من بها من الروم فطلب أهل مصر ، (القبط) ، من عثمان أن يرد عمرا لمحـاربة منويل لمعرفته بحربهم وطول ممارسته لها ، وكانوا يخشون أن يعودوا تحت حكم الملكية . فردّ عثمان عمرا واليـا على الإسكندرية . وكان على الإسكندرية سورها، فحلف عمـرو لئن أظفره الله على الروم ليهدمنه ، وخرج اليهم فى البر والبحر، ولم يكن المقوقس تحرك ولا نكث كما تقـدم ذكره وانضم اليه من أطاعه من القبط . وأما الروم فلم يطعه منهم أحد .

وخرج الروم من الاسكندرية قاصـدين عمرا ، وجعلوا ينزلون القرية فيشربون خمورها ويأكلـون أطعمتها وينتهبون ما مروا به ، حتى بلغوا

« نقيوس » والتقى بهم عمرو فقاتلهم وهزمهم ، وطلبهم المسلمون حتى ألحقوهم بالإسكندرية . وقتل منويل الخصى ، وأمعن عمرو فى قتلهم فى المدينة الى أن تكلموا معه فى ذلك ، فأمر برفع السيف عنهم [(١)] .

مسجد الرحمة بالإسكندرية :

وبنى فى ذلك الموضع الذى رفع فيه السيف مسجد سمى « مسجد الرحمة » ، لرفع عمرو السيف هناك . وقد ذكره ياقوت فى كلامه على مسلتى الإسكندرية فقال : إنهما عند مسجد الرحمة [(٢)] .

وهدم عمرو سور المدينة كله وجمع ما أصاب منهم ، فجاءه أهل القرى ممن لم يكن نقض ، فقالوا : قد كنا على صلحنا وقد مر علينا هؤلاء اللصوص فأخذوا متاعنا ودوابنا وهو قائم فى يديك . فرد عليهم عمرو ما كان لهم من متاع عرفوه وأقاموا عليه البينة [(٣)] .

ولقد كان لهذه المعاملة وما يماثلها من الأثر فى نفوس القوم ، ما هوّن عليهم الانتقال من سلطان الروم الى سلطان المسلمين .

وكان فتح الإسكندرية فى هذه المرة عنوة [(٤)] .

ولاية عبد الله بن سعد على مصر كلها — غزو إفريقية والأساود :

ثم جمع لعبد الله بن سعد أمر مصر كله صلاتها وخراجها ، فغزا إفريقية سنة سبع وعشرين ، وبث السرايا فى البلاد ففتحها سهلها وجبلها ، وقتل

(١) الخطط للقريزى ص ١٦٧ و ١٦٨ . التوفيقات الإلهامية ص ١٣ ؛ فتح العرب لمصر ص ٤٠٥ — ٤١٣ راجع ما يأتى عن قنسطانز الثانى . ص ٢٥٩

(٢) معجم البلدان ج ١ ص ٢٣٨ (٣) الخطط للقريزى ج ١ ص ١٦٨

(٤) الخطط للقريزى ج ١ ص ١٦٨

«الأجل» بطريقها وكان سلطانه من طرابلس الى طنجة . وضرب عبد الله فسطاطه فى موضع القيروان واجتمع عظماء إفريقية وصالحوه وحسنت طاعتهم .

قال الواقدى : ورجع عبد الله الى مصر ولم يول على إفريقيـة أحدا ، ولم يكن لها يومئذ قيروان ولا مصر جامع .

وغزا عبد الله الأساود (جمع أسـود) حتى بلغ دمقلة[1] وهى منزلة ملك النوبة ، وكان من سبيها والد يزيد بن حبيب أحد مشاهير رواة الكندى .

وكانت النوبة نقضت الصلح عقب وفاة عمـر رضى الله عنه ، فحصرهم عبـد الله بن سعد سنة إحدى وثلاثين بمدينتهم حصارا شديدا ورماهم بالمنجنيق ، ولم تكن النوبة تعرفه . وخسف بهم كنيستهم بحجر فتهدّم ذلك ، وطلب ملكهم الصلح واسمه قليد وروث . وكتب لهم عبد الله كتاب أمان وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهـل الذمة على شرائط ، منهـا : ألا يدخل أحد الفريقين بلد الآخر إلا مجتازا غير مقيم فيه ، وأن يردّ كل آبق من العبيد الى أرضه ، وأن يحفظ المسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء دمقلة ، ولا يمنع منه مصل مع كنسه واسراجه وتكرمته[2] .

غزوة ذى الصوارى :

لمـا أصاب المسلمون من أهـل إفريقية ، خرج قسطنطين بن هرقل فى جمع له لم تجمع الروم مثله مذ كان الإسلام . وقد قيل له : أتترك الإسكندرية

(١) هى القرية التى تعرف اليوم فى السودان المصرى باسم « دنقـله العجوز » وهى واقعة على الشاطئ الشرقى للنيل . وقد كانت قديمـا قاعدة مملكة النوبة السفلى فى زمن النصرانية الى أن استقر بها المسلمون من سنة ٦٨٦ هجرية .

(٢) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٢٠٠

فى أيدى العرب وهى مدينتنا الكبرى ؟ وعلم عبد الله بن سعد بقدومه فى خمسمائة مركب وقيل ألف ، فخرج اليهم وعلى أهل الشام معاوية بن أبى سفيان وعلى البحر عبد الله بن سعد . وكانت الريح على المسلمين لما شاهدوا الروم ، فأرسى المسلمون والروم وسكنت الريح وقرب الروم سفنهم وفعل المسلمون مثلهم وربطوا بعضها مع بعض بالسلاسل واقتتلوا بالسيوف والخناجر والنبل والنشاب والحجارة ، وقتل من الفريقين بشر كثير ، ثم أنزل الله نصره على المسلمين فانهزم قسطنطين جريحا ، وبعث الله ريحا أغرقت أصحابه ونجا هو الى صقلية[(١)] . قيل : ولما سألوه عن أمره وأخبرهم صنعوا له الحمام وقتلوه . وكانت هذه الغزوة فى سنة أربع وثلاثين ، وأوردها ابن الأثير فى سنة احدى وثلاثين[(٢)] .

قسطنطين الثالث وابنه قنسطان الثانى :

لما مات هرقل فى ١١ فبراير سنه ٦٤١ (٢٣ من صفر سنة ٢٠ هجرية) خلفه قسطنطين الثالث بالاشتراك مع أخيه من أبيه هيراقلوناس Heraclonas وأخذ هذا الأخير بمساعدة أمه الأمبراطوره مارتين Martine و بتأييد البطرك بيروس Pyrrhus ينازع أخاه قسطنطين ويتحكم فى الأمور . حتى مات قسطنطين فى ٢٢ من يونيه سنة ٦٤١ .

وقد نقل الدكتور بتلر عن حنا النقيوسى أنه مات من انفجار عرق على ما يظهر ، وعن غيره أن امرأة أبيه مارتين دبرت موته مع بيروس وقيل مع قيرس . وقال انها تهمة لا أساس لها[(٣)] .

(١) هى المعروفة الآن بجزيرة سيسيليا إحدى جزائر البحر الأبيض المتوسط ، واقعة فى جنوب مملكة إيطاليا وتابعة لها . (٢) تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ٦٩ — ٧١ الخطط للمقريزى ج ١ ص ١٦٩ ستانلى ، تاريخ مصر فى القرون الوسطى ص ٢٣ .

(٣) فتح العرب لمصر ص ٢٦٤ ورقم (٢) بذيل الصفحة .

وفى دائرة المعارف الفرنسية[1] أنه مات مسموما بتدبير مارتين والبطرك بيروس . وقد ذكره بتلر باسم قسطنطين الثانى . وفى دائرة المعارف قسطنطين الثالث «فلاڤيوس هيراقليوس» Flavius Héraclius . وكان يسمى هرقل الأصغر Héraclius le Jeune .

وانفرد هيراقلوناس بالحكم بعد موته ؛ ولكن الجند ثاروا عليه واضطروه لأن يقيم فى الحكم ابن أخيه قسطنطين الثالث الذين كانوا مخلصين له واسمه فلاڤيوس قنسطان ؛ وعرف باسم قنسطان الثانى Constant II . وقبل مضى سنة على ذلك خلع مجلس الشيوخ Le Sénat هيراقلوناس متهما باغتصاب الملك وأبعد عن بيزنطه منفيا مع أمه مارتين ، بعد أن عذب بقطع أطرافه فى شهر أغسطس سنة ٦٤٢ ميلادية ، واعتقل فى دير هلك فيه فى وقت غير معلوم .

وقد ورد فى ترجمته بدائرة المعارف ، أنه لم يستطع مقاومة العرب . وكانت إنتصاراتهم تنبئ باشراف الدولة البيزنطية على الخراب . وقد ذكر فى وقعة ذى الصوارى باسم قسطنطين ؛ وقيل أنه حضرها وجرح فيها ونجا الى صقلية وقتل بها . وقال الأستاذ ڤييت فى تعليقاته على متن الخطط للقريزى «المواعظ والإعتبار» ج ٣ ص ١٦٥ : وفى الواقع كان الأسطول بقيادة قنسطان الثانى بن قسطنطين[2] .

وكان مكروها بالقسطنطينية ؛ وذهب الى إيطاليا فى سنة ٦٦٢ ونهب رومية ثم قصد صقلية وأقام بمدينة سرقوسة Syracuse حيث قتل

(١) دائرة المعارف الفرنسية المجلد ١٢ ص ٥٨٢ .

(٢) Carra de Vaux, in Avertissement, p. 217 n. 2.

وهو فى الحمام . ومكث فى الحكم من سنة ٦٤١ — ٦٦٨ م (سنة ٢٠ — ٤٨ هجرية)[١] .

ولاية عمرو بن العاص الثانية — ملخص ما سبقها من حوادث — وفاته :

ولم يزل عبد الله بن سعد واليا على مصر حتى غلب محمد بن أبى حذيفة عليها . وكان عبد الله وفد الى أمير المؤمنين عثمان حين تكلم الناس بالطعن عليه، وتابع ابن أبى حذيفة أهل مصر طرا الا أن يكون عصابة منهم معاوية ابن حديج وبايعوه ، وكان أول من بايع على الطلب بدم عثمان ، وحصلت أمور انتهت بمقتل ابن أبى حذيفة .

وكانت مصر من جيش على فأمر عليها قيس بن سعد ، ثم عزله واستعمل عليها محمد بن أبى بكر الصدّيق، ثم عزله وولى مالكا الأشتر فاعتل بالقلزم[٢] . قيل شرب شربة من عسل فمات ، فلما بلغ عمرو بن العاص قال : " ان لله جنودا منها العسل " .

وكان مالك ثقل على علىّ رضى الله عنه وأبغضه ، فلما بلغه موته قال : لليدين وللفم .

---

(١) راجع فى دائرة المعارف الفرنسية : قسطنطين الثالث وهيراقلوناس وقنسطان الثانى و بيروس ومارتين .

(٢) القلزم مدينة مصرية قديمة ؛ و يستفاد من الحاشية التى كتبها عنها رمزى بك ص ١٥١ ج ٨ من كتاب النجوم الزاهرة ، أنها اندثرت وحلت فى مكانها مدينة السويس . وهى الثغر المصرى الشهير الواقع فى شمال البحر الأحمر .

وولى محمد بن أبى بكر ثانية، فقتله معاوية بن حديج وأحرقه فى جوف حمار . وكان معاوية بعث عمرو بن العاص فى جيوش إلى أهـل الشام وإلى مصر وقاتل ثم دخل بأهل الشام الفسطاط، وكان ذلك فى سنة ثمان وثلاثين .

واستقبل عمرو بن العاص بولايته شهر ربيع الأول سنة ثمـان وثلاثين وجعل إليـه معاوية الصلاة والخراج جميعا، وكانت مصر جعلت له طعمة بعد عطاء جندها والنفقة على مصلحتها .

وفى ولايته هـذه عقد عمرو لعقبة بن نافع على غزو هوارة، ولشريك ابن سمى على غزو لِبْدَة وقد عادا بعد غزوهما وعمرو فى مرض موته .

وتوفى عمرو فى ليـلة الفطر ووضع بالمصلى ، وصلى عليه ابنه عبـد الله ابن عمرو، ولم يبق أحد شهد العيد إلا صلى عليـه ثم صلى العيد بالناس ابنه؛ وكان أبوه استخلفه :

وكان آخر قوله : اللهم أمرتنـا فتركنا ، ونهيتنا فركبنا ، ولا يسـعنا إلا مغفرتك .

رحمه الله ورضى عنه :

خاتمة

على هذا الوجه انتهى البحث الأوّل وقد تناول الكلام أمورا كثيرة على جانب عظيم من الأهمية ، منها روايات أفسدها النقل المحرّف والحشو الباطل فكشفنا عن مواقع الخطأ فيها ، ورجحنا القول الصحيح كما حصل فى خبر مسير عمرو الى مصر ؛ ومنها ما حمل معناه على غير المراد منه إما قصدا وإما لسبب آخر ، فرددناه الى أصله ، فظهر مثلا موقف القبط من البيزنطيين والمسلمين على حقيقته ، وسقط الاتهام الموجه الى أهل مصر من القبط عن التواطؤ المزعوم مع العرب ؛ ومنها تواريخ دوّنت خطأ عن سهو فأعيدت الى أصلها وجاءت مؤيدة للروايات العربية كما تقدّم فى حكاية عودة بنيامين البطرك من منفاه ، وصححنا خبر مساعدة القبط للسلمين ، وعينا الوقت الذى ورد أنهم ساعدوا المسلمين فيه ؛ وفصلنا ما وقع بين العرب والروم من قتال ، وأثبتنا وقت مجىء المدد ، وحدّدنا موقع التحام جيشى الروم والعرب بعد الاستيلاء على أم دنين ، وأنه لم يكن بمدينة عين شمس الحقيقية "المطرية" ، مخالفين الدكتور بتلر فيما سماه "وقعة عين شمس" ، بالاعتماد على نصوص لم يلتفت اليها ، منها قول البلاذرى فيما رواه عن سير عمرو من أم دنين الى بابليون : "ومضى عمرو قدما الى الفسطاط فنزل جنان الريحان" ؛ وشرحنا خبر مقابلة أبى مريم وأبى مريام لعمرو بن العاص ، ومفاجأة عمرو بالبيات ؛ وصححنا الخطأ الذى تواتر عن المرقب وأهل البيعات ، وأوردنا ما ترتب من البحوث العقيمة على اللفظ الأوّل ؛ ووفينا الكلام على

قدر الاستطاعة عن حصار الحصن ؛ وساقنا الكلام خلال ذلك وفيما بعد الى بيانات كثيرة لطائفة من العلماء المعروفين عن بعض المواقع كعين شمس و بابليون وقصر الشمع ؛ وذكرنا المصادر التى نقلنا عنها ؛ ولم يفتنا الكلام عن المفاوضات الى أن تم الفتح ، ونفينا مزاعم كثيرة وجهت بلا حق الى المسلمين ؛ وأظهرنا الخطأ فى الاعتماد على بعض المكاتبات الظاهر بطلانها ؛ وتكلمنا عن عدل أمير المؤمنين عمر بالنظر إلى أهل الذمة ، ولم يكن رضى الله بحاجة الى ذلك ، وهو القائل فيما أوصى به للخليفة من بعده ، كما جاء فى صحيح البخارى : " وأوصيه بذمة الله وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا إلا طاقتهم " .

قال السندى فى حاشيته : " قوله بذمة الله وذمة رسول الله " أى بأهل الذمة [1] .

وأبطلنا ما قيل من أن المقوقس إنما صالح عمرا لما فتح الإسكندرية ، وفصلنا خبر فتح الإسكندرية بالرجوع إلى المصادر العربية وغيرها ؛ و بحثنا فى تواريخ فتح مصر والإسكندرية ، مؤيدين ما جاء عنها فى الروايات العربية ، كاشفين ما وقع فى غيرها من غلط وتحريف فى التأويل . وللبرهنة على صحة الروايات العربية وضآلة الخلاف بينها ، استعرضنا أقوال كبار المؤرخين ، وصححنا فى سياق الكلام ما ورد من خطأ فى النقل ؛ ثم تكلمنا عن المقوقس وكتاب النبى صلى الله عليه وسلم إليه وعما جر إليه البحث الخاص بهما ، إلى أن وقفنا عند النتيجة التى دوّناها فى الخلاصة .

---

(١) البخارى ج ٢ ص ١٨٤ بالمتن والهامش .

وقد وقف القارئ على ما جرّ اليه التساهل فى نقل أقوال الرواة وعدم العناية بتحريرها من الحشو والتحريف ، حتى صرنا ونحن ننظر الى الحقائق محوّلة عن مجراها الأصلى، تهدّدنا بوادر الشك والاستخفاف بأعمال السلف الصالح وأخبارهم .

وقد أصبح الكثيرون منا يجهرون بعدم كفاية أسلوب الكتابة القديم ونقص الشروح والتأويل ، ويتهافتون على كل رأى جديد يأتيهم مغايرا فى ثوبه القشيب، ولا يفكرون فى أن البحوث العلمية لا يكفى أن نتلقاها كما تجيء الينا، وإنما يعوزها التحرّى والتدقيق، وأن هذه البحوث لها تطوّر، وأن مايكتب اليوم وإن ظهر لصاحبه أنه الصحيح قد يستأنف تأويله فى غد.

يعرض هذا للمؤرّخ الباحث فى الاستنتاج الذى يصل اليه ، وقد يتعدّد ذلك ويتغير كلما فكر وفكر غيره .

انتهى المرحوم الدكتور بتلر من كتابه "فتح العرب لمصر" فى سنة ١٩٠٢ وتداولت بين العلماء أفكاره ، فرأيناهم يذكرونها إذا تناولوا الموضوع ؛ ولكنهم لا يحجمون عن التعديل فيها والتصحيح كلما لزم ذلك متدبرين مفكرين ، كما وقع مثلا فى كتاب "النظام الحربى فى مصر" تأليف المرحوم الأستاذ جان ماسبرو، وما ورد من مخالفة لنظرية الدكتور بتلر عن المقوقس وقيرس، فى الفصل الخاص بالمقوقس من دائرة المعارف الإسلامية الإنكليزية.

وقد ترجم حضرة الأستاذ المحترم محمد فريد أبو حديد كتابه "فتح العرب لمصر" من بضع سنين؛ وصارت له حظوة منذ ظهوره فى دور العلم، وكنا نأمل أن يتدبر من يعنيهم أمره وقد اتخذوه مرجعا يعتمدون عليه حتى قبل ترجمته ، بالرجوع الى الروايات الأصلية ومقارنتها بما وصل الينا المؤلف

فى التأويل لا الاكتفاء بجمال الأسلوب الذى أودعه مؤلفه فى كتابه، وقد تبين أنه تناول البحث فى شخصية الرواة، و بينهم أئمة معروفون، وفى أهم حوادث التاريخ الإسلامى فيما يتعلق بمصر وغير ذلك .

ولا يظن القارئ إنى أنكر أهمية كتاب الدكتور بتلر وغيره من البحوث الطريفة التى ذكرتها فى سياق كلامى وناقشتها، لأنها هى ولاشك الأصل الذى تفرع عنه هـذا البحث ؛ وما هو فى الحقيقة إلا تطور جديد فى فهم وقائع الفتح التى لهـا من المكانة العظيمة فى تاريخ مصر مايلزمنا باستمرار دراستها والبحث فيها، وألا نقتصر على ماقيل فيها منذ نحو ٣٩ سنة .

وقد كان من الواجب خصوصا وقـد جاءت نتيجة بحثى مغـايرة لبعض البحوث المفيـدة التى تقدمتنى أن أرجع الى جنـاب الأستاذ الكبير جاستون ڤييت للاستئناس برأيه فى الموضوع الذى كتبت فيه ، فعرضته عليه فقال :

" توفى المرحوم الدكتور بتلر منـذ زمن طويل، وقد مضى على ظهور كتابه " فتح العرب لمصر " نحو أربعين سـنة، وأصبح علماء أوربا الآن لا يشتغلون بالبحث فى آرائه " .

وهو عين ما كنت أشـعر به ، لمـا وجدت الواقع بيننا يجرى على أخذ هذه الآراء قضية مسلمة .

وفى حديث مع جناب الأستاذ ڤييت قال : "إذا ذكر لى الليث بن سعد أرانى مرتاحا لأقواله ، أما ابن لهيعة فلا " .

وهو قول خبير يتطلع الى الحقيقة ، عارف بمـا يلزم من التمييز بين الرواة والمؤرخين .

وكم سرنى قوله ، بعد أن اطلعته على هذه الكلمة التى أردت بها تسجيل رأيه : " أحب أن تضيف إلى ما تقدم : إنى لا أشك فى أن المرحوم الدكتور بتلر لو كان بيننا لرأيناه يغير آراءه التى ضمنها كتابه " .

ولست أخفى ما أشعر به من الإحترام والتقدير لآراء الأستاذ ج . ڤييت وأعماله . وقد أمضيت زمنا طويلا على مقربة منه أهتدى فى بحوثى بأفكاره وابتكاراته ، فلجنابه مزيد الشكر على سعة صدره ، وتفضله بالاطلاع على هذا البحث ، وتلطفه بالسماح لى بالرجوع الى مكتبة دار الآثار العربية لاستيفاء ما أحتاج اليه من المعلومات .

كما أنى أتقدم بخالص الشكر وعظيم الامتنان لجناب الأستاذ الكبير شارل كوينتز مدير المعهد العلمى الفرنسى لآثار الشرق ، لمثل هذه المساعدة القيمة والتفضل بالاطلاع على ما كتبته .

ومن الواجب علىّ أن أعبر عن عظيم امتنانى وشكرى لحضرة صاحب السعادة المهندس الكبير محمود أحمد باشا مدير الآثار العربية على تفضله بالسماح بنقل اللوحات والصور المحلى بها هذا الكتاب من محفوظات لجنة حفظ الآثار العربية . ويرجع وضعها الى سنة ١٩٠٩ ميلادية .

أما اللوحة رقم ١ فهى من تصوير جناب الأستاذ الشهير ا . كريسول ، وترجع الى ما قبل سنة ١٩٢٦ ، واللوحة رقم ٥ من تصوير حضرة حسن أفندى عبد الوهاب فى سنة ١٩٤٠ .

وأكرر شكرى لحضراتهم .

* * *

كمل طبع كتاب "مصر فى عهد الاسلام" بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الأربعاء ١٩ ربيع الأول سنة ١٣٦٠ (١٦ أبريل سنة ١٩٤١) م

محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب
المصرية

استدراك

صفحة	سطر	
١٧٠	١٤	وان نجد مبررا
٢٠١	١	«حضرة» بدلا من «المرحوم»
٢٠١	—	ما كتب بهذه الصفحة بالهامش تحت رقم (٢) نقل اليها سهوا ومحله بأول هامش الصفحة التالية ٢٠٢ تحت رقم (١) ويليه : وكتب اليه رسول الله
٢٦٨	٦	يضاف بآخر السطر : عنه


Bibliotheca Alexandrina
06855406